

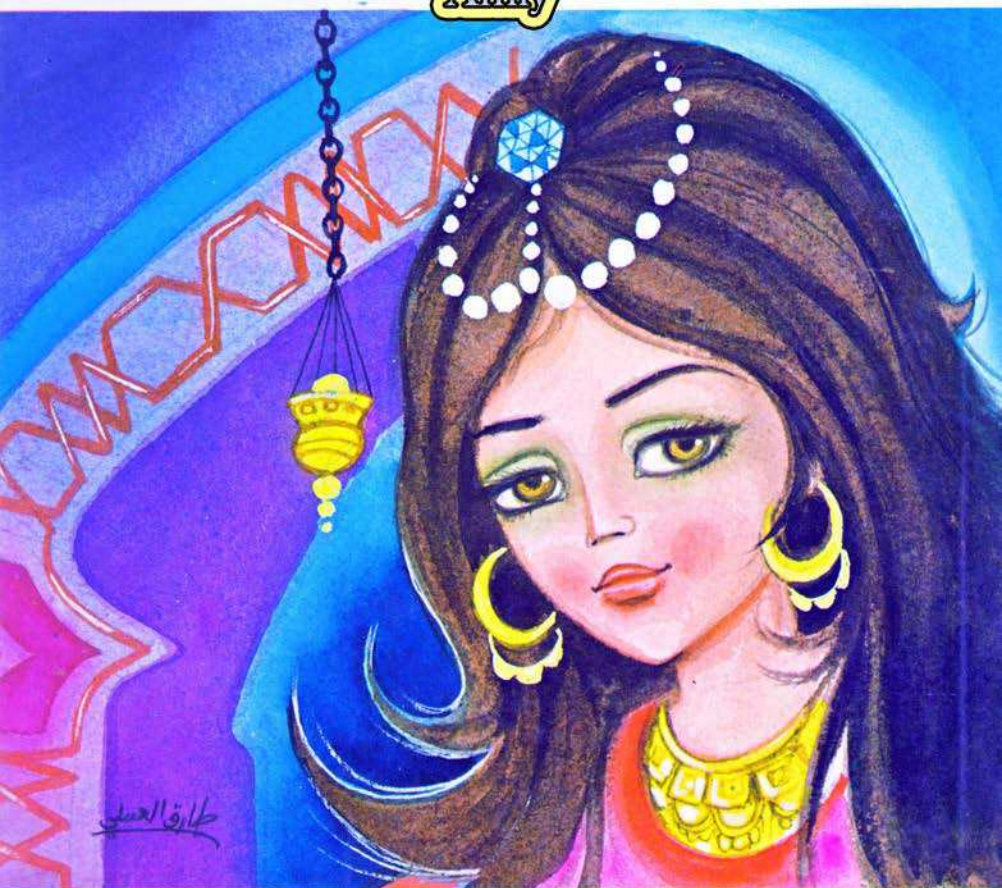
اميل حبشي الأشقر

روايات تاريخ العرب والأسلام

فتاة الشام

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

Amly



دار الأندلس

فِتْيَاةُ الشَّهِيدِ

روايات تاريخ العرب والاسلام

أُمِّيلْ مَبْسُومِي الْأَمِيرْ

فَتَاةُ الشَّهَادَةِ

دار الأندلس

للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

١٩٨٣ هـ - ١٤٠٢ م

دار الأستاذين : بيروت ، لبنان

هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ - تلخس ٢٣٦٨٣

معاوية بن أبي سفيان

تعودنا أن نضع لكل رواية نكتبها تمهيداً ، هو بيان واضح لكل ما يحيط به
بقية من الموضوع الروائي .

وليس من الوأي أن ننتقل في البحث التاريخي الروائي ، الى العصر الأموي
دون أن نصف لك بوضوح وجلاء معاوية بن أبي سفيان ، هذا الرجل العظيم
الديامية الذي وضع الحجر الأول في بناية الدولة الكبرى ، دولة دمشق .

أجل ، لقد ذكرنا في الرواية السابقة شيئاً عن معاوية ، ومرّ في الروايات
التي تقدمتها ، وصف قريش ، قريش التي أنجبت رجالاً سادوا الشرق ، ونقلوا
إليه مدنات الشعوب وأطلقوا أعنة خيلهم الى الغرب ، يريدون أن يخفّق العلم
العربي ، في فضائه .

ولكن . . . قد يخونك الذهن وتضيع ، في كل ما قرأت ، فخير لنا ولك ،
أبها القارئ العزيز ، أن نرسل اليك هذا البيان ، ليسهل الرجوع اليه في
قراءة فتاة الشام .

قريش

أشهر بطون قريش ، بنو هاشم وبنو عبد شمس ، ويتلاقى نسبها معاً ، في
عبد مناف بن قصي ، الذي وصفنا حياته الخاصة والعامة ، في روايته
حسناء الحجاز .

والنبي العظيم من بني هاشم ، هو ابن عبد الله بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن
عبد مناف ، وبنو أمية من عبد شمس ، منهم أبو سفيان بن حرب ، عدو النبي

قبل إسلامه ، وابنه معاوية مؤسس دولة الشام وعثمان بن عفان ، ومروان بن الحكم ، وغير هؤلاء .

فمعاوية إذن ، ابن أبي سفيان ، بن حرب ، بن أمية الأكبر ، بن عبد شمس ، ابن عبد مناف .

وكان أبو سفيان كبيراً في قريش ، عظيماً في مكة ، له المنزلة العالية في العشيرة والرأي المحترم ، وعنده المال الكثير يخرج به الى الشام والبلقاء وحوران على رأس طائفة كبيرة من قومه ، فيها أصهاره وبنوه ثم يرجع وقد اتسعت تجارته ووفر ماله .

على انه كان يحمل في صدره عداوة لبني عمه بني هاشم ، كما كانت بنو هاشم يحملون في الصدور عداوة لبني عمهم بني أمية .

ولكن أبا سفيان لم يخلق هذه العداوة ، بل خلقها جده أمية ، بعد موت عبد مناف ومر الزمان وهي تشتد ، وحب النفوذ والسلطان ، يزيد النار ضماً وسعيراً .

نعم إن الحسد الذي تغلغل في صدر أمية بن عبد شمس هو الذي خلق العداوة القاتلة ، بين البيتين الكبيرين في قريش ، وقام بنوه وأحفاده بعده ، يخوضون بحرها الزاخر ، ويقذفون بأنفسهم الى الأعماق .

كان أمر السقاية والرفادة في الكعبة قد انتهى الى عبد مناف ، بن قصي . فلما مات عبد مناف . انتهى أمرها الى ولده هاشم وأميه ، ابن اخيه عبد شمس ، ينظر الى هذه الولاية بعينين تنقد فيها النار .

كان هاشم يطعم الناس ، كما كان يطعمهم أبوه ، وقد ذهب له في رياسته ذكر ، ملأ الحجاز ، وتحدثت به جزيرة العرب .

فخطر لأمية أن يسابقه ، وأوحى اليه حسده أن يطعم العرب ، عند الكعبة ، ما لا يطعمهم هاشم مثله .

ولكنه سجن عن ذلك ، فكان عجزه سبباً للاستخفاف به ثم انتهى الامر

بينها الى المنافرة ، أي التفاسخ « وانما سميت منافرة لأنهم كانوا يقولون اذا تنافروا : أينأ أعز نفراً » .

غير أن هاشماً كره أن ينافر ابن أخيه ، فأكرهته قريش على ذلك ، ففعل ، ونافره على خمسين ناقة ، وعلى أن يترك المغلوب مكة عشرين سنة . . !
وجعل الكاهن الخزاعي حكماً بينها ، فما لبث هذا الكاهن حتى قضى لهاشم ، وغلب أمية .

فأخذ هاشم الإبل فنحرها وجعلها طعاماً للناس ، وكان الحكم يقضي على ابن أخيه بالجلء عن مكة ، عشرين عاماً كما مر ، فجلا وأقام بالشام أعوامه العشرين وهو يحمل ذلك البغض الغريب في قلبه .



تلك هي العداوة التي علقت آثارها في نفوس الأمويين ، منذ ذلك الزمن ، وهي العداوة الأولى التي نشأت بين الحيين .

فلما أظهر النبي دعوته ، وتلألأت أنوار تعاليمه في فضاء الحجاز ، خطر لأبي سفيان وهو صاحب الجاه العريض والتجارة الواسعة ، أن يجاهره بالعداوة ، وينفخ في صدور جماعته من قريش ، روح الدفاع عن أصنام الكعبة ، التي هي آلهة العرب .

ولعله كان يخاف أن تسقط هذه الأصنام ، وتراجع وفود القوم عن مكة ، ويبطل الحج ، وفي ذلك ما فيه من بوار تجارته التي جعلته من صف الأغنياء .
أضف الى ذلك خوفه من أن يحجب نفوذ بني هاشم ، نفوذ بني أمية ، ويستأثر الهاشميون بالسلطان .

وأبو سفيان قوي في مكة كما رأيت ، وخلفه طائفة من وجوه قريش ، هم أصحاب مال وأصحاب سيف .

فتصدوا للنبي ، ثم حاربوه حرباً آثروا معها الموت على الحياة في ظل بني هاشم ، ولم تزل هذه الحرب قائمة بين الفريقين ، حتى فتحت مكة ، وقد قرأت أخبار هذا الفتح في رواية ، هند والمنذر .

نشأة معاوية

ولد معاوية ، في السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة ، وأمه هند بنت عتبة ، بن ربيعة بن عبد شمس .

ونشأ كما ينشأ أبناء النبلاء ، عباد الأصنام ، في ظل قوم هم سادة الحجاز وحراس البيت الحرام ، وقد شهر السيف في وجه النبي العظيم ، كما شهره أبوه حتى أسلم أبو سفيان وبنوه ، عام الفتح ، وفيهم معاوية ، وهو في السادسة والعشرين . وكانت أمه هند امرأة ذات صلابة وشد ، وقد أسلم زوجها وبنوه ، قبل أن تعرف الإسلام وقبل أن تدخل فيه .

فلما أقبل أبو سفيان ، يدعو الناس في مكة الى الاسلام ، كان يقول : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . وسمعت زوجته هند ما يقول ، فأمسكت لحيته ورفعت صوتها قائلة : اقتلوا الخبيث الدنس الذي لاخير فيه ، اقتلوا الشيخ الأحق . . هلاً قاتلتم ودافعتم عن أنفسكم وبلادكم . وهذا معناه أن معاوية ورث من أمه شيئاً من عزتها ، وعزيمتها الثابتة . وقرب النبي معاوية اليه ، بعد إسلامه ، حتى تولى الكتابة بين يديه ، وجاء في « السيرة الحلبية » أن معاوية مع زيد بن ثابت ، كانا يكتبان للنبي في الوحي وغيره ، ليس لها عمل غير هذا .

وبدأ معاوية منذ ذلك الحين يعالج السياسة ويبلو الزمان . وكان داهية هادئاً ، واسع الحلم رحب الصدر ، يطمح الى المعالي حتى انه لم يكن لطموحه حد .

ومات النبي وتولى أبو بكر ، فبعث بقواد الجيش لفتح الشام ، ويزيد بن أبي سفيان ، شقيق معاوية ، بين أولئك القواد .

وسار معاوية مع أخيه ، يشهد الوقائع ويبرز الى ساحات الحرب ، ولكنه لم يكن رجل حرب ، بل رجل سياسة ودهاء .

ثم فتحت الشام ، فخرج منها ابو عبيدة بن الجراح يريد فتح الساحل ، واستخلف عليها يزيد بن أبي سفيان .

وزيد بعيد الهمة صادق العقيدة ، وقد رأى أن بعض مدن الساحل لم تخضع للإسلام فترك الشام غازياً ومعاوية معه ، ولم يلبثا حتى فتحا صيدا وعرة وجبيل وبيروت ، ثم استرجع الروم بعض هذه المدن في آخر خلافة عمر بن الخطاب وفجر خلافة عثمان ، فغزاهم معاوية وأخضع مدنهم بالسيف .

وظل يزيد أميراً على الشام حتى توفي في السنة العشرين ، فلما بلغ عمر بن الخطاب خبر موته قال لأبي سفيان : أحسن الله عزاءك في يزيد .

فقال : ومن وليت مكانه ؟ — قال : أخاه معاوية .

قال : وصلتكم رحم يا أمير المؤمنين .

على أن إمارة معاوية التي عهد إليه عمر فيها لم تكن واسعة الأرجاء ، بل لم تكن تضم غير مدينة دمشق وبعض الضواحي .

وقد مرت أعوام أربعة في خلافة عمر ، ومعاوية قانع بولايته راض بما قسم له الله ، حتى انتقلت الخلافة إلى عثمان ، ذلك الخليفة الذي رفع رجال بني أمية إلى مقاعد الحكم ، وأطلق أيدي أنسابه في كل قطر .

وقد كان نصيب معاوية منه الشيء الكثير ، فقد جعله والياً على بلاد الشام كلها ، ساحلها وجبلها ، يخرج منه غازياً عندما يشاء ، ويرجع عندما يشاء ويفعل ما يشاء .

وقد رأيت في الرواية السابقة ، ما فعله أهل الكوفة والبصرة ومصر مع عثمان ، ولمست بيدك ذلك الغضب الذي تأججت ناره في الصدور .

وكان معاوية في الشام ، يعرف كل شيء ، ورجاله في المدينة يحملون إليه أخبار القائمين بالثورة ، الراغبين في إصلاح الحال .

فلما رأى أن الأمر قد اشتد ، أتى المدينة ووضع يده بيد عثمان قائلاً له : إن القوم طلاب فتنه ، وهم طائفة قليلة لا يستطيعون أن يحدوثوا حدثاً في خلافة المسلمين .

ودعاه إلى الثبات والشدة في الأمر .

وبينما هو في مجلسه ، دخل علي وطلحة والزبير ، فخطب فيهم معاوية وجعل

يقول : أنتم أصحاب رسول الله وخيرته من خلقه ، وولاة أمر هذه الأمة لا يطمع فيه أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم هذا عن غير غلبة ولا طمع ، وقد كبر وولى عمره ولو انتظرتم به الهرم لكان قريباً.. وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبتم فيه من شيء فهذه يدي لكم به ، ولا تطمعوا الناس في أمركم فوالله إن طمعوا فيه لا رأيتم منها أبداً إلا ادباراً .

فعمم الأمر على علي فقال : ما لك ولهذا لا أم لك .

قال : دع أُمي فانها ليست بشرٌ أمهاتكم قد أسلمت وبايعت النبي وأجبنى عما أقول لك . .

فقال عثمان : صدق ابن أخي أنا أخبركم عنى وعماليت ، وجعل يعتذر .

ثم أرضاهم فخرجوا ، وبقي معاوية ، فقال عثمان :

اخرج معي الى الشام فأهلها على الطاعة .

ولعله كان يريد ان يحمل دمشق داراً للخلافة في ذلك الحين ، فيكون عثمان

آلة في يده ، ويوصي له بالخلافة قبل أن يموت ، ولكن عثمان لم يرض .

ثم قتل عثمان ، وبايع القوم علياً في المدينة ، أما هو فلم يبايعه كما رأيت ، بل

علق قميص عثمان الملطخ بدمه في منبر دمشق ، وعلق معه أصابع زوجته نائلة

وجعل يوغر الصدور ، ويدعو الناس الى الطلب بدم الخليفة القتيل قائلاً :

قاتل خليفتمك هو علي ! . .

وجاء عمر بن العاص الداهية الآخر ، يعرض على معاوية سيفه ويطلب اليه أن

يوليّه أمر مصر إذا سلب علياً خلافته واستقام له الأمر .

ثم كانت واقعة صفين وأمر التحكيم ، وفتح عمرو بن العاص بعد ذلك مصر

وقتل أميرها محمد بن أبي بكر ، ثم قتل علي ، وبويع الحسن ، وانتهى الأمر

بأن تتولى الخليفة الهاشمي ، عن العرش ، للأمير الأموي ...

وأمسى معاوية بعد ذلك ، خليفة المسلمين وحده ، لا ينازعه الخلافة أحد

ولا تجسر أيدي الأمراء على ان تمتد الى عرشه ، وكان يعلم ان بين بني هاشم رجالاً

تطمع الأمة في ان توليهم الأمر أعظمهم مقاماً وأرفعهم شأنًا الحسين بن علي .

يزيد بن معاوية

كان لمعاوية بنون ثلاثة : عبد الرحمن ، ويزيد ، وعبد الله ، وقد مات عبد الرحمن وهو صغير .

وأم يزيد ميسون بنت بهدل ، بن حنيف الكلبية وبهدل أبوها ، زعيم عشيرته وسيدها ، وصاحب الرأي الاول بين عشائر العرب النازلة في القطر الشامي .

وكانت كلب ، عشيرة ميسون ، عشيرة نصرانية ، وقد دخلت في الاسلام بعد فتح الشام ، ومشى سيدها في سبيل النفوذ والجاه ، مشى الرجل الجبار لا يبالي بالأخطار حتى أمسى ، وأمسى قومه ، من المقرين الى امراء الشام ، ثم الى بلاط معاوية ، يتناولون عطاءهم من المال ، في كل عام .

ومعاوية اذا تزوج ميسون ، فزواجه سياسي ، وانه ليعلم ، أية قبيلة من قبائل العرب ، تستحق ان تصاهر سيد بني امية الاكبر ، الذي يمشي بخطى واسعة الى العرش .

وكل ابتسامة ، من ابتسامات معاوية ، تعود الى السياسة فهو يستوحي سياسته اذا خطب .. ويستوحي دهاءه اذا بذل المال .. ويستعين بالحلم على قضاء الأغراض ..

والمؤرخون ، من المستشرقين والعرب ، يقولون : إن الخليفة الأموي الاول اعظم سياسي في العرب ، ولم يقم في زمانه رجل أبعد نظراً وأكثر دهاء منه . نظر الى ولده عبد الله فاذا هو أحق لارأي له ، فحول نظره الى يزيد كالملك ينظر الى ولي عهده ، وأعطاه من عاطفته وحبه وإحساسه ما لم يعطه سواء من بينه . وهو في ذلك يبعده للملك ... لخلافة الاسلام ، للجلوس على عرش الامبراطورية العربية بعده ، نعم ، لم تكن الخلافة قبل معاوية إرثاً لأبناء الخليفة واحفاده ، بل كانت انتخاباً كما رأيت . .

يموت الخليفة فينظر رجال الشورى في امر الرجل الذي يولون ثم يعمدون الى المبايعة دون ان يكون لابناء الخلفاء فضل في ذلك على الآخرين . ولكن معاوية لم يشأ - بعد ان تخلى الحسن بن علي عن الخلافة واستقام له

الأمر - إلا ان يخلع الثوب القديم ويحمل الملك إرثاً لبنيه .
 وكانت هذه الفكرة تملأ ذهنه واحساسه ؛ وعلى اساسها الذي تكتنفه
 الأخطار أراد ان ينشأ ولي العهد ، وكان يهد لها وهو على سرير الملك ، ويعالج
 امرها بالحكمة والحيلة والدهاء ، ويهيء لها الزمان الصالح لينشرها في الاسلام .
 وانها لفكرة جريئة في ذلك الجو المكفهر .. في ذلك العهد المضطرب الفياض
 بالفتنة والثورة والنزاع ، وليس غريباً ان يعد معاوية عدته للحادثات بل لم يكن
 من الغريب ان يفكر اليوم في امر لا يتم له او لذريته إلا بعد جيل !
 فكثّر في الخلافة ، والنبي حي ، وكان يحلم بالعرش وهو في ربيع العمر ثم
 برز الى الساحة يجهاد الجبابرة حتى بلغ الغاية .
 وهو القائل لقومه : ما زلت اطمع بالخلافة مذ قال لي رسول الله : إن
 وليت فأحسن .

فلا تستغرب ايها القارئ ، اذا رأيت معاوية ، وهو على العرش ، يحاول ان
 يخضع الزمان لإرادته ، وسياسته الناعمة .. التي ليس لها حد .
 ولا تستغرب اذا رأيت هذا الزمان خاضعاً لمشيئته وعوناً له !



كان يزيد في الخامسة عشرة من العمر ، عندما انتهى امر الخلافة الى ابيه .
 وكان معاوية ، قد بعث به الى اخواله بني كلب ، وهم في تدمر لينشأ في
 البادية ، كما ينشأ معظم فتيان العرب أبناء الشرف والمجد .
 ويخلوا الجو في البادية ، لاولئك الفتيان عشاق المرح واللهو ، الذين لا يطيب
 لهم عيش ، إلا اذا تمرغوا في اللذة ، بين زقاق الحمر ، ويزيد من هؤلاء .
 تعشق البداوة وهو صغير ، البداوة الحرة الضاحكة الطليقة من كل قيد ، لا
 البداوة القاسية ، التي تفرمها الصلابة والجفاف .
 وأحب الصيد والشراب .. والعبت من جميع نواحيه ، واختار له في شبابه ،
 وهو في دمشق ، إخوان مودة وصفاء ، يحالسونه على شرايه ، ويسمعون معه
 شعر جرير والأخطل ، وغناء المغنين .

على ان معاوية ، استطاع ان يقرأ نفس ولده ، الراجع من البادية ، ويلبس عاطفته ورغبته في حياة اللهو ، فبذل في سبيل تعليمه جهده كله ، واختار ، من اجل هذه الغاية ، نخبة من العلماء والفقهاء يعلمون الامير الصغير الشعر والقرآن والحديث وعلوم ذلك الزمان .

ثم جعل يدعوه الى مجلسه ، ويحدث وجوه دولته ، وقواد جيشه ، بأمور الادارة والسياسة ، والحرب ، وهو حاضر ، ثم يحدثه إذا خرجوا ، بأمرار الحكم وقيادة الشعب ، ويصف له رجال بني هاشم ، وبني أمية ، وأخلاق الوزراء والولاة والمقرين لا ينسى احداً كان بين يديه كتاباً يقرأ صفحاته ..

فاذا انتهى من هذا ، سمي له أعداءه ومحبيه واحداً بعد واحد وحذره من دهاة السوء الذين يمكرون الماء ، ومن اولئك المرائين الكذبة الذين يبحثون على الركب عند قدمي الخليفة طمعاً بغاية من الغايات .

وبعد هذا الدرس السيامي الذي يقوم به كل يوم ، يعمد الى بذل النصح ، ويدل ولده على العيوب التي تتال من كرامة ولي العهد وتذهب بهيبة الملك .

ويزيد يصني الى أبيه ويسمع له ، ولكنه إذا خرج ، ذكر إخوانه .. وتمشى حب اللهو في دمه ، فترك دمشق ، مستخفياً عن عيني أبيه ، في دير موران ، ولعله في القوطة او في طبرية ، من فلسطين ، او في حوارين بالقرب من حمص ليقضي هو وإخوانه وشعراؤه شهراً او بعض الشهر ثم يعود .

ويعود معاوية الى النصح باللين والرفق وهو يرى ان ولي عهده لا يستطيع ان يظهر بالمظهر الذي يريده له .

وحسب معاوية ان يخرج ولده من دمشق عندما يطيب له المرح وينصرف الى عبثه وهو بعيد عنها لا تراه العيون .

وكانت الوالد البار ، الذي لم يساعده القدر في تربية ولي عهده كما يشاء وكما تقتضي سياسة الملك ، يقول لمن يسأله عن يزيد إذا غاب :

انه يشهد سباق الخيل عند حمص .

ويزيد المولع بالسباق ، هو الذي أنشأ للخيول عند حمص ميداناً تتسابق فيه .

تلك هي ناحية خاصة من حياة يزيد ، أضف إليها شيئاً من الشدة يضعها في الموضع الذي يضع أبوه حمله فيه ، ولو كان هو صاحب السلطان في أيام معاوية لكان بعيداً عن الرفق بقدر ما كان معاوية قريباً منه .

ولكن إذا نظرت الى يزيد من الناحية العامة ، رأيته كريماً جواداً ، يبذل المال في سبيل ملكه بدون حساب ، والبذل لون ساحر من ألوان السياسة . . . ورأيته أديباً يحب العلماء ويؤثر الشعراء ، وشديداً تغلب شدته لينه ، في جميع مواقف العامة والخاصة وقد تكون هذه الشدة قطعة من خشونة البادية . . ولعلها هي التي أملت عليه ان يكون بطاشاً بدون دهاء .

يقول صاحب الأغاني : كان يزيد أول من سنّ الملامى من الخلفاء ، وآوى المغنين ، وأظهر الفتك وشرب الخمر ، وكان ينادم عليها سرجون مولاه ، والأخطل الشاعر .



١

نحن الآن في السنة الثانية والاربعين ، وقد خلا الجو لمعاوية كما رأيته . ولكنه رأى وهو السياسي البعيد النظر أن هناك في الأقطار الإسلامية البعيدة عنه ، رجالاً لهم مقامهم وشأنهم لم يبايعوه وهم رجال إدارة ورجال سيف . أعظم هؤلاء الرجال خطراً زياد بن أبيه ، الذي اطلعت في رواية سابقة خبر امتناعه في فارس وحكاية بنيه الثلاثة الذين قتلهم في البصرة يسر بن ابي أرطاة . وزياد من شيعة علي ، وعلي ، رضي الله عنه هو الذي بعث به إليها قبل موته . والخليفة مثل معاوية لا يطيب له عيش إذا كان في أقاليم دولته ، رجال مثل زياد يترددون في الاستسلام اليه .

وهل يستطيع زياد وهو الرجل المقيم بفارس أن يعكر على معاوية صفو عيشه ، وهو سيد العرب ودايتها وصاحب السلطان الذي تنحني له رقاب الامراء . وأي رجل هو زياد بن أبيه ؟

هو رجل من الفولاد ، صلب الرأي قوي الشكيمة عالم بالسياسة له الارادة الحديدية التي لا تلين والعزيمة الثابتة التي لا تتراجع ولو صارت الموت .
وقد يغوص زياد هو وبنوه وأهل بيته في بحر من الدماء ولا يبالي وقد يرى الخطر فاتحاً فاه فيقذف بنفسه الى لجته لا يتردد ولا يخاف ولا يطرف له جفن .
ومعاوية في حفظ هيئته ، ومدّ رواق سلطانه يحتاج الى مثل زياد ويبدل دهائه كله في سبيل استمالته اليه .

وليس له عادة ، في هذه الناحية من نواحي السياسة ، فقد يقسو في أول مرة ثم يلين وقد يلين ثم يقسو ، وهو في قسيوته ولينه ، يعالج الامر دون ان يتمجج فيه .
مدّ زياداً كما قرأت ، فأسمعه زياد وهو في فارس ما لا يجب . . . وهم يسر ابن أبي أرطاة بقتل الاطفال الثلاثة ، فنهاه معاوية عن ذلك بكتاب حمله اليه ابو بكر ، شقيق زياد لأمه ثم مر بعض الزمن ، وزياد في فارس لا يرحل عنها ولا يبايع ، وعيون أمير المؤمنين تحصى عليه أنفاسه ، وأمير المؤمنين نفسه ينظر في أمر هذا الجفاء ويعد العدة له ، ولم يبق إلا ان يرسل آخر سهم من سهام قسوته ثم يحمي دور اللين .

فكتب الى المغيرة بن شعبه ، وهو والي الكوفة ، يأمره بأن يأتي البصرة وينظر في أموال زياد ، وكان مال زياد مع عبد الرحمن بن أبي بكره والمغيرة يحب زياداً ولا يريد ان يسلبه ماله .

فقال لعبد الرحمن : إن كان أبوك قد أساء اليّ فقد أحسن علك وهو يعني زياداً ، وكتب الى معاوية يقول له : لم أجد في يد عبد الرحمن مالا يحل لي أخذه ، فأجابه معاوية : عذب عبد الرحمن .

فاظهر الرجل أنه يعذبه ثم كتب : عذبتك فلم اصب شيئاً عنده .

ورحل المغيرة الى الشام ومثل بين يدي معاوية :

فقال له : وأين هو إذن مال زياد ؟ — قال لا أعلم يا أمير المؤمنين .

قال : لي سر أريد ان أبوح لك به . — وما ذلك ؟

قال : ذكرت زياداً واعتصامه بفارس فلم أنم ليلتي .

— وهل تخشاه يا أمير المؤمنين ؟

قال : إنه داهية العرب ومعه أموال فارس ، وأنا أخاف ان يبايع رجلاً من أهل هذا البيت .

قال أتأذن لي في الذهاب الى فارس ؟

— وما تصنع ؟ — أَدْعُوهُ الى الطاعة فقد يسمع لي .

فقال معاوية في نفسه : إن اللين قد أتت ساعته الآن ... ثم قال له :

اذهب ، وكن ذلك الرجل الذي يؤمن أمير المؤمنين بوفائه واخلاصه . ولكن احذر أن تقضبه يا ابن شعبة .

— سترى يا مولاي أني أشد الناس اخلاصاً لك ، وأنا واثق بأن زياداً سيكون لك ، وسيحمل السيف دفاعاً عن دولتك ، عندما تحتاج اليه . وقام فركب من ساعته الى فارس ، وقلبه يحدثه بأن الصلح سييسط ظله فوق الرجلين .

٢

أم زياد اسمها سمية ، أما أبوه ، فقد ذكر بعضهم انه أبو سفيان ، والد معاوية . ولهذا حكاية يروها ابن الأثير ، بقوله : كانت سمية ام زياد ، لأمير فارسي في زندورد ، فمرض هذا الأمير ، ورأى أن يدعو الحرث بن كلدة طبيب العرب ليعالجه ، فعالجه فبرىء ، فوهب له سمية ، فولدت عند الحرث أبا بكره الذي ورد ذكره واسمه نقيع ، ثم ولدت ولدأ آخر يدعى نافعاً .

وتزوج سمية بعد ذلك غلام للحرث اسمه عبيد وهو رومي .

وسار ابو سفيان بن حرب ، في الجاهلية ، الى الطائف ، فنزل على خمار يقال له ابو مريم السلولي وعرف سمية وهو عنده ، فعلقته منه بزياد ، ثم وضعته في السنة الاولى من الهجرة .

فلما كبر ونشأ ، استكتبه ابو موسى الأشعري ، لما ولي البصرة .

ثم ان عمر بن الخطاب ، كلف زياداً قضاء أمر ، فقام به .

ثم مثل بين يديه ، وعنده المهاجرون والأنصار ، فخطب خطبة لم يسمعوها **بثلها** ، فقال عمرو بن العاص :

لله هذا الغلام ، لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه ، فقال أبو سفيان وهو حاضر : والله إني لأعرف أباه .. فقال عليّ : اسكت يا أبا سفيان فانك **تعلم** أن عمر لو سمع هذا القول منك لكان اليك سريعاً ...

فلما ولي علي الخلافة ، استعمل زياداً على فارس ، فضبطها ، وحمى قلاعها **سواء** ذلك معاوية كما مرّ . وكان معاوية يعلم من أمر زياد ما يعلمه الناس .

فلما طلب اليه المغيرة بن شعبه ان يأذن له في الذهاب الى فارس ، رأى من **ملكته** أن يسترضي زياداً فأوصى المغيرة ان يكون في حديثه معه خفيف الظل . وغايته من ذلك ان يضمّ زياداً الى رجاله ، ويستعين بسيفه اذا أكرهته الحادثات . ومشى المغيرة على هذا الأمل ، وهو يعلم أن رضى زياد أحب شيء الى أمير المؤمنين .



أقبل المغيرة على زياد ، فرحّب به وهش له ثم قال : أي شيء أتى بك ؟ قال : بعث بي إليك اعظم رجل في المسلمين اليوم . قال : معاوية ؟ — نعم معاوية .

— وهل انت رسول صلح ام رسول حرب ؟
— إني لا أطيق كما تعلم ، ان يشهر الرجل عليك حرباً . — وكيف قدمت ؟
— سألته ان يأذن لي في القدوم ففعل ، وانا ارجو ان ينتهي الامر بينك وبينه الى ما أحب . قال : هات . .

— ولكن قل لي قبل ان ابدأ ، أتثق بي ؟
— كما أتق بنفسي فقد بلغني ما فعلت في سبيلي ، مع عبدالرحمن بن ابي بكر .
— إذن فاعلم ان معاوية استخفه الخوف فبعثني اليك .

- وماذا يخاف وليس في فارس جيش يحمل وراثي السيف .
- يخاف ان تلجأ الى الدهاء ، فتبذل المال وتدعو الناس الى العصيان ..
- قال : فكرت في هذا وكنت أهم بأن اكره معاوية على الاعتراف ، بأن في الإسلام رجالاً لا يخافونه ..
- ومن تبائع إذا فعلت ذلك ؟ — ابائع واحداً من ولد علي رحمه الله .
- لم يكن احد من ولده ، يمدّ يده الى هذا الأمر غير الحسن ، والحسن قد تخلى عن الخلافة وابائع معاوية .
- قال اختار رجلاً من بني هاشم . قال : ليس فيهم من يحسر على الظهور .
- وماذا ترى ؟ — ارى ان تكون ابعد نظراً واكثر دهاء من معاوية .
- وكيف ذلك ؟ — تضع يدك بيده قبل ان يستغني عنك .
- واذهب الى دمشق ؟ — اجل .
- فضحك قائلاً : إذن تريد ان القي بنفسي بين شدقي الأسد !!
- بل اريد ان تكون الرجل القوي البعيد الصوت في ايام معاوية ، كما كنت في ايام علي .
- ولكن معاوية لا يحب احداً من رجال الشيعة ولا يطيق ان يقرب انصار علي اليه ..
- بل يحب جميع الرجال الذين يبايعونه ويخضعون له وقد رأيت في مجلسه ، اكثر من مرة ، بعض اولئك الأبطال ، الذين قادوا جيش علي ، يوم الجمل ويوم صفين . — أي انهم بايعوه ليأذن لهم في الجلوس بين يديه ...
- قال : قل لي يا زياد اي شيء احب اليك ، حياة الشقاء والاستخفاء في فارس أم العيش الهاديء الذي يكتنفه العز ؟ — العيش الذي ذكرت .
- ولكني أراك تبتعد عنه .
- ذلك لأنني واثق ، بأن هذا العيش لا يصفو لي ، وانا قريب من صاحبي ..
- قال : عد الى نفسك فأنت تدفع امير المؤمنين ، بيديك الاثنين ، الى الدفاع عن ملكه .. وتراه يبعث بالجيش الى فارس ليقبض على زياد ؟

- بل يرسل بعض رجاله ليقتلوا زياداً ..
- قال : لم أخف معاوية من قبل ولا أخافه اليوم ...
- قال : تقضي عليك الحكمة بأن تفعل ما أقول لك .. فأطرق قليلاً ثم قال :
- والله لا أترك مكاني إلا بعد أن يرد عليّ كتاب أمانة .
- قال سيبيث اليك بهذا الكتاب ، بعد رجوعي إليه . - ليفعل أولاً ثم نرى .
- قال : عدني بأنك تسير الى دمشق بعد ورود كتابه .
- وتضمن لي ان معاوية لا ينكث العهد ؟
- قال اذا وعد أمير المؤمنين وفى بوعد .
- اجل كما وفى لأمر المؤمنين عليّ ، يوم التحكيم ..
- ذلك غدر من عمرو بن العاص ، وضعف من ذلك المغفل ابي موسى الأشعري .
- ولم يكن لمعاوية رأي في ذلك ؟ - لا ولكنه سكت على ما فعله عمرو .
- وهذا معناه انه كان راضياً ... قل أضمن وفاءه ؟ - نعم .
- وانا أعد بالذهاب الى الشام . - وتكون مخلصاً لأمر المؤمنين ؟
- سأكون أسبق الناس الى الاخلاص .. اذا وفى ..
- فمد يده اليه قائلاً : ارجو ان يعود عزك الماضي ، بفضل هذا الصلح .
- واقام المفيرة بفارس ثلاثة ايام ، ثم رجع الى دمشق يحمل البشرى بخضوع زياد ويسأل معاوية ان يكتب اليه كتاب الامان .
- فطابت نفس أمير المؤمنين ، وارسل كتابه . وكان زياد يتهيأ للرحيل .
- فلما انتهى اليه الكتاب ، دعا المنجاب بن راشد الضبي ، وحارثة بن بدر ،
- وهما من رجاله الأمناء ، وخرج معها من فارس يريد دمشق .
- وعرف عبد الله بن عامر ، والي البصرة ، بخروجه ، فبعث بعبد الله بن خازم
- ومعه جماعة من الجيش ، ليقبضوا عليه .
- وهو يحمل ما جرى بينه وبين المفيرة ، ولا يعلم ان أمير المؤمنين آمن زياداً .
- فلقي ابن خازم زياداً ، في مكان يقال له أرجان فأخذ بعنان فرسه وقال :
- الآن يا زياد ..

فقال له المنجاب بن راشد : تنح يا ابن السوداء وإلا علقت يدك بالعنان ..

— بل ينزل فوالله لا تتحرك هذه الفرس وسيقي بيدي .

فقال زياد وهو هادئ :

لو عرفت اني سأحتاج الى سيفي لما خرجت ومعي رجلان اثنان ... إن
السيف ستبقى في اغمادها يا عبد الله .

قال : أتهدد امير المؤمنين وتسبه ، وتطوف في الارض على فرسك عندما
تشاء ... انزل فأنت اسير . — بل اذهب الى الشام وترجع انت الى البصرة ..

— الى الشام ؟! — والى قصر معاوية ... — وتجسر على ذلك ؟

— اجسر على ما لا تجسر عليه انت والذي ارسلك ...

وأخرج كتاب الامان قائلا : هذا كتاب معاوية ..

فاكفر وجه عبد الله وقال لرجاله :

ارجعوا فقد تم الصلح بينه وبين امير المؤمنين ، ثم قال له : متى بايعت يا زياد؟
قال : لا يسألني مثل هذا السؤال غير معاوية نفسه وهمز فرسه فوثبت

وتبعه الرجلان .

وكان يفكر وهو في الطريق ، في دهاء معاوية ، ويمد في ذهنه ، عدة
الحديث الذي سيحدثه به .

فلما بلغ دمشق ، مشى دون ان يتردد ، الى « الخضراء » — قصر معاوية —
ورآه القوم بباب القصر فجعلوا يتهايمسون : هذا زياد ... هذا زياد بن ابيه ..

وتسابق الحجاب ينقلون الخبر الى معاوية ويستأذنون له .

وكان ذلك عند الصبح ، فقال لهم : علي بيزيد .

فأقبل الأمير ، وكان ضخماً كثير الشعر ، يتمشى الغرور والكبرياء في
برديته ، وتظهر آثار الشدة في عينيه .

فقال له ابوه : دعوتك لأن زياداً بالباب .. — ومن هو زياد يا امير المؤمنين؟

— يقول هو ، ويقول بعضهم ، انه اخي ، من امرأة تزوجها ابو سفيان في

الجاهلية وتدعى سمية . قال : ما رأيته قبل اليوم في الخضراء ..

قال : هذه المرة الاولى ، وهو لم يبايع . — إذن كان بعيداً عن دمشق .
— بل كان بعيداً عن أبيك وهو لا يريد ان يبايعه لأنه من شيعة علي ،
ومن انصاره .

— وما الذي دعاه اليوم الى المجيء ؟
— ارسلت اليه المغيرة بن شعبه والي الكوفة يدعوه الى المبايعة ، وقد كان
معتصماً بفارس يأخذ أموالها ويدير الحيل . — وهل رضيت عنه ؟
— لو لم تكن الخلافة بحاجة الى مثله لما خطر لي أن احمله على الطاعة والخضوع .
فابستم قائلاً : تنتظر نظرة الرضى الى أعدائك فيطمعون ويستخفون بالملك .
قال أخطأت يا بني ... إن نظرة رضى واحدة ارسلها الى عدو الدولة تجعل
هذا العدو من المخلصين .. — ولكن السيف يجعله أشد إخلاصاً ..

قال : تمود أبوك أن لا يستعين بسيفه إلا إذا فشلت مساعي حمله .. ثم قال :
هذه كلمة يملها عليك شبابك ، ولكنك ستعلم عندما تلبو الزمان وأهل
الزمان ، أن سيفك أعجز عن ان يفعل ما يفعله حملك ... هذا زياد بن أبيه ..
إنه بطاش داهية ورجل سيف ، وبطل يعترف قواد أبيك انه من سادة الميادين ،
أتوا يلجأ الى الطاعة إذا أرسلنا اليه ، وهو في فارس ، جيشاً يمزق شمل رجاله ،
ويسبي نساءهم ، ويأخذ أموالهم ، أم تراه يتصدى للقوة ، بقوة مثلها ، ثم
يستخفي إذا فشل في الجبال والأودية ، مستعيناً بالدهاء والحيلة والمال على خدمة
آل علي ، وتقويض أركان الخلافة .. قل ماذا يصنع إذا فعلنا ذلك ؟ ...
فتردد يزيد ..

— قل ولا تردد .. إنك الآن أمام رجل من أعدائك فماذا تقول له إذا دخل ؟
أنظروا له الشدة والعنف فتخسر سيفه الى الأبد ، أم تقابله باللين والرفق فيصبح
عبداً للعرش ؟؟ — ومن قال لك أنه يصبح كما تقول ؟

قال : لا يضيع الحلم ، إلا مع لثم قسد خلقه وصغرت نفسه ، وإني لأرفع
نفسي من ان يكون ذنب أعظم من عقوي ، وجهل اكبر من حلمي ، وعورة
لا أوارها بستري ، وإساءة اكثر من احساني .. أفهمت يا بني .

فسكت الفتى ولم يجب ، ولعل سكوته كان استحياء من أبيه ثم قال معاوية :
 سأدعو الرجل الى المتول بين يدي الآن فيشهد مجلسي ولا أحسنه بالأمر الذي
 قدم من أجله إلا إذا جنّ اللبلل أما أنت فلا تخرج اليوم من الخضراء وكن معي
 عندما أحدث زياداً ... يا غلام ، ليدخل زياد .

فدخل وهو لا ينظر الى الغلمان الذين وقفوا عن جانبيه .
 ثم جاوز الرواق الطويل الى قاعة الجلوس التي لم يكن فيها ، في ذلك الصباح
 غير معاوية ويزيد ، فلما أقبل قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين .
 فابتسم معاوية قائلاً : لقد قدمت أخيراً يا زياد .. اجلس .
 وقبل أن يختار مكاناً يجلس فيه ، أوماً الخليفة الى مقعد قريب منه وأمره
 بالجلوس ثم قال :

لقد مرّ علينا ونحن في دمشق اثنان وعشرون عاماً ما رأيناك في خلالها
 مرة واحدة .

قال : كنت صغيراً عندما عهد اليّ الخلفاء في قضاء الحاجات ، ولم يكن لي
 في الشام حاجة .. - واليوم ؟

- أما اليوم فلم يبق لي حاجة في غير الشام ...

فنظر الى يزيد والابتسامة على شفتيه ، فقال زياد : ابن أمير المؤمنين ؟

- أجل ، هذا يزيد وعبد الله أخوه الأصغر . متى قدمت ؟

- منذ ساعة .

- إذن آثرت المجيء الى الخضراء ، على الراحة في مكان تنزل فيه .

- فكرت في هذه الراحة يا أمير المؤمنين فرأيت أنني لأجدها إلا في هذا القصر .

الحمد لله ثم الحمد لله .. قالها ولم يزد ، فقد أراد ان يرى زياد عمله اليومي في

مجلسه ، وفي المسجد ثم يحدثه بعد ذلك بما يشاء .

وذلك دهاء منه فإن زياداً عندما يرى عظمته وسياسته في إدارة أمور الدولة

والنظر في قضاء الحاجات ، تصغر نفسه وتضعف كبرياؤه فيستسلم اليه مختاراً

دون أخذ ورد . وقام في ذهن زياد ، أنه سيأله في تلك الساعة عن ماضيه ،

ولكنه لم يفعل بل نادى غلامه قائلاً :

ادعُ الرجل الذي يقص علينا أخبار الأولين فقد نسينا اليوم ان ندعوه ..
وكان ذلك الرجل بالباب ، وهو شيخ كبير ، ذو لسان فصيح وله اسلوب
مخاص في رواية الأخبار .. فدخل ، ثم سلم وجلس ، وهو يقول :
لي كلمة يا أمير المؤمنين . - قل .

لم يكن من عادة أمير المؤمنين أن يأذن للناس في مثل هذه الساعة وأنا
أرى الآن رجلاً .. والتفت الى زياد .

فضحك معاوية وقال : خير لك ان تبدأ بالروايات ..
فجعل يقص أخباره والحليفة يصغي اليه كأن زياداً غير موجود حتى انتهى
هله فقال للغلام : المصحف .
فأناه بالمصحف فجعل يقرأ .

ثم قام فدخل منزله يأمر وينهي فيه ، على عادته كل يوم وزياد جالس لا يعلم
من يبيح دوره .

وساد السكوت لحظة ، ثم قال للشيخ : أيعود أمير المؤمنين ؟
قال : دخل منزله ليأمر غلامه بما يشاء ، ثم يصلي أربع ركعات ويعود الى
هذا المجلس .

ورجع معاوية بعد قليل فأذن للخاصة .
فدخلوا عليه وهم طائفة من رجال البلاط ، من قومه وغير قومه فجعل
يحدثهم ويحدثونه حتى مرت ساعة فقال : الوزراء .

فأقبل وزراؤه يشاورونه فيما يريدون من صباحهم الى المساء ، وهو ينصح لهم
ويدهم على مواضع الضعف ومواضع القوة حتى انصرفوا ، فقال : الغداء الأصغر ..
فأقبل الغلمان يحملون فضلة عشائه من جدي بارد وفرخ وغير ذلك ، فأكل
وأكل يزيد وزياد ومن في المجلس من خاصته ، ثم عادت الخاصة الى الكلام فجعلوا
يذكرون له الولايات في افريقيا واليمن والحجاز والعراق وخراسان ، وهو يصف
لهم عماله واحداً واحداً ويذكر لهم سياسة هذه الأقاليم وأحوالها كأنه فيها .

وزياد يسمع كل شيء وقد ملأ الإعجاب نفسه .
وبعد ان تحدّثوا طويلاً ، دخل منزله ، ولم يلبث حتى عاد وهو يقول :
يا غلام اخرج الكرسي .

فحمل الغلام كرسيه الى المسجد فجلس مستنداً الى المقصورة - وهو اول من
بناها - وجلس القوم وراءه ثم أذن للمتظلمين الشاكين ..

فدخلوا عليه ، وفيهم الضعيف والاعرابي والصبي والمرأة واليتيم الذي لاملجأ
له ؛ ثم قال أحدهم : لقد ظلمت يا أمير المؤمنين ..

قال : ومن هو ظالمك ؟ قال : فلان ، وخبر حكايته ، فقال لرجاله :

إذا كان صادقاً فارفعوا ظلمه .

وقام آخر فقال : لقد اعتدى فلان عليّ ولست قادراً على الاحتمال ، قال :
ابعثوا معه من ينصح لهذا المعتدي بالكف عنه ..

ثم قال آخر : غضبني فلان أرضي .. قال : انظروا في أمره .

وظل زهاء ساعتين ينظر في هذا حتى لم يبق أحد فقال : قوموا ننصرف .
ورجع الى مجلسه ، فجلس على السرير - وهو اول من اتخذ - وقال :
اأذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني احد عن رد السلام .

فدخل القوم وهم طائفة من خاصة الخاصة ، ومن المقربين وسأله احدهم قائلاً :
كيف اصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؟

قال : بنعمة من الله ، وجلسوا جميعاً فقال :

يا هؤلاء ، إنما سميت أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا اليينا
حاجات الناس مما لا يصل اليينا .

فقال رجل من امية : استشهد فلان يا أمير المؤمنين وهو يعني انه مات .
فقال معاوية :

افرضوا لولده عطاءً .. وغير ذلك ؟

- غاب فلان عن اهله .. - تعاهدوهم واعطوهم واقضوا حاجتهم .

وجعل يحيب عن كل سؤال يوجه اليه ، وفي كل جواب رحمة للفقير وعناية بأمور المسلمين دون استثناء ..

فقال زياد في نفسه : والله إن معاوية ليستحق الخلافة ..
وأنت عندئذ ساعة الغداء ، والناس يروحون ويحيثون ، ووفود الأفطار بالباب ، ومدت المائدة .

ومن عادة معاوية كل يوم ، انه يجلس للطعام والناس يدخلون عليه يستقضونه الحاجات لا يمنع احد من الدخول .

وكل رجل يدخل في حاجة له ، يدعوهُ الى الطعام فيجلس على المائدة ويمد يده فيأكل اللقمة او اللقمتين ، والكاتب واقف بين يدي امير المؤمنين يقرأ كتاب الرجل الذي ذكر فيه حاجاته ، فإذا فرغ من القراءة ، وفهم معاوية الحاجة ، أمر به بأمر ثم يقول : يا عبد الله أعقب .

فيقوم الرجل ويأتي آخر فيجلس على المائدة ويفعل به مثل فعله بالآخر حتى لقد يبلغ عدد الداخلين ، ومعاوية على طعامه زهاء الاربعين من الرجال .
ثم يقال للناس بعد ذلك : انصرفوا .

ويدخل معاوية منزله فلا يستأذن عليه احد حتى ينادى بالصلاة ، فيخرج لمصلي ، ثم يدخل فيصلي اربع ركعات ، ثم يعود الى المجلس فيأذن للناس .

فإذا كان الوقت وقت شتاء ، أتاها بزاد الحج ، من الأخبصة اليابسة والاقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميد والكمك المتضد والفواكه اليابسة ، وإن كان وقت صيف أتاها بالفواكه الرطبة ...

ويدخل الوزراء مرة ثانية فيحدثونه بما يحتاجون اليه بقية يومهم لا يصدرون أمراً ولا يقضون حاجة إلا بإذنه .

ويحيى العصر ، فيخرج يصلي ثم يدخل المنزل ، فتراجع الوفود ، حتى إذا كان في آخر اوقات العصر ، خرج فجلس على سريره وأذن للناس من جديد .

ثم ينادى بالمغرب ، فيخرج فيصليها ، ثم يصلي بعدها اربع ركعات يقرأ في كل رزمة خمسين آية يحمر تارة ويخافت أخرى ، ثم يدخل منزله فلا يخرج منه

حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج ، ثم يأذن للخاصة ورجال البلاط ،
والوزراء ، فيشاررونه فيما يريدون بعض الليل ، ويبقى الى ثلث الليل ، يسمع
أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسائر ملوك الأمم وحروبها ،
وسياستها وأحكامها ، وغير ذلك من أخبار الشعوب .

ثم تأتيه الطرف الغربية ، من عند نسائه ، من الحلوى وغيرها من المأكول ،
ثم يدخل فينام تلك الليلة ، ثم يقوم قبل الفجر فيقعد ، ويؤتى بالكتب ، فيها
سير الملوك والحروب والحيل ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له يحسنون قراءتها ، فتمر
بسمعه كل يوم طائفة من الأخبار والآثار والسياسات ، ثم يخرج فيصلي ثم يعود
فيفعل ما ذكرناه .



ذلك هو عمل معاوية اليومي ، وقد رآه زياد .
وإنه لعمل جبار يدل على علو الهمة والدهاء ، ورحابة الصدر ، وعظمة
النفس . رآه زياد ، فلم يرتفع له صوت ولم يقل كلمة . فلما انقضى من الليل ثلثه
ولم يبق في المجلس غير زياد ويزيد ، استوى الخليفة في مقعده وقال :
والآن نسألك يا زياد عما مضى ... فأجابه قائلا : إن أمير المؤمنين ، الذي
رأيت منه اليوم ما رأيت لا يسأل الرجل عن ماضيه ..

فعرف معاوية ان الرجل ، بهرت عينيه عظمة الملك ، فقال وهو هادئ :
ما نسألك عن رأيك في الخلافة فلكل مسلم رأي في ذلك ، وإنما نسأل عن هذا
الجفاء الذي رأيناه ...

قال : عرفت يا أمير المؤمنين كل شيء وخبرك المغيرة بن شعبة كل شيء ...
لقد كان جفائي بالأمس جفاء رجل أحب الإمام عليا وكان هواه فيه ..

— واليوم ؟ — أما اليوم ... فاذا عرفت حقي زال جفائي !!
وهي كلمة لا يحسر على ان يقولها غير زياد وليس بين الملوك من يطيق أن
يسمها غير معاوية ..

فقال ليزيد : هذه صراحة المسلم الحر الذي يحترم نفسه ... ثم قال لزياد :

وهل خطر لك ان أمير المؤمنين الذي أرسل اليك الرسل يدعوك الى مبايعته
بتجاهل الحق الذي ذكرت ؟!

— بل خطري أن أمير المؤمنين سيفض طرفه عني بعد المبايعة ويفلق بابه في
وجهي الى الأبد !! ففمرت الابتسامة ثغر الدامية وجعل يقول :

ما سمعنا قط مثل هذا . . . ومن قال لك ان الخليفة معاوية يفلق بابه في
وجوه المخلصين له ؟

— قالوا لي : أنك تكافئ هؤلاء المخلصين ، على ما صنعوه ، بالإحسان والحب
وتنظر الى أولئك الذين ترددوا في الطاعة نظرات الاستخفاف ، فيها شيء من
الجفاء . قال : لو نظرت الى عمالنا في جميع الأقطار ، لرأيت بينهم فريقاً كبيراً
من أنصار علي ، بايع بعضهم في العام الماضي ، والبعض الآخر في هذا العام ،
وكأنه يقول له : سأوليك إذا كنت مخلصاً لي ..

فأدرك زياد مغزى كلماته ، فقال :

وأنا من أجل هذا طلبت اليك ان تنسى ماضي وتساألني عن حاضري ..
قال : ستكون راضياً يا زياد ، ولكن يقضي علينا واجب الخلافة ، بأن
نسألك عن أموال فارس ... قل ماذا صنعت بها .

وقد انتهى معاوية كما رأيت ، الى الغاية التي يريد أن تتم له فقال زياد :
حملت من هذا المال الى علي ما حملت ، وأنفقت منه في الوجوه التي تحتاج الى
النفقة ما أنفقت ، وبقيت لي بقية منه .. — وحملتها معك الى دمشق ؟

— لا يا أمير المؤمنين بل هي وديعة في فارس ..

قال : أليس من الرأي أن تصالحنا على شيء نأخذه منك ونجعله في بيت المال؟

— افعل ما تشاء . بل نرضى منك أن تصالحنا على ما شئت ..

قال : احمل اليك الف الف درهم ؟ — غداً ؟

— قلت إن المال وديعة في فارس وسيحمل اليك بعد شهرين ..

قال : لقد صالحناك فاذا كر حاجتك .

وكانت حاجة زياد أن يلحقه معاوية بنسبه فقال :

وما هي حاجة رجل يقال له زياد بن أبيه؟ قال : وما اسم أبيك ؟
 — إن أمير المؤمنين يعرف اسمه .. قال : دع هذا الآن فسنظر فيه في وقت
 آخر .. ثم نادى : يا غلام أعد لزياد حجرة في الخضراء يبني فيها الليلة وليقم
 ببيائها واحد من الغلمان .
 فقال زياد : بل أخرج الى دار الأضياف إذا أمر أمير المؤمنين فان معي اثنين
 من رجالي أحب أن أبيت معها . قال : اخرج وسنراك غداً .
 فقام وانصرف فقال معاوية ليزيد : ماذا رأيت ؟
 قال : رأيت شيئاً من الدهاء ولكن لو صالحته على خمسة آلاف ألف لكان
 ذلك خيراً لك .
 فضحك قائلاً : أما أنا فلو صالحني على ألف درهم لرزيت .. إني لأشترى
 بنصف مالي سيف زياد .. ومشى وهو يقول في نفسه :
 لو كان عند يزيد من الحلم مثل ما عنده من الشدة ، لما خفت عليه شيئاً .
 والتفت اليه قبل أن يحتجب في الرواق وقال له :
 احفظ ما تراه من مواقف أبيك ولا تنس ..
 فتمتم يزيد كلاماً لم يسمعه أبوه ، ولعله كان يهزأ بذلك الحلم الذي يلجأ اليه
 أمير المؤمنين ..



٤

خرج زياد حتى أتى الرواق الأول الذي ترك فيه المنجباب بن راشد وحارثة
 ابن بدر ، فلقي الإثنين عند الباب ، وقد انضم اليهم رجل يدعى مصقلة بن هبيرة
 من بني شيبان .
 ومصقلة صديق قديم لزياد ، وهو من المقربين الى معاوية ، ومن أولئك الناس
 الذين يشهدون مجلسه كل يوم إذا أرادوا ذلك .
 وكان زياد يفكر في أمر خطر له ، وهو يستعين بذاكرته ليجد له في دمشق
 صاحباً يساعده في قضاء ذلك الأمر .

فلما أبصر مصقلة ، أشرق جبينه ومد اليه يده قائلاً : لم يخطر لي أني سأراك الليلة . قال : أما أنا فقد عرفت أنك في دمشق ، وأنتك مثلت بين يدي أمير المؤمنين عند الصباح ، وجنّ الليل وأنت لم تخرج .

- أراد أمير المؤمنين أن أقضي يومي في مجلسه ففعلت . - وكيف رايته ؟
- فالتفت زياد الى جانيبه والى الوراء ثم قال : المجال لا يتسع للبحث الآن .
- قال اتبعوني الى المنزل نتحدث به . - أقيم بدمشق ؟
- أجل ، إني فيها منذ رجعنا من صفين . - وتدخل على الخليفة ؟
- أدخل كل يوم إذا شئت . - وأين منزلك ؟
- يبعد عشرين خطوة عن الخضراء .

وتقدمهم فتبعوه ، وزياد مطرق حتى انتهوا الى البيت فدخلوه ، واستوا في المقاعد التي أعدت لهم . وبدأ مقصلة فقال : قل الآن كيف رأيت معاوية . قال : رأيت بجرأ فياضاً بالسياسة والدهاء والاسلوب اللين يستهوي الناس . - هذا ما أسمعه من عظماء المسلمين ورجال الادارة والحرب ، وهل انتهى الأمر بينك وبينه الى ما تحب ؟

- أجل ولكن من ناحية واحدة . - كان يقول أنه سيسألك عن أموال فارس .
- لقد سألتني عنها وصالحني على ألف ألف درهم أحلها اليه بعد شهرين ..
- وبقيت هنالك حاجة لم يقضها لك ...
- بقيت قضية هذا النسب الذي تعلم عنه ما تعلم . - ولم تذكره له ؟
- قلت كلمة واحدة أجابني عنها أنه سينظر في الأمر .
- إذن سينظر فيه فهو إذا وعد مثلك وفي له .
- قال : أخشى أن يتناساه .. إنه إذا فعل رجعت الى فارس ودعوت الناس الى نكث البيعة ليفعل عندئذ ما يطيّب له ..

قال : سأراه غداً وأحدثه بأمرك ثم أنقل اليك ما اسمع . - ولكنه سيعلم أني رغبت اليك في هذا فيعمد الى دهائه . فابتسم قائلاً : سأكون في حديثي معه أوسع حيلة منه .

قال : ارجو ان تنقل اليه ما اقله لك الآن . — ماذا ؟
 فأوصاه بما يقوله ، ورأى زياد ان لا يرى الخليفة في اليوم الثاني بل يصبر ريثما
 يأتيه مصقلة ويشير عليه .
 وبات الأربعة ليلتهم ، فلما كان الصباح مشى مصقلة يريد الخضراء ، وخرج
 زياد ومن معه يطوفون في اسواق دمشق .



صلى معاوية الصبح ثم أذن لخاصته .
 فدخلوا عليه مع الوزراء يحدوثونه ويحدثهم ومصقلة بينهم ، حتى أذن لهم
 بالانصراف ، فقال مصقلة : لي سؤال يا أمير المؤمنين .
 قال : هات ايها الشيباني .. قال : الأمر يتعلق بزياد ..
 — وهل بلغك مجيئه .
 — نعم وعرفت انه قضى يوم أمس في هذا القصر . — وما هو سؤالك ؟
 — يقولون ان زياداً أكل فارس برأً وبحراً .. — وبعد ذلك ؟
 — وأنه صالحك على الف الف درهم وبقي له المال الكثير يستعين به على
 الزمان ... قال : هذا صحيح فما ترى ؟
 — ما أرى الذي يقال إلا حقاً . — وما يقال ؟
 — يقال انه ابن أبي سفيان .. أي انه أخو أمير المؤمنين ..
 — وفي أي مكان يقولون هذا ؟ — في الشام ، بل في دمشق ، بل في
 أروقة الخضراء .. — ورأيت زياداً ؟
 — رأيته ساعة خروجه من هنا في الليل الماضي ولكني لم أحدثه .
 فأطرق ملياً ثم قال : قيل لنا ان معه رفيقين فمن هما ؟
 — المتجانب بن راشد وحارثة بن بدر وهما من رجاله .
 قال أمرناه بأن يعود اليوم فلم يفعل . — لعله يجيء بعد صلاة العصر .
 قال : إذا رأيته فقل له ان أمير المؤمنين يدعوك .
 — وما رأيك فيما يقال يا مولاي ؟ — قد يكون ذلك صحيحاً فسنرى .

فانصرف مصقلة ينقل الى زياد ما سمعه من أمير المؤمنين ثم قال له : أرى أن الأمر قد انتهى ولم يبق إلا ان يلحق معاوية نسبك بنسبه .

قال : لك عليّ عشرون ألف درهم أدفعها اليك يوم يحمل المال الى الخليفة وأنا لا أنسى لك يدك .. ولكن أتصح لي بأن أذكر معاوية بالأمر غداً ؟
أرى أن تتكلم عندما يسكت هو .

والى أي شيء أحتاج في إثبات هذا النسب ؟ - الى شهود يشهدون لك .
قال : إن أبا مريم السلولي حي ، وهو يشهد لي .
وعند الصباح ، سار الى الحضراء ، وبعث بالحاجب يقول لمعاوية إنه بالباب ،
فأذن له ، وكانت الابتسامة لا تفارق شفهي الخليفة ، وهو يقول :
أين كنت أمس يا زياد ؟

- خطر لي يا أمير المؤمنين ان أطوف في اسواق دمشق ففعلت .
- وأية مدينة أجمل في نظرك ؟ هي ، أم مدن فارس ؟
- أجمل بلد في هذا الملك الواسع ، ذلك الذي يقيم به أمير المؤمنين .
قال لقد ذكرنا امس ما حدثنا به بشأن نسبك ، وأائق انت بأنك ابن ابي
سفيان ؟ - نعم ولو لم أكن واثقاً لما خطر لي ان احدثك به .
- ومن يشهد لك ؟

- رجال من الكوفة والبصرة ، بينهم ابو مريم الذي نزل ابو سفيان في بيته .
قال : إذا رأيت من يشهد لك اعترفت بك .
قال : أطال الله بقاء امير المؤمنين الذي أحسن إلي بما لا أستحق .
قال : دع عنك هذا ، وانصرف الى النظر في أمر الشهود الذين ذكرت ،
وعد اليينا . قال : استأذنك في نزول الكوفة ..

- أنزل في أي بلد شئت على ان تكون ذلك الرجل ...
- سترى يا أمير المؤمنين اني أصدق من حولك من الناس ، وأني أبايعك الآن
وستكون هذه المبايعة في عنقي وأعناق أبناء زياد .
واستأذنه في السفر ، على أن يرجع بعد أن يعد عدته ، ولم يلبث حتى غادر

دمشق الى الكوفة ، ثم الى البصرة ، لينظر في الأمر الذي عرفت .
وبعد ثلاثة أشهر ، عاد الى دمشق حاملاً المال الذي صالح عليه معاوية ،
ووراءه رجال بينهم أبو مريم شهدوا له أنه ابن أبي سفيان ..
وكتب ، الى عائشة ، زوجة النبي ، بعد رجوعه الى الكوفة يقول لها : من
زياد بن أبي سفيان .. وهو يريد ان تكتب اليه : الى زياد بن أبي سفيان . أما هي
فكتبت : من عائشة أم المؤمنين الى ابنها زياد ...
وكان المغيرة بن شعبة ، والى الكوفة يكرم زياد ويعظمه ، وقد كتب معاوية
الى المغيرة ، ليلزمه ، ويلزم حجر بن عدي ، وسليمان بن صرد وشيث بن ربعي ،
وابن الكوا بالصلاة في الجماعة ..
وهؤلاء جميعهم من شيعة علي ، فكانوا يحضرون الصلاة مع المغيرة ..



امامة الحسناء

عندما تخلى الحسن بن علي عن الخلافة ، وسلم الأمر الى معاوية تفرق أنصار
آل علي في البلاد ، هذا رجع الى البصرة ، وهذا الى الكوفة ، والآخر الى الحجاز
وهناك طائفة منهم آثرت الاقامة بدمشق ، وهي دار الخلافة ، وقد وفرت فيها
أسباب العيش ، على البقاء في العراق الذي تستعمر فيه نار الفتنة ثم تحمد .
من هذه الطائفة ، عمرو بن الحجاج أحد رجال بني زبيد المغاوير ، الذين كانوا
انصاراً للإمام علي ، يمشون وراءه الى الميادين .
فلما قتل الإمام ، بايع عمرو بن الحجاج ، ولده الحسن ومشى تحت لوائه الى
لقاء جيش معاوية ، ثم انتهى الأمر ، بتخلي الحسن عن حقه كما قرأت ، واستثنار
معاوية بالحكم .

على أن رجال علي ، من أهل الكوفة كانوا يقولون كثيراً ولكنهم لا يفعلون
غير القليل ... بايعوا علياً على الموت ، ثم خرجوا من الكوفة ، بقيادة ابنه الذي
نادوا به خليفة بعد أبيه ، يريدون قتال أهل الشام ولكنهم جبنوا ، ثم كثرت
آراؤهم ، ثم ثاروا ، قبل أن تقع العين على العين !

وهذا معناه أن المبادئ في نظرهم كلام بكلام .. وان هواء الأقليم الذي يعيشون به هواء رطب . . . يفعل فعله في الأمزجة اللينة ... وتمحو رطوبته الصلابة في العقيدة ...

وانك لترى هوام في علي وفي أهل بيته ، ترى ذلك ، وهم في منازلهم وفي المساجد ولكنك إذا نديتهم الى حرب رأيت منهم غير ما رأيت ، وأبصرتهم يتراجعون الى الوراء وقد محانهم كلام الليل !.

لأجل هذا ، كان علي رضي الله عنه يتألم في داخله ، ويسمعهم في كل يوم لصائحته الغالية ، ويدعوهم الى الثبات في الموقف الصعب .

وهم يسمعون له ، ما دام على المنبر ، فاذا نزل وآوى الى منزله دب الخوف في صدورهم ، وترددوا في الأمر الذي دعاهم اليه .

وبقيت هذه حالهم كما مرّ حتى قتل الإمام وتنحى الحسن ، فانصرفوا الى الاقاليم وهم ينظرون الى معاوية نظرم الى خليفة لم يستول على الملك بالحق بل بقوة الحيلة والدهاء .. أتى عمرو بن الحجاج دمشق ، ولم يكن غريباً فيها ، فدمشق ملعب شبابه وقد كان له فيها ماضٍ حافل بالأحلام والمني .

أجل ، نزل دمشق ، قبل أن يقتل عثمان ، وقبل أن تبرز الأغراض والسيوف الى الساحة ، وتزوج فتاة حسناء من بني سعد تدعى خولة .

وخولة مظهر من مظاهر الجمال العربي وقد ولدت له فتاة لا تقع العين ، في العشاير النازلة في دمشق وفي الغوطة على أجل منها وجهاً وأحسن ثغراً .

ولم تلد خولة غيرها ، ولم يشأ عمرو أن يتزوج امرأة أخرى ، فخولة ملء نفسه وملء إحساسه والنساء جميعهن في نظره ، في صف ، وخولة في صف آخر .

ولم يكن لعبد الله بن عقبة السعدي والد خولة بنون غيرها ، وغير فتاة أخرى اسمها سلمى تزوجها وجيه قومهم وسيدهم ، هانيء بن عروة المرادي النازل في الكوفة ، وقد كان من أنصار علي . وسلمى أيضاً ، لم تلد لعروة ولداً ، فكانت امامة بنت خولة ، هذه الطفلة الحسناء الجذابة الملامح أعز الناس عليها حتى

ليخيل الى القوم ، أن الوالدة لا تستطيع أن تحب ابنتها أكثر مما تحب سلمى
امامة ابنة اختها .

وحتى قال الناس في الكوفة ، بعد رحيل عمرو بن الحجاج وزوجته وطفلتها
الى الشام ، أن سلمى زوجة هانيء بن عروة لا يطيب لها عيش ، بعد هذا الرحيل .
على أن خولة وعدت اختها ، انها لا تلبث حتى تعود الى الكوفة لتعيش
بالقرب منها ، وتكون امامة سلوى الاختين وبهجة البيتين .
بل قل ان امامة كانت في الكوفة ، وهي في عامها الأول ، بهجة الحي كله
كما هي في دمشق اليوم ، بهجة بني سعد .

تتحملها النساء من خيمة الى خيمة ومن منزل الى آخر . وأصوات الاستحسان
تردها الشفاء ، ومظاهر الإعجاب يجها لها الفتان تبدو على الوجوه .
ولمنا لكلمة حق ، رددتها القوطة في ذلك الزمن ، ورددتها أحياء دمشق ،
أن طفلة عمرو بن الحجاج آية الحسن الخلاب الذي لا يرى الناس أروع منه .
ومتى كانت عشائر العرب واحياؤها تتحدث بحمال الأطفال ؟

وأي سحر فائن ، أملى على الناس أن يصفوا امامة بمثل هذا الإعجاب ؟
إنه سحر لم يروا مثله من قبل ، والسحر في الطفلة مثله في المرأة ، لا يحتاج إلا
الى استكمال الروعة في دور الشباب ... وكان من عادة العرب ، أن الرجل
تعجبه طفلة من بنات عشيرته أو بنات حيّه ، فيخطبها الى ولده وهو طفل ، ثم
يمر الزمان ، والحب ينمو في صدري الخطيبين حتى يتزوجا . وهي عادة باقية
الى اليوم في بعض الأقاليم وعند معظم العشائر النازلة في البادية .
وكذلك كان شأن بني سعد ، والعشائر النازلة في القوطة من ناحية الشرق .

رأى رجالها امامة ، على أيدي النساء ، وفي أحضانهم ، فبهر عيونهم ذلك
الجمال ، وأقبلوا يخطبونها لأطفالهم ، الذين لا يعرفون من هذا العالم ، غير صدور
المراضع والأمهات .. ولكن أباهما كان يقول :
لا أفعل اليوم قرب خطبة خلقت حرباً ...

وكانت أمها تقول : إذا كان لا بد من الرجوع الى الكوفة فخير لامامة أن

بازوجها كوفي . ولم يستطع الناس أن يغيّروا شيئاً من هذين الجوابين .
وقد اشتهر ابن الحجاج ، بين عشائر الغوطة ودمشق ، كما كان مشهوراً في
الكوفة ، ولأمامة الصغيرة يد في شهرته . وسمى بنو سعد حفيدتهم الفتانة :
حسناء السلام ، وسماها أبوها الزبيدية الحسناء ، ولكن الاسم الاول غلب الثاني ،
ثم جعلوا يقولون كلها رأوها : هذه هي شامية ابن الحجاج .



٦

لم يستطع معاوية ، وهو على العرش ، أن يستميل قلوب رجال الشيعة الى
دعوته ، بل استطاع أن يستميل قلوب الضعفاء ، الراغبين في النفوذ والحكم ،
الطامعين بالمال .. وأن يخمّد نار التشيع المتأججة في الصدور .

ولم يبق هنالك ، في الكوفة والبصرة ، غير طائفة من سادة العشائر رجال
السيف يطيب لهم ، أن يحفظوا عهد آل علي ، وهم وراء الجدران ، في منزل
أحدهم ! ويذكروا الوسائل التي تنتهي بهم الى استرجاع المجد الذي ضيعوه .
وانك لتجد بين هؤلاء الرجل القوي المؤمن بعقيدته ، والضعيف المتردد في
رأيه ، والمرائي الكذاب الذي يلبس كل يوم ثوباً جديداً له لون جديد .

وذلك هو شأن الجماعات في كل مكان وزمان . وان من الرأي ، أن نسمي
لك بعض هؤلاء الرجال ، الذين ستقرأ أسماءهم في الفصول التي ستجيء ، ونذكر
لك عنهم ما لا غنى لك عنه .

كان رجال الكوفة ، سليمان بن صرد الخزاعي ، والشيعة تجتمع في منزله من
وراء الستار ، ويحيي بعده المسيّب بن نجبة ، ورفاعة بن شداد ، وحبيب بن
مطهر ، وشبث بن ربعي ، وحجار بن أبيجر ، ويزيد بن الحرث ، وعروة بن قيس ،
وهاني بن عروة المرادي زوج سلمى السعدية ، ومحمد بن عمير التميمي ، ومسلم بن
هوسجة الأسدي ، وعمر بن الحجاج الزبيدي ، وسويد بن المطاع . وقد عرفت

من هؤلاء الرجال عمرو بن الحجاج ، وهانيء بن عروة اللذين ذكرناهما لك .
 وكان مسلم بن عوسجة ، من سادة بني أسد ، وقد ذهب له في حروب المسلمين
 شهرة وذكر ، وتحدثت العرب ببسالته في الميادين ، واستخفافه بالأخطار في
 اليوم العصيب . وبينه وبين هانيء بن عروة ، وعمرو بن الحجاج ، صلة ولاء
 وصحبة ، وثقت عراها صلة الجوار . وكانت زوجة مسلم ، التي توفيت ، بعد
 تحلي الحسن بن علي عن الخلافة ، من بني سليم ، وسلم فخذ من سعد ، وكانت لها
 في قلب مسلم ، منزلة الزوجة الصادقة ، في قلب الزوج البار .

توفيت ، وله منها بنون ثلاثة : سعد ، وعبد الله ، وعبد الرحمن الذي ولد في
 السنة الأربعين ، في السنة التي ولدت فيها ، امامة بنت عمرو . وقد كتب لمسلم ،
 بعد بضعة أعوام أن يخسر ولديه الأولين ، عبد الله وسعداً ، ولم يبق غير عبد
 الرحمن تكتنفه عناية جارية كانت لأبيه ولهذه الجارية عطف الوالد وحنو الأم .
 وهنالك امرأة أخرى كانت تحتضن عبد الرحمن بعد موت امه هي سلمى
 زوجة هانيء التي أحست ان هذا الطفل ، يأخذ من قلبها وعاطفتها ما تأخذه
 امامة الحسناء .

ولم تقف سلمى عند هذا الحد ، بل كانت هذه العاطفة تملي عليها ، ان يخاطب
 مسلم لولده عبد الرحمن ، امامة ابنة اختها ، ليعيش الخطيبان في ظلها عيش
 السعة والهناء الى ان يربطها ، في العشرين من العمر ، رابط الزوج .

وقالت لهانيء أن يحدث مسلم بالأمر ، ففعل ، ولم يكن هنالك شيء أحب الى
 مسلم من هذه الخطبة التي يكون وراءها لبني أسد ، ولاء العشيرتين القويتين : بني
 مراد ، وبني زبيد . وصبر القوم ، حتى يعود عمرو بن الحجاج من دمشق .

ولكن بلغ سلمى ، أن أشراف بني سعد ، والعشائر التي تجاور السعديين في
 الغوطة يتسابقون الى خطبة الشامية ، فكتبت الى خولة تقول :

لقد وجدت خطيب امامة في الكوفة ، فلا يفرك أهل الشام وتعجلي في
 الرجوع . ولم تذكر لها عبد الرحمن . فكتبت اليها خولة :

إن الكوفة أحب الى امامة من الشام ...

ولم تسألها ، لا عن خطيب امامة ، ولا عن عشيرته ، فقد كانت تعلم ان
هولة تحب ابنتها كما تحبها هي ...



٧

لم تكن عظمة الملك ، والعرش الاسلامي الرفيع الذي تربع فيه معاوية ، وما
حول معاوية ، من مظاهر خلافة وسعة وجاه .. أجل لم يكن شيء مما قرأت ،
يلبي الخليفة الداهية واجبه نحو دولته الواسعة ، ونحو ذلك الشعب الكثير
العدد ، الذي فرقته المطامع ، وأبعدته الأغراض عن الاخلاص للعرش .

كان يعلم ، ان في الكوفة والبصرة والحجاز طائفة من المعارضة تتشيع لبني
هاشم وتريد إذا استطاعت أن تنحيه عن الحكم . وكان يعلم أن بين هؤلاء ،
رجالاً يحملون بالخلافة ، ويمدون عدة القضاء على العرش الأموي .

ولكن المطامع ، والاغراض والبغض الذي كان يلهمه بيده في بعض الصدور
كل ذلك كان أضعف من أن يخرجهم عن هدوئه وعن دهائه .. ولو تدبرت أمره
وهو سيد المسلمين ، لرأيت حلمه يتسع لجميع المساعي التي يبذلها خصوم العرش ،
ورأيت المال الكثير الذي يهبه لأعدائه ، يغطي هذه القسوة ، التي يعمد إليها
أهوانه ، في معظم الأقاليم .

من أجل ذلك كنت ترى الاقطار الاسلامية ، من أدناها الى أقصاها ، تدين
لمعاوية ورجال الحرب والرأي ، يخضعون لسياسته اللينة ، دون عنف واكرام .
وقد ساعده الحظ ، في أولئك الانصار ، الذين جعلهم عمالاً له ، وقواداً
لجيشه ، يشهرون السيف في وجوه أعدائه . لقد كانوا جميعهم رجال ادارة وشدة
وجرأة وحزم ؟ وكانوا جميعهم آلة في يده يخضعون له خضوعاً تاماً لا تردد فيه .
وعين معاوية لا تغفل عن شيء ، ينظر في أمر الكبيرة والصغيرة لا يشكو
لعباً ولا ميل ، ومجلسه ، مجلسه الخافل برجال الخاصة والوزراء والمستشارين ،

مرجع لكل أمر . ولم يكن ينسى يزيد ، فقد جعل العيون حوله يحصون عليه الأنفاس ، ومنعه من الدخول عليه إلا إذا أذن له ، كما أنه منع المغنين ورجال الطرب واللبو من الدخول الى القصر .

وهذا معناه أنه كان يخشى أن يفضحه يزيد ويفضح نفسه قبل أن يجعله ولياً للعهد كما كان يخطر له . على أن ولي العهد هذا لم يعبأ بهذا المنع ، ولم يستطع أن يغضب نفسه ويقهرها بالابتعاد عن إخوان الصفاء ... كما أراد أبوه ، بل كان يدعوهم اليه كلما جن الليل ويقضي الساعات الطويلة معهم في مجالس الشراب . وكان يظن أن أمير المؤمنين لا يعرف شيئاً من ذلك ، مع أنه كان يعلم كل شيء وينصح لولده باللين والحسنى بأن يجعل نفسه في مثله الصالح قدوة للمسلمين ، وأن يبتعد عمره كله عن إخوان السوء .

ثم رأى وهو الوالد البار الكثير العطف على يزيد أن يختار له فتاة من بنات الأشراف ويزفها اليه .. ثم آانس رغبة منه في ذلك ، فزوجها أم هانم بنت عتبة ابن ربيعة ، وقام في ذهنه أن حياته الجديدة ستكون حياة تليق بابناء الملوك .

وحول نظره بعد ذلك الى ناحية أخرى من نواحي ملكه فجعل مروان بن الحكم عاملاً له على المدينة ، وخالد بن العاص بن هشام والياً على مكة ، وكتب الى المغيرة بن شعبة والي الكوفة يأمره بأن ينظر في أمر الخوارج الذين اجتمع شملهم بعد أن فرقهم علي يوم النهر ، وعولوا على قتال الخليفة الاموي .

وكانت طائفة من هؤلاء الخوارج قد لجأت الى الكوفة وعلى رأسها ثلاثة قواد هم : المستورد بن علفة التيمي ، ومعاذ بن جوين الطائي ، وحيان بن الظبيان السلمي . ثم تشاوروا فيمن يولون ، فجعل كل واحد منهم يدفع الامارة عن نفسه حتى رأوا اخيراً أن يولوا المستورد ، فبايعوه ودعوه أمير المؤمنين !

ولم يلبثوا حتى أعدوا عدة الخروج في غرة شعبان من السنة الثالثة والاربعين . وبلغ المغيرة ما فعلوه فكتب الى معاوية يخبره بذلك ولم يتردد هو في فعل ما يجب شأن الوالي الحازم الصادق الرأي . وانتهى رسوله الى دمشق قبل صلاة الغروب في يوم شديد الحر ، فقيل لمعاوية : بالباب رسولان من الكوفة ومصر .

فقال : أما رسول الكوفة فهو يحمل أخبار الخوارج الذين بسم لهم الزمان
 لثلاثة أعوام ... ولكن ماذا يحمل رسول مصر ؟ ليدخلا .
 فمثل الاثنان بين يديه ، فقال للمصري : ما وراءك ؟
 قال : أحمل نعي أمير مصر يا أمير المؤمنين .
 فارتجفت شفتاه قائلاً : عمرو بن العاص ؟
 - نعم يا مولاي . - وفي أي يوم مات ؟ - يوم الفطر .
 - وابنه عبد الله في مصر اليوم ؟ - نعم وهو الذي أمرني بالهجرة الى الشام .
 فاطرق ملياً ثم رفع رأسه قائلاً لوزرائه : ما رأيكم في عبد الله بن عمرو ؟
 - الرأي الذي يراه أمير المؤمنين نراه نحن .
 قال : لقد جعلنا عبد الله خلفاً لأبيه ، اكتب اليه يا غلام ، ثم قال لرسول
 الكوفة : وأنت ؟ فدفع اليه كتاب المغيرة ، فقرأه فقال :
 أما الخوارج فليس لهم إلا السيف ، اكتب يا غلام الى المغيرة : السيف السيف .
 والتفت إلى سرجون ، مولى يزيد وكان حاضراً ، ثم قال له : خبر الأمير
 الليلة بما فعلناه .. ونهض وهو يقول : الى الصلاة .
 ثم تقدم رجال الدولة الى المسجد ، وأمامه الحراس كأن هذين الأمرين
 الخطيرين ، لا يستحقان اهتمامه ..



عرف المغيرة بن شعبة ، أن بعض الخوارج اجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان
 في الكوفة . فقال لصاحب شرطته « مدير البوليس » وهو قبيصة بن الدمون :
 تذهب مع رجالك ، وتحيط منزل حيان بالحراب ، وتقبض على من فيه دون
 أن تقتل أحداً . وكان في ذلك المنزل عشرون رجلاً ، بينهم معاذ بن جوين .
 وكانت امرأة حيان ، تبغض زوجها ، ولا تطيق ان يخرج على اصحاب
 السلطان فأخذت سيوف القوم ووضعتها تحت الفراش . ونادى مناد قائلاً :
 رجال الشرط . فنهض المجتمعون ليأخذوا سيوفهم فلم يجدوها .
 فاستسلموا ، وانطلق بهم قبيصة الى المغيرة ، فقال لحيان : ماذا تصنع يا ابن

ظبيان ؟ تجمع في بيتك هؤلاء الخونة الخارجين على أمير المؤمنين ؟
قال : إنا اجتمعنا لقراءة القرآن .. - أجل وقد بدت على الوجوه آثار
السهر ، على قراءة كتاب الله .. خذوهم الى السجن .

وسمع اخوانهم والمستورد « أمير المؤمنين » فحذروا وانصرفوا الى الحيرة الى
منزل سليم بن محدوج العبدى وهو صهر المستورد .

وبلغ المغيرة خبرهم ، فدعا الناس ، ثم قال :

لقد علمت أني لم أزل أحب العافية لجماعتكم ، وأكف عنكم الأذى ، وقد بلغني
أن رجالاً يريدون أن يظهروا في اقليم الكوفة ، بالشقاق والخلاف ، وإيم الله
لا يخرجون في حي من أحياء العرب إلا أهلكتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم ..

فقام معقل بن قيس الرياحي ، وكان من رؤساء أصحاب علي فقال : إن كان
هؤلاء القوم منا حملناهم على الطاعة ، وإن كانوا غيرنا أمرت سادة العشائر فأتتكم
كل عشيرة بسفهاها تنظر في أمرهم .. قال : ما سمي لي أحد باسمه .

قال : أنا أكتيك قومي فليكتفك كل رئيس قومه . فأمر بالرؤساء فحضر
فقال : ليكتفي كل رجل منكم قومه وإلا فوالله لأتحولن عما تعرفون الى
ما تكرهون ، وعما تحبون الى ما تكرهون .

فرجعوا الى قومهم واستحلفوهم بالله والاسلام أن يدلوهم على كل من يريد
أن يهيج الفتنة .

وجاء صعصعة بن صوحان الى عبد القيس وكان قد عرف منزل القوم فقال :
يا أهل الحبي ، ليس لكم ولأهل بيت نبيكم عدو أعدى من هؤلاء الخوارج ،
الذين فارقوا إمامنا علياً واستحلوا دماءنا ، وشهدوا علينا بالكفر ، فإياكم أن
تزلوهم في بيوتكم أو تكتموا الولاة أمرهم ، وقد ذكر لي أن بعضهم في جانب من
الحبي ، وأنا باحث عن ذلك فإني يك حقاً تقربت الى الله بدمائهم فان دماءهم
حلال ؛ ثم قال : إن ولاتنا هؤلاء أعرف بكم وبرأيكم فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً .

فلعنهم القوم إلا سليم بن محدوج الذي نزل القوم في داره ، فانه لم يقل شيئاً
ورجع كثيراً وهو يكره أن يخرجهم فيلوموه كما كان يكره أن يؤخذوا في داره

ليهلكوا ويهلك هو . وجاء أصحاب المستورد فخبروه فسأل ابن محذرج عما قاله صمصمة بن صوحان لعبد القيس .

فأعلمه بذلك ثم قال : كرهت أن أنقل اليكم الخبر فتظنوا أنه ثقل عليّ مكانكم . قال : لقد أكرمت المثنى وأحسنّت ، ونحن مرتحلون .

وأرسل الى أصحابه يأمرهم بالخروج الى مكان يقال له سوراء . فخرجوا اليه متقطعين وكانوا ثلاثئة ، ثم ساروا الى مكان آخر يدعى الصراة . وعين المغيرة لا تغفل عنهم فقال للناس : من نزل اليهم ؟

فقال عذبي بن حاتم : كلنا لهم عدو فأينا شئت سار اليهم . وقال معقل بن قيس : إنك لا تبعث اليهم أحداً مما ترى حولك إلا رأيت به سامعاً مطيعاً ، وأنا أرى ان تبعث بي فليس عندك أعدى لهم مني . قال : اخرج هل اسم الله . واختار له ثلاثة آلاف من الرجال ثم قال لصاحب الشرط : ابعت مع معقل شيعة علي فانه من رؤسائها وهي أشد استحلالاً لدماء الخوارج وأجراً عليهم من غيرهم .

وقام صمصمة فقال مثلما قال معقل . فقال له المغيرة : اجلس فانما أنت خطيب .. فغضب صمصمة وقال : ما أنا إلا خطيب فقط ؟ - أجل ..

قال : أما والله لو شهدتني يوم الجمل لعلمت أنني الليث الذي يقتحم الخيل . قال : لقد أوتيت لساناً فصيحاً فلا تزد . فسكت الرجل ، وحول المغيرة وجهه عنه . وكان صمصمة يعيب عثمان بن عفان ويذكر علياً ويؤثره على بني أمية وقد فعل ذلك غير مرة . فدعاه المغيرة يوماً فقال له :

إياك أن يبلغني عنك أنك تعيب عثمان ، وإياك أن يبلغني أنك تظهر فضل علي فإنا أعلم بذلك منك ولكن سلطان بني أمية قد ظهر فتحن ندع شيئاً كثيراً مما أمرنا به ، ونذكر الشيء الذي لا نجد بداً منه ، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا فان كنت ذا كراً ففضل علي فاذكره بينك وبين أصحابك في منازلكم سرّاً ، وأما في المسجد فان هذا لا يحتمله الخليفة . فقال له : نعم .

ثم بلغه مرة أخرى أنه فعل ذلك .

فمقد عليه وأسمعه هذا الجواب الذي قرأت ..



خرج معقل بن قيس مع الشيعة الى الصراة .
فسار الخوارج الى هرسير ، وأرادوا العبور الى المدينة التي فيها منازل كسرى ،
فتصدى لهم سمالك بن عبيد الأزدي وكان عاملاً عليها ، فكتب اليه المستورد
يدعوه الى البراءة من عثمان وعلي .

فأعاد سمالك جوابه ودعاه الى الجماعة فيأخذ له الأمان .
فلم يجب ، وأقام بالمدائن ثلاثة أيام . ثم بلغه مسير معقل فقال لأصحابه :
إن المغيرة قد بعث اليكم معقل بن قيس وهو من المفترين الكاذبين فأشيروا
علي برأيكم . فقال بعضهم : خرجنا نريد الله والجهاد وقد جاؤونا فأين نذهب ؟
اننا نقيم حتى يحكم الله بيننا .

وقال البعض الآخر : بل نتنحى ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء ، فقال :
لا أرى ان نقيم حتى يأتونا وهم مستريحون بل نسير فيخرجوا في طلبنا
فينقطعوا ويتبددوا فنلقاهم على تلك الحال . وفعلوا كما قال .
ثم انتهى معقل الى المدائن فقبل له انهم رحلوا ، فشق ذلك على الناس فقال :
إنهم ساروا لتبعوهم فتبددوا وتلحقوا بهم وقد تعبتم ولكن لا يصيبكم من ذلك
شيء إلا وقد أصابهم مثله ، وتقدمهم قائلاً : الى الأمام .

ثم دعا أبا الرواغ الشاكري ، فقال : سر في الطليعة مع ثلاثئة من الرجال .
قال : وإذا وقعت العين على العين ؟ قال لا تقاثلهم حتى أصل اليك .
فمشى أبو الرواغ في أثرهم حتى انتهى اليهم وهم بالمدار ، فقال لأصحابه : ماذا
نفعل الآن ؟ قالوا : لا نقاتل حتى يأتي معقل ولكن ينبغي أن نكون قريباً منهم .
وكان ذلك عند المساء ، فباتوا ليلتهم يتحارسون حتى أصبحوا .
فلما ارتفع النهار ، خرجت الخوارج . والرماح في الأيدي ، ثم هاجوا القوم .
فانهزم أصحاب أبي رواغ فقال لهم : عار عليكم أن تترجعوا .

وحمل عليهم وهم وراءه ، فلما دنوا من الخوارج تصدى لهم هؤلاء بالحراب ، فتراجعوا مرة ثانية دون أن يقتل منهم أحد .

فصاح بهم ابو الرواغ : ثكلتكم أمهاتكم ، عودوا بنا لنكون قريباً منهم ، لا نفارقهم حتى يقدم أميرنا فمن العجز أن نرجع منهزمين . فقال أحدهم : إن الله لا يستحي من الحق قد والله هزمونا ..

قال : لا أكثر الله فينا مثلك .. قفوا قريباً منهم فان أتوكم وعجزتم عنهم فتأخروا قليلاً ، ثم اعطفوا عليهم ، فاذا حملوا وعجزتم عن قتالهم فتأخروا ، وهكذا حتى يأتي الجيش ، وجعلوا ، كلما حملت الخوارج يتراجعون الى الوراء ، فاذا عاد الخوارج عنهم رجع ابو الرواغ في آثارهم حتى كان الظهر . فعمد الفريقان الى الصلاة .

وكان اهل القرى قد خبروا معقلاً ان الخوارج يطردون اصحابه بين أيديهم فقال لمن معه : إن كان ظني في ابي رواغ صادقاً لا يأتيكم منهزماً ابداً .

ثم تعجل في السير ، في سبعمائة من أهل القوة والبأس ، وبقي محرز بن شهاب التميمي على الفريق الضعيف ، فلما أشرفوا على ابي الرواغ قال لمقل :

إن الخوارج خواصو الغمرات فلا تل القتال بنفسك ولكن قف وراء الناس تكون رداء لهم . قال : نعم مارأيت .

وبينما هو يخاطبه ، والشمس تحتجب وراء الأفق ، حمل الخوارج وارتفعت اصواتهم قائلين : الظفر او الموت .

فتأخر اصحاب معقل إلا طائفة قليلة ثبتت معه ، ونزل عن فرسه ومعه ابو الرواغ وحولهما نحو مائتي رجل . وكان مسكين بن عامر رجلاً شجاعاً ، فقال للقوم : أين الفرار وقد نزل أميركم ؟ ثم رجع ورجعت معه الخيل .

فلم يزالوا يقاتلون حتى ردوا الخوارج الى البيوت ، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى جاءهم محرز بن شهاب . واقبل أحدهم يقول للخوارج :

إن شريكاً ابن الأعور سيفاجثهم بثلاثة آلاف رجل قدموا معه من البصرة ، وقد بعث بهم عبد الله بن عامر .

فقال المستورد لرجاله : لا أرى ان نقيم هؤلاء جميعاً ، ولكني أرى ان نرجع الى الوجه الذي جئنا منه ، فان أهل البصرة لا يتبعونا الى أرض الكوفة فيهن علينا عندئذ قتال معقل .

وصبروا حتى جنّ الليل ، فأخذوا من أهل القرى ، من دلهم على الطريق الذي أقبلوا منه . وأصبح معقل وهو لا يرى لهم أثراً .
ثم جاء شريك بن الأعور ولقي معقلاً ، فخبّره بأمرهم ، فدعا شريك أصحابه الى السير مع معقل فلم يجيبوه ، فلم يزل إلا ان يعتذر ويرجع .

على ان معقلاً لم يتردد في الأمر ، بل امر أبا الرواغ باتباعهم ، فقال له : زدني مثل الذين كانوا معي . ففعل ، ولحق بهم ابو الرواغ حتى أدركهم ، فحملوا عليه حملة صادقة ، انهزم بعدها معظم اصحابه وثبت هو في مائة فارس .
ثم عطف أصحابه من كل جانب ، فأعادوا الخوارج الى مكانهم .

فلما رأى المستورد ان الفشل سيكون نصيبه ، وأن معقلاً إذا أتاه ، وهو على هذه الحال ، هلك رجاله ، أمر اصحابه فعبروا دجلة ووقفوا في أرض بهرسير ، فقتبهم ابو الرواغ ، فقال المستورد لقومه :

هؤلاء هم حاة اصحاب معقل وفرسانه ، ولو علمت اني اسبقهم الى معقل بساعة واحدة لسرت اليه .. ثم سأل عن معقل ف قيل له انه في مكان على فراسخ ثلاثة ، فركب حتى انتهى الى جسر ساباط .

فعبّر النهر ، وهدم الجسر ، وكان هو على الضفة التي تلي الكوفة ، وابو الرواغ على الضفة الاخرى التي تلي المدائن .

وسار حتى انتهى الى معقل ، واصحابه متفرقون ، وهو يريد الرحيل ، وقد تقدمه فريق من جيشه ، فلما رآهم معقل نادى : يا عباد الله الارض الارض . فنزل معه نحو مئتين ، وجثوا جميعهم على الركب وقد استقبلوا عدوهم بالرماح ، فحاول المستورد ان يقتحمهم فلم يستطع ، فقال : اعدوا الى خيلهم . ففعلوا وحالوا بينهم وبينها وقطعوا عنها فذهبت في كل جانب .

ثم مالوا الى المتفرقين من اصحاب معقل ففرقوا بينهم ..

ورجعوا بعد ذلك الى معقل فلم يقدرُوا عليه ، فرفع المستورد صوته قائلاً :
لينزل نصفكم وليبق النصف الآخر على الخيل .

فاشتد الحال على أصحاب معقل وأشرفوا على الهلاك ، ولكن أبا الرواغ أقبل
في تلك الساعة ، وكان قد عرف انها مكيدة من المستورد فعقد الجسر ولحق بهم .
ولقيه الناس وهم منهزمون ، فصاح بهم : اليّ اليّ .

فرجعوا وخبروه انهم تركوا معقلاً وما يظنونهُ إلا قتيلاً . فركض فرسه
ولبسه الجيش ، حتى انتهوا الى المعسكر فرأوا راية معقل منصوبة والناس
يقتلون حولها ، فحملوا على الخوارج ، وإذا معقل يحرض اصحابه وقد رأى الفرج .
أما المستورد فقد رأى انه هالك . فنادى معقلاً ليبرز اليه .

فوثب معقل الى الساحة ، واصحابه ينهونه عن البراز وهو لا يصفي اليهم ومعه
سيفه ومع المستورد الرمح . فقالوا له : خذ رمحك ، فأبى ، وأقبل الى عدوه .
فقطعنه المستورد بالرمح فخرج السنان من ظهره .

ولكن معقلاً لم يقع ، بل تقدم والرمح في صدره ، فضرب المستورد بالسيف
لفقله وسقط هو بعده ، وقد لفظ الروح .

وكان معقل قد قال لقومه : إذا قتلتم فأمركم محرر بن شهاب .
فلما قتل ، أخذ محرر الراية ، ثم حمل على الخوارج فقتلهم جميعهم لم ينج منهم
غير ستة رجال . ومعقل والمستورد من عشيرة واحدة ، فهما من بني تميم ، ثم من
بني رياح ، وفي ذلك قال جرير :

ومنا فتى الفتيان والجود معقل ومنا الذي لاقى بدجلة معقلاً
وأرسل المغيرة أخبار الظفر الى امير المؤمنين فطابت نفسه وكان يقول :
لا يرتفع للخوارج بعد هذا صوت .



فسدت البصرة في ايام عبد الله بن عامر ، وظهر فيها السفهاء ، في السنة

الرابعة والاربعين . وذلك يعود الى ضعف في الادارة ، ولين يوضع في موضع الشدة والحزم . فشكا ابن عامر أمره الى زياد بن أبيه وسأله رأيه :

وزياد بطاش ليس عنده دواء أنجع من السيف ، فقال له : جرد سيفك .
قال : أكره ان اصلح الناس بفساد نفسي . - إذن ليس لك إلا ان تتمرغ في هذه الفوضى التي لمستها بيديك ، وإني قد نصحت لك .

وظلت حال البصرة على ماقرأت ، حتى رأى عبد الله أخيراً ان يوفد وفداً الى دمشق ، يطلع امير المؤمنين على ما يفعله الناس ، ويشاوره في الامر .
وكان المغيرة بن شعبة ، على عادته في كل عام ، قد ارسل وفداً الى معاوية ، يحمل اليه اخبار الكوفة واخبار العراق .

وقد انتهى هذا الوفد الى دمشق ، في الساعة التي انتهى فيها اليها ، وفد البصرة ، واجتمع الوفدان في الخضراء ، وفي وفد الكوفة ، ابن الكواء ، واسمه عبد الله بن ابي أوفى من بني يشكر وهو جريء القلب واللسان .
فلما مثل الفريقان بين يدي معاوية ، قال : نسألكم عن أهل العراق ..
فقال ابن الكواء :

ليس في العراق اليوم ، من الناحية العامة ، ما يغضب أمير المؤمنين .
- وماذا تعني بقولك ؟ - أعني ان الخوارج قد تفرق شملهم ولم يبق في العراق من يحاهر الخليفة بالعداوة كما كانوا يفعلون ..
فبدت آثار العز على جبين معاوية ، وقال :

لم تخف قط هذه الطائفة ولا تخافها اذا خطر للبقية الباقية منها ان تشهر السيف .
ان الخلافة لا تزعمها الحادثات ، وسيف امير المؤمنين ، اطول سيف في الاسلام ... ألا فليسمع الناس... ثم ابتسم ابتسامته التي لا لون لها وجعل يقول :
ليس لأحد ان يطمع بحلم امير المؤمنين ، إن للحلم ساعة وللسيف ساعة ، فالويل لمن تحدته النفس بأن ينسى هذا . ثم قال : وماذا في الكوفة ؟

الكوفة قطرٌ يأمره امير المؤمنين فلا يتردد في الطاعة ، فهو سامع مطيع خاضع للخليفة أطال الله بقاءه .

قال : إنما فرضت الطاعة على كل مسلم ... واميركم المغيرة ؟

— شديد عند الشدة ، ولين عندما يرى ان الامر يحتاج الى اللين .

قال : تلك خصلة يجب ان تكون لجميع الامراء ... وأنتم يا اهل البصرة ، ما وراءكم ؟ فقال احدهم : في البصرة طائفة من الناس تستحل كل شيء ، وقد بعث بنا ابن عامر لنشاور في امرها امير المؤمنين ... فضحك قائلاً :

تستحل كل شيء ويشاورنا في امرها ابن عامر ؟ انه لحزم عظيم الأثر يظهره هاملنا على البصرة ، للناس الذين يعيشون تحت لوائه .. وانها لرغبة في المشورة لم يرد علينا مثلها من عمال الدولة ! وهل يصبر ابن عامر على رجل يدعو الناس الى الثورة ، او الى الفتنة ، أو الى الكفر ليشاورنا في امره ؟ اما والله لو أأتانا من غير ابن عامر ما أأتانا منه الآن لمرلناه ... وماذا في البصرة إذن ؟

فقال ابن الكواء : أياذن لي امير المؤمنين في الكلام ؟

— انك في الكوفة وقد لا تعرف شيئاً مما نسأل .

— بل اعرف كل شيء يا مولاي فاذا سألتني أجبت بكلمتين .

قال : ماذا تعلم ... قال : إن اهل البصرة أكلهم سفهاؤم وضعف عنهم اميرهم ، وهذا كل ما في الامر !..

قال : تتكلم عن القوم وهم في هذا المجلس .

— اجل يا امير المؤمنين وأتكلم امام ابن عامر نفسه فهو الامير العاجز الذي لا يستطيع ان يعيد الى البصرة هدوءها ولا يقدر على إرضاء امير المؤمنين . وكان وفد البصرة ضعيفاً لا يصلح للدفاع ، فقال معاوية :

أيحين اميركم حتى ليطفى القوم السفهاء على البصرة وهو ساكت كأن الأمر لايعنيه ؟! فأجابه احدهم قائلاً : إنه يعمد الى الحلم واللين كما يفعل امير المؤمنين . قال : اما الحلم الذي ذكرت فأمر المؤمنين يعرف مواضعه وكان على ابن عامر ان يتبين هذه المواضع لئلا تضيع .. ويضيع حلمه .. اما والله لو علمنا ان حلمنا يذهب بهيبة الخلافة قيد شعرة لما عمدنا إلا الى السيف !.. ثم قال :

انظر فيما تتكلم ولا تعد الى مثلها ، واوما اليهم يأمرهم بالانصراف وهو يقول :

ارحلوا اليوم وارسلوا علينا ابن عامر فمن الرأي ان نراه لنسأله عما يتحدث به الناس في العراق . فنهضوا وهم يهيمون بالخروج ، فقال لابن الكواء :
أترى زياداً في الكوفة ؟ — نعم يا امير المؤمنين .
— وتراه في قصر الامارة عند المغيرة بن شعبه .
— نراه في فناء منزله وفي المسجد ..

فقال رجل منهم : رأيته مرة في مجلس المغيرة ، وفي ذلك المجلس وجوه الناس .
فقال لوفد البصرة : اخرجوا . ثم قال لوفد الكوفة : ما رأيكم في المغيرة ..
فسكت ابن الكواء ولم يشأ أن يقول كلمة .

اما ذلك الرجل فقال : رأينا فيه انه هواه في امير المؤمنين .
فأطرق قليلاً ثم قال : لانسألك عن هذا ، ولكننا اوصيناه عندما وليناه امر الكوفة ، بأن لا يترك شتم علي وذمه ، والاستغفار لعثمان ، والعيب لأصحاب علي .
— وهو يفعل ذلك يا مولاي ويشتم علياً ويدعو لعثمان ..

— ولكن بلغنا ان هنالك رجلاً يقول له كلما ذم علياً ولعنه : بل إياكم ذم الله ولعن ، ثم يقوم ذلك الرجل فيقول : انا أشهد ان من تدمون أحق بالفضل ، ومن تذكون اولى بالذم .. فهل تعرفون الرجل الذي يقول هذا ؟
وبدأ الغضب على وجه معاوية .

فقال رجل آخر : نعم يا امير المؤمنين ، انه حجر بن عدي .
— وماذا يفعل المغيرة عندما يسمع قول حجر ؟ يدعو له فينهاه ثم يقول له : اتق هذا السلطان وغضبه وسطوته فان غضب السلطان يهلك امثالك ..

فهز رأسه قائلاً : يفعل هذا ثم يكف عنه وهذا هو الضعف ..
وكأنه رأى انه جاوز الحد الذي يقضي به الدهاء .. فقال :
ولكنه يرى ، وهو في الكوفة ، مالا يراه امير المؤمنين وهو بعيد عنها ، وقد يكون له بعض العذر .. والآن قولوا لنا ، أليس في بني كعدة النازلين في الكوفة رجل اوسع نفوذاً وجاهاً من حجر ؟

— إن حجراً سيّد كعدة يا امير المؤمنين ، يساعده في امره رجل من قومه له

منزلته في العشائر .. — من هو ؟ — الأرقم بن عبد الله ..
 فجعل يقول : الأرقم بن عبد الله الكندي .. نعم ، الأرقم بن عبد الله من
 انصار علي ... ومن وجوه اصحابه ... ومن يناصر حجراً من رؤساء الناس ؟
 فتردد الرجل في الجواب ، فقال له :

لا نكتمنا ما تعلم .. قل كل شيء قبل ان نعلم ذلك من المغيرة نفسه .
 قال : أسمعمهم يقولون ان هنالك رجالاً من بني شيبان وعبس وخثعم وتميم
 يرون رأي عدي وهم يساعدونه من وراء الستار .

— اذكر واحداً من بني عبس . — قبصة بن ضبيعة .
 — وواحداً من بني خثعم ؟ . — كريم بن عفيف . — ومن بني شيبان ؟
 — صيغي بن فسيل ، وأما بنو تميم فاذكر منهم اثنين هما محرز بن شهاب وعبد
 الله بن حوية . واقبل الحاجب في تلك الساعة يستأذن لسعيد بن العاص ، فأذن
 له لدخول ، فقال له :

هل بلغك يا ابن العاص ما يفعله المغيرة بن شعبة ، عاملنا على الكوفة ؟
 — بلغني عنه يا امير المؤمنين أشياء ، وغابت عني أشياء .
 قال : يلعن علياً ويدعو لعثمان فيقوم حجر بن عدي الكندي فيشتم عثمان
 ويدعو لعلي .. وهو ساكت لا ينهائهم !

قال : اوفعلها المغيرة ؟ إنها اذن ظاهرة من ظواهر الفتنة .
 — بل هي ظاهرة من ظواهر العجز فالفتنة لا يرتفع لها صوت وأمير المؤمنين
 معاوية حي .. ولكن لا نستطيع ان نشك في دهاء المغيرة ، ووفائه للخلافة ..
 انصرفوا الآن ، وقد امرنا لكم ببعض المال ..

فقال ابن الكواء : أيا أمر أمير المؤمنين بأن نرسل اليه المغيرة ؟
 — لا ، ولك أن تخبره ما سمعت .
 وكان أهل الكوفة قد سمعوا من قبل ، ان معاوية يريد أن يعزل المغيرة ويجعل
 سعيد بن العاص عاملاً له عليها .

وقد عرف المغيرة ذلك ، وحدث به بعض خاصته ، ولكنه آثر السكوت والصبر ريثما تثبت هذه الاخبار التي نقلوها اليه .
فخرج الوفد وابن الكواء يقول في نفسه : إن العرب تتحدث بحلم معاوية وأنا أخشى هذا الحلم .



٩ .

كان لمعاوية وزراء ينظرون ، كما قرأت ، في أمور الدولة لا يحيدون عن امره ورأيه في جميع الشؤون .

بينهم اثنان من نصارى العرب السوريين ، هما منصور وسرجون وزير بيت المال ، وهو يثق بوفائها . وبين ابن الكواء وسرجون صداقة قديمة العهد .

فلما خرج وفد الكوفة الى الرواق الكبير ، الذي توضع في بعض حجراته اموال المسلمين ، لقي ابن الكواء صديقه الوزير يهامس الحرث بن عبد الله الأزدي احد وجوه دمشق . فصافحه قائلاً : لم يخطر لي ان اخرج من الحضراء دون ان اراك وقد رأيتك الآن . قال : ومتى قدمت ؟

— قدمت دمشق امس مع وفد الكوفة ، ومثلنا الساعة بين يدي امير المؤمنين وعنده وفد البصرة . — وسمعت ما قاله للوفد الذي ذكرت ؟

— سمعت كل شيء ، وانصرف البصريون ونحن عنده ..

فنظر الى الحرث نظرة قصيرة ثم قال : تعالوا نجلس .

ثم تقدمهم الى إحدى القاعات المعدة لجباة الاموال وجلس وهو يقول : ماذا جرى في البصرة حتى اضطربت حالها وفسد امرها ؟

قال : اما البصرة فهي كما كانت ولكن قويت فيها شوكة السفهاء ..

والحرث بن عبد الله يصغي اليه وقد برقت عيناه .

وقال سرجون : ولم يحيد عبد الله بن عامر دواء للقوم ؟

- إن الضعف هو الدواء الذي لجأ اليه ، وقد ذكرت ما أعلم لأمير المؤمنين
الس شينا ولم أترك كلمة ، ويشهد هؤلاء .. - وماذا قال أمير المؤمنين ؟
 - قال : إن عبد الله جبان وقد ضيَّع هيبة الخلافة .

- وأرسل يدعوه الى دمشق ؟

- أجل ، أوصى رجال الوفد بأن يبعثوا به اليه .

لمتعم يقول للحرث : لقد انتهى الامر . فقال ابن الكواء : وأي أمر هذا ؟
لمتعم قائلا : لك أن تسأل عما يجري في الكوفة فليس لك في البصرة شأن .

وهل نسيت ان بالبصرة طائفة كبيرة من بني يشكر ، وهم قومي ؟

قال : أولئك هم أنصار عبد الله بن ابي شيخ اليشكري وهو عدوك ...

قال : يطيب لي ان يكون لي شأن مع هؤلاء الاعداء ..

- أما انا فلا يطيب لي أن ابوح بسر لعلقة لك به .. كيف رأيت معاوية ؟

- أأصف لك ما رأيت من معاوية وما رأيت من وزيره صاحب بيت المال ؟

- أنا ؟ - نعم أنت .. صف ما تشاء وابدأ بأمير المؤمنين .

قال : رأيت حلما ما رأيت قط أروع منه . انه حلم رهيب تحتجب وراءه

ليرة لا أعلم أي شيء هي .

قال ان أمير المؤمنين احلم الناس ، الا في مواقف الدفاع عن الخلافة واني لا

الذكر ، وأنا اعيش معه في قصر واحد ، انه ضيع حلمه ، منذ تولى امر الخلافة ،

ليرة مرة واحدة . - ومتى كان ذلك ؟

- يوم نقلوا اليه أن المستورد الخارجي حمل سيفه يريد القتال .

ثم قال : ولكنك دخلت عليه ساعة خبروه بفساد البصرة ، فشهدت غضبه

ولم ابتسامته ، وخيل اليك ان الثورة تكمن وراء هدوئه ولينه ، اللذين وصفوها

لك ، قل هل سمعته يهدد عبد الله بن عامر ؟

لا فعبد الله بعيد عنه ، ولكنه سمعته يقول أن حلم عبد الله وزرقه بأهل

البصرة ، حلم العاجز ورفق الضعيف . - وما معنى ذلك ؟

- معناه أنه لا يؤمن بهذا الحلم الذي يتظاهر به ، وهو يرى ان السيف خير منه .

— أما انا فقد رأيت غير مارأيت انت . ان استخفاف اهل البصرة بأمرهم عبد الله ، معناه الاستخفاف بالخلافة وهذا ما لا يطيقه امير المؤمنين . وذلك الصبر الغريب العجيب ، يظهره ابن عامر ويعتصم به ، معناه الضعف الذي لا يرى الناس مثله .. قال : كنت اظن أنه يظهر حلمه للاقوياء من العرب ويخفيه عن الآخرين ، الذين لا حول لهم ولا قوة .

قال : احذر أن تقول مثل هذا مرة أخرى .. إن معاوية لا يخاف أحداً ولا يقوم في ذهنه أن في الدولة رجلاً يستطيع أن يحدث حدثاً في الامة بدون اذنه .. ولو كان يخاف القوي ويهزأ بالضعيف لما صبر على ما سمعه من أروى بنت الحارث ، وقد شتمته في مجلسه وشتمت عمرو بن العاص ، وهي العجوز الضعيفة التي ليس لها من القوة ما تثبت معها في وجه أمير المؤمنين . — ومن هي اروى بنت الحارث؟ — انها حفيدة عبد المطلب بن هاشم ، وقد قدمت دمشق منذ ثلاثة أعوام ، أي بعد تخلي الحسن عن الخلافة . — وكيف أذن لها في الدخول عليه ؟ — قيل له ان أروى بالباب ، فقال لنا ونحن في مجلسه :

عجباً ، كيف استطاعت هذه المرأة أن تأتي الشام وقد جاوزت التسعين من العمر . ثم قال لحاجبه : ساعدها في الدخول .

فدخلت وقد حنت السنون ظهرها وهي تمشي كما يمشي السكران فقال لها : مرحباً بك يا خالة .. كيف أنت ؟ وأجلسها بالقرب منه .

فقالت : بخير يا ابن اختي . قال : اذكرني حاجتك .

قالت : سأذكرها بعد أن أقول لك ما أريد قوله .

فابتسم قائلاً : قولي ما تشائين .. فرفعت رأسها وهي تقول :

لقد كفرت بالنعمة يامعاوية وأسأت لابن عمك الصعبة ، وتسميت بغير اسمك وأخذت غير حقك ! وكان عمرو بن العاص حاضراً ، فهمم بالكلام فأمره بالسكوت ثم قال لها : قولي أيضاً !

قالت : كنا أهل البيت أعظم الناس في هذا الدين بلاء ، حتى قبض الله نبيه مشكوراً سعيه مرفوعة منزله ، فوثبت علينا بعده تيم وعدي وامية ، فابتزوا حقنا ،

ووليتم علينا فكننا فيكم بمنزلة بني اسرائيل في آل فرعون ، ثم قالت :

وكان علي بن ابي طالب بعد نبينا بمنزلة هرون من موسى !

فقال لها عمرو بن العاص :

كفى أيتها المعجوز الضالة واقصري عن قولك مع ذهاب عقلك .

فقالت : وانت يا ابن الباغية ، تتكلم وامك كانت اشهر بغية بمكة وقد

ادهاك خمسة رجال من قریش فسئلت امك عنهم فقالت : انظروا أشبههم به

فألقوه به فقلب عليك شبه العاص بن وائل فالحقوك بنسبه ! أتعلم ماذا قال

هندئذ أمير المؤمنين ؟ — ماذا قال ؟

— قال عفا الله عما مضى هاقي حاجتك الآن يا خالة .

قالت : أريد الفي دينار . — وما تفعلين بها ؟

— اشتري بها عينا فوارة في أرض خرابة تكون لفقراء بني الحارث بن

هبد المطلب .

— وغير ذلك ؟ — والفي دينار أخرى أزوج بها هؤلاء الفقراء .

فقال معاوية : وهل بقي شيء ؟

قالت : والفي دينار أخرى أستعين بها على الزمان .. فنظرالي عندئذ قائلاً :

ادفع الى هذه الخالة ستة آلاف دينار ولتنصرف راضية .. أفتقول بعد ذلك

أن أمير المؤمنين يحود بحمله على القوي ويبخل به على الضعيف ؟

فقال ابن الكواء : ماسمعت مثل هذا قط .. إنه إذن أكرم من حاتم ..

قال : المال في نظره دعامة من دعائم الدولة ، فهو يبدله في كل يوم بل في كل

ساعة إذا رأى أن هنالك ماينفع العرش ، والويل لمن يستخف بمعطائه ، أو

بهبس بغيائته وحيلته ذلك العطاء . — يظهر أن المال كثير بين يديه ..

قال : اسمع يا ابن الكواء ، إن معاوية يشمل الناس بإحسانه ، ويفيض عليهم

من جوده وبره ، وينفق ما لا بد من اتفاقه ، على ديوان الجند والولاة والفقهاء

والقضاة يفعل ذلك كله من خراج دمشق وحده ، ثم يبقى من هذا الخراج ، في

يهب المال أربعمائة ألف دينار . ! ثم قال :

أما وقد وصفت لنا مارأيت من معاوية وذكرنا لك نحن مانعرفه عنه ، فلم يبق إلا أن تصف مارأيت من صاحب بيت المال .. وكان ابن الكواء خفيف الروح فقال :

أما سيدنا الوزير سرجون صاحب بيت المال ، فقد سألتني عما قاله أمير المؤمنين لو قد البصرة ، ولم يذكر لي غايته من هذا السؤال ..
- وأي دليل لك على أن لي غاية ؟

- دليلي هذه النظرات التي وجهتها الى الحرث بن عبد الله .. وهناك دليل آخر لا يرد هو قولك له : لقد انتهى الأمر ..

قال : بني وبين الحرث سرٌ ليس من الرأي أن أبوح به .
- ولكنني عرفت سرّك وسأبوح به الساعة . - اذكر ما عرفت ..

- ولا تغضب ؟ - ليس في الأمر ما يدعو الى الغضب فهو حديث بين صديقين ..
قال : خيل إليّ أن الحرث ينظر إلى البصرة بعينين تتقد فيها نار الشهوة .. فضحك قائلاً : وهل يؤثر الحرث البصرة على دمشق ، ودمشق جنة الدنيا وبهجتها ومقر الخلافة الفياض بالبركات ؟

- إن في البصرة شيئاً ليس في دمشق مثله فهو يؤثره على كل شيء ..
- وما هو ؟

- هو مقعد عال يشبه سرير أمير المؤمنين ويصبح الجالس عليه من الأمراء .
- أي أن الحرث يطعم بالولاية . - نعم يا مولانا الوزير ...

- ولكن الأمر لن يتم إلا اذا عزل عبد الله بن عامر .
- وأمير المؤمنين سيعزل عبد الله . - ومن قال لك ذلك ؟

- رأيت أمر العزل مكتوباً في عيني الخليفة وهو يتكلم .
- ولكنك لا تعلم أن هذا الخليفة يفكر اليوم في أمر آخر ، يضمن الولاية

لابن عامر الى الابد . - وتعرف أنت هذا الامر ؟
- ان صاحب بيت المال يعرف ما في نفس أمير المؤمنين . لقد بلغه اليوم

أن لعبد الله بن عامر فتاة هي آية الجمال وتدعى ام كلثوم . - نعم .

- وليس للخليفة هم غير ولده يزيد فهو يرسل نظره الى الاقطار العربية ،
ليختار له الزوجات الحسان من بنات الشرف والجاه .

- ويريد أن يزف اليه ام كلثوم ؟ - هذا ما يفكر فيه .
- وتظن أن فكرة الزواج هذه تمنعه من عزل عامله ؟ - اجل .
- أما أنا فأظن غير ذلك ، لقد دعا الآن عبد الله بن عامر الى دمشق وسيأتيها
بعد شهرين فيقول له الخليفة :

لقد عزلناك عن البصرة ، وخطبنا ام كلثوم ليزيد ، فهو يضربه بيد ويمسح
دموعه باليد الاخرى .. ثم يهب له بعض المال ، ويعدده بأنه سيبقى الى الابد من
المقربين اليه .. ذلك ما يفعله الخليفة بعد شهرين ، وذلك هو معنى قولك للحرث :
ان الامر قد انتهى . فابتسم سرجون ابتسامة الدهاء وقال :

اني اعتب على الله عز وجل . - لماذا ؟
- لأنه لم يشأ أن تولد في أيام الأنبياء ..
- وأنا أعتب عليه تعالى وفي الصدر كآبة وألم . - لماذا ؟
- لأنه جعلك وزيراً لبيت المال ، تلعب بأموال الامة ، وعقول أبنائها وتهزأ
بالمخلصين لك مثل ابن الكواء .. فضحك الجميع ضحكاً ملاً القاعة والرواق .
وكان معاوية عندئذ في ذلك الرواق وهو ذاهب الى منزله .

فقال لحاجبه : من يضحك في قاعة الجباة ؟ قال أتأذن لي أن افتح بابها ؟
قال : نفتحه نحن .. ومشى الى ذلك الباب فقال : سرجون !
فنهض الرجل وفتح الباب من الداخل وهو يقول : أمير المؤمنين ..

قال : سمعنا ضحكاً فأحببنا أن نرى أصحابه . وجعل يتبين القوم ثم قال :
وفد الكوفة ، وابن الكواء .. والحرث بن عبد الله .. انك يا ابن الكواء
تلصص على سرجون اخبار البصرة التي قصصتها علينا منذ ساعة .. ولكنك لا تقول
كلمة عن الكوفة .. الم يذكر لك سرجون حكاية السفهاء في ظل عبد الله بن عامر ..
إن عبد الله سيبلغه ما قلت يا ابن الكواء والويل لك منه .

فقال : حسبي أن امير المؤمنين راضٍ ولتغضب البصرة وأنا لا أبالي .

قال : الرجل الذي لا يحب عبد الله لا يحب أمير المؤمنين ..
 - اذن قالويل لأهل البصرة جميعهم فهو لا يحب أحداً منهم ولا يحب احد .
 قال : ما سمعنا مثل هذا إلا منك .
 قال : كنت أجراً الناس فخبرت أمير المؤمنين بكل ما أعلم .
 فعول وجهه وجعل يقول :
 سزى إذا كانت الجرأة وحدها هي التي أملت عليك ماقلت .
 وخطا بضع خطوات ثم رجع قائلاً للحرث :
 أما أنت فلا تنترك دمشق إلا إذا أذنا لك ...
 وانصرف وهو ينظر الى الأرض ، وقد غاص في لجة التفكير ..
 فقال ابن الكواء عندئذ لسرجون : وما معنى هذا يامولانا الوزير ؟
 - معناه أن لأمر المؤمنين سؤالاً يريد أن يوجهه الى الرجل .
 - قل ان له حاجة ، وهذه الحاجة هي ولاية البصرة التي سيعهد فيها اليه .
 ونهض قائلاً : سنتقي في البصرة إن شاء الله ...
 فخفض سرجون صوته قائلاً : نعم ستلتقيان إن شاء الله ...



١٠

رجع وفد المغيرة الى الكوفة ووفد عبد الله بن عامر الى البصرة ، وقد حفظ
 الوفدان ما سمعاه من معاوية لم ينسيا من حديثه كلمة .
 وكان أهل الكوفة يقولون : ان أمير المؤمنين بهم بعزل المغيرة وجعل سعيد
 ابن العاص خلفاً له . إلا ابن الكواء فقد كان يرى أن المغيرة سيستطيع بدهائه ،
 وقوة حيلته ، أن يثني معاوية عما بهم به .
 وكان أهل البصرة يقولون : لقد أتت الساعة التي يتنحى فيها عبد الله بن
 عامر عن مقعد الولاية . ولكنهم لم يعملوا أي رجل يختاره معاوية عاملاً بعده

حتى انتهوا الى بلدكم ومثلوا بين يدي عبد الله ، فقال لهم : قصوا علينا ما رأيتم وسمعت . فقال أحدهم : رأينا أيها الأمير وسمعنا ما لا تحب .

فاضطرب قائلاً : من أمير المؤمنين ؟! -- منه ومن ابن الكواء ..

- ابن الكواء ؟.. وهل عنيت عبد الله بن أبي أوفى الشكري ؟ .

- نعم .. -- وأي شأن لهذا الرجل مع معاوية ؟

- كان في مجلس أمير المؤمنين يرأس وفدأ من أهل الكوفة .

- وماذا قال ؟

- خبر الخليفة بما يعلم عن أحوال البصرة ، وعرض لهذا الحلم الذي غمرت

به القوم قائلاً انه عجز وضعف !

فجعل يقول : ويل لك يا ابن أبي أوفى ، تعرض لأمير البصرة في مجلس

الخليفة وأهل البصرة يسمعون ؟!.. إنها جرأة مجنون لا يعلم ماذا يصنع ... وبماذا

أجابه معاوية ؟ - رأينا على جبين معاوية اثرأ من آثار القسوة ثم قال لنا ...

إني والله لا اذكر ما قال ... - بل تذكر وتعيد قوله .

فكره الرجل ان يفعل ، فقال عبد الله لآخر : أعد علينا انت ماسمعته

من أمير المؤمنين .

قال . لقد دعاك جباناً ، حتى ليطغى القوم السفهاء في ظلك ، وانت ساكت

كان الأمر لايعنيك ... - ولم تدافعوا عن اميركم ؟

- بلى ، ولكن معاوية لم يصنع الى دفاعنا ، بل لم يشأ إلا ان يأمرنا بالانصراف

من مجلسه ، والرحيل عن دمشق .

- وآخر كلام سمعتموه ؟ - أمرنا بأن ننقل اليك رغبتك في الذهاب اليه .

فاطرق ملياً ثم قال :

أما الذهاب الى الشام فليس صعباً . ولكننا لا نسكت عن النمام الواشي ..

ابن ابن الكواء اليوم ؟ لقد رجع الى الكوفة مع القوم .

قال : تبينوا رجال العراق واحداً واحداً وانظروا أيهم اشد عداوة لهذا

الذئب . قالوا : إن عبد الله بن أبي شيخ الشكري أعدى عدو له .

قال : سنقهر ابن الكواء ، بأن نجعل الرجل الذي ذكرتم عاملاً على خراسان .
ولكن ولاية ابن أبي شيخ لا تغضب عدوك كما تظن ، فإذا شئت فاعد إلى شيء آخر تقهره به .

— لا نستطيع أن نمدّ إليه يداً وهو في الكوفة .. ابن ابن أبي شيخ ؟
— هو هنا وقد يكون الآن في المسجد . فأمر غلامه بأن يدعوه إليه .
فلما أقبل قال له : لقد وليناك أمر خراسان يا عبد الله فإذا تقول ؟
فانحنى الرجل قائلاً : ليس لي إلا أن أشكر الأمير على عنايته بي .. ولكن في أي شيء استحققت هذا منك ؟
قال : إنك أهل لهذا وأنت عدو عبد الله بن أبي أوفى الذي يقال له ابن الكواء أليس كذلك ؟

— بلى وستبقى هذه العداوة ما بقيت وإن يكن الرجل من قومي .
قال : لقد انتهك حرمتنا في مجلس أمير المؤمنين وكان يقول اننا أضعف من أن نحفظ في البصرة هيبته الخلافة .. أفترى ان هنالك شيئاً يقهر ابن الكواء أكثر من ان نوليكَ ؟ — لا أعلم وأرجو أن يدلني الأمير على ما اقهره انا به ..
— يكفي هذا الآن وسننظر في أمره بعد رجوعنا من دمشق .. تهياً الآن للانصراف إلى خراسان ، وكن ذلك الرجل الذي نتق ويثق به أمير المؤمنين .
فخرج اليشكري وهو يقول في نفسه :

سأمنع في عداوة ابن الكواء فعداوته خير لي .
وكان ابن عامر يقول لجلسائه : أترون ان نسير إلى دمشق في هذا الشهر ؟
فقال صاحب مره : سينتهي هذا العام بعد شهر فخير لك أن تسير إليها لتقرأ ما في نفس أمير المؤمنين . فانصرف عبد الله إلى منزله ثم لم يلبث حتى عاد وهو يقول : أعدوا لنا عدة السفر فسنرحل غداً .

— ومن يرافقك من القوم ؟ — غلامان يساعداننا في قضاء الحاجات .
ففعّلوا ما أمرهم به ، وعمد هو يومه كله ، إلى النظر في أمر الاموال ، ما له منها وما عليه ، حتى جنّ الليل ، وعند بزوغ الفجر ، خرج من البصرة ونفسه

تحدثه بأن قساوة معاوية ستجلب الدهاء واللين ، اللذين يعتمد اليهما في حديثه مع عمال الدولة .

١١

هذا عبد الله بن عامر امير البصرة يا امير المؤمنين .
 قالها أحد حجاب الحضراء ، وعند معاوية عقبة بن نافع ، وسرجون ،
 وسعيد بن العاص ، وبعض الوزراء .. فرفع معاوية صوته قائلاً :
 يستطيع امير البصرة ان يدخل على امير المؤمنين عندما يشاء ...
 فدخل ابن عامر وقلبه يخفق في صدره . ولكنه سلم وهو يبتسم .
 فرأى القوم عندئذ على ثغر معاوية ، تلك الابتسامة المعروفة التي لالون لها ،
 ثم مدّ يده الى عامله قائلاً : هذا مكانك فاجلس ... وأوماً الى مقعد قريب منه
 ثم قال : ماذا تحمل من اخبار البصرة يا عبد الله ؟
 قال : أحمل من أخبارها ما تطيب له نفس امير المؤمنين ..
 فقال لعقبة بن نافع وسعيد بن العاص : ألكما حاجة ؟
 فعرف الاثنان انه يأمرها بالانصراف ، فخرجا ، فقال :
 يطيب لأمير المؤمنين ان يكون عامله على البصرة رجلاً عظيم الهيبة بعيد
 الأثر في ولايته فقل لنا أنت ذلك الرجل ؟ - اني كما تعلم يامولاي .
 - نحن نعلم أن السفهاء في البصرة يضعون أيديهم على كل شيء ، والقوم
 فوضى .. ونحن لانعلم شيئاً آخر ... !
 قال : لقد كان الهدوء من قبل ينشر في البصرة ظله ..
 - كان ذلك من قبل أما اليوم ؟ ..
 - ليس هنالك شيء جديد يا امير المؤمنين «سملوية» .
 فقال : اسمع ياسرجون ، إن الرجل في البصرة لا يحسر على أن يترك ناقته في

فناء داره خوفاً من أن تمتد اليها يد سارق ، بل لا يحسر على الخروج من بيته في ظلام الليل ، خوفاً من أن تمتد اليه يد عدو والقوم فوضى ... ومع ذلك فليس في البصرة شيء جديد ... أهذا هو عذرک يا عبد الله ؟

قال : يحدث مثل هذا في جميع الأقاليم يا مولاي .

— أجل يحدث مثله ولكن العامل الذي يعجز عن اخماد النار يعزله الخليفة عن عمله ويجعل خلفه رجلاً هو أصلب عوداً منه .

قال خطر لي أن ألقا إلى الحلم كما يصنع أمير المؤمنين ففعلت ..

قال : لقد ذكر رجل من وفد البصرة شيئاً من هذا فنهيناه عن ذلك ونحن ننهيك الآن .. ضع الحلم في موضعه إذا أردت ان تفعل مايفعله امير المؤمنين ... نغض الطرف على الخطيئة والهفوة ، ونصبر على مانسمع ، وما نراه من جفاء ، ولكن لانطبق الصبر على قوم يستخفون بشأن الخلافة ... أفهمت الآن ؟

قال : عفوك عما مضى يا امير المؤمنين ..

قال : لقد نسينا الماضي ونحن ننظر في أمر الحاضر الواقع .. أي رجل تراه يصلح للبصرة في هذا الزمان ؟

— أريد امير المؤمنين ان يعزلني عن الولاية ؟

قال : لانعزلك عزلاً يا عبد الله ولكن نسألك أن تتخلى انت عنها الآن لتجرب رجلاً قبل لنا انه ذو دهاء ... — وهذا هو العزل ..

قال : اخطأت فالخليفة إذا اراد ان يعزل عاملاً اتبع آثاره وحاسب عماله ونظر في أمر امواله قبل ان ينحيه أتريد ان نضع مثل هذا ؟ فأطرق ولم يجب ، فقال معاوية :

اختر ، إما ان افعل ماذكرت واما ان تعزل نفسك .

قال : لا أطيق ان يقول الناس غداً ان امير المؤمنين يحاسب عبد الله بن عامر ويهم بعزله .

— اذن فليس عليك إلا ان تختار الأمر الآخر ..

قال : امهلني شهراً إن شئت . لماذا ؟

- لأتدبر أمري قبل ان اترك البصرة .
- تستطيع ان تفعل ذلك عندما يطيب لك . — واي بلد تختاره لي ؟
- لك المال بعرفة ، والدور بمكة ، وأنت تعرف العراق والشام كما تعرف الحجاز فأبي البلاد أحب اليك ؟
- فتنهذ قائلاً : سأخذ منزلاً بعيداً عن الناس فذلك خير لي ..
- فرأى معاوية الغضب على جبينه فقال :
- لقد انتهينا الآن من أمر الولاية وبقي امر آخر نحدثك به الآن .
- فظل عبد الله ساكناً ، فقال له : أسمعُ انت ؟
- نعم يا أمير المؤمنين . قال : وصفت لنا ابنتك أم كلثوم انها من أحسن النساء وجهاً وأكرمهن خلقاً وهي في سن الزواج .
- فبرقت عيناه قائلاً : انها لكما وصفت لك . — وتزوجها ؟
- إذا أردت فاذكر لي اسم طالب الزواج ...
- نذكر لك شيئاً عنه قبل ان تعرف اسمه .. انه أعظم أشراف العرب شأنًا وأرفعهم مقاماً لا يتقدمه في الجلوس والرواح والمجيء أحدٌ منهم ..
- فرقص فؤاده من الفرح وجعل يقول : انه امير المؤمنين ...
- بل هو ابن امير المؤمنين . — يزيد ؟
- أجل وقد سألنا ان تزفها اليه ونحن الآن نخطبها له فماذا تقول ؟
- ولكنه تزوج ام هاشم بنت عتبة بن ربيعة .
- قال : يظهر انك تبخل عليه بأم كلثوم .
- قال : لا يخطر لعربي ان يبخل بابنته على الأمير الاكبر ابن خليفة المسلمين ، ولكنني اردت أن أذكر الخليفة ، بأن الأمير تزوج ام هاشم منذ زمن قصير .
- ليس لك أن تسألنا عن هذا ، فلأمير ان يتزوج اثنتين او ثلاثاً في عام واحد . إنا نخطب اليك الآن أم كلثوم فماذا تجيب ؟
- اجيب بالرضى ، والطاعة ، والشكر .
- وتريد أن تسأل الأمير عن رضاه ؟

- حسبي أن امير المؤمنين أمر بذلك .
- اذن فارجع الى البصرة وستحمل ام كلثوم الى زوجها بعد قليل .
- ثم قال : أيطيب لك يا عبد الله أن ترجع الى الامارة ، وتبقى ام كلثوم في بيت ابياها ، أم تؤثر العزل على ان يكون يزيد صهراً لك ؟
- ليس في العالم شيء أؤثره على هذا الرابط الجديد الذي تشرفني به .. غير أنني اخشى أن لا تكون ام كلثوم أهلاً لولدك .
- قال : أما هذا الأمر فلا تعرض له . قل الآن أقتصر فراضياً .
- بل انصرف شاكراً كما قلت ولكن أأأذن لي أن أسألك عن الرجل الذي سيخلفني على البصرة ؟
- لقد فكّرنا في ان نولي رجلاً من اهل الشام لا نظن إنك تعرفه .
- من هو يا مولاي ؟ — هو الحرث بن عبد الله الأزدي .
- وكانه أراد عندئذ أن يداعب سرجون فقال :
- وقد دلّنا عليه من قبل وزيرنا هذا .
- فقال سرجون : حسبي أنني لا أدل امير المؤمنين إلا على المخلصين من رجاله .
- وهذا معناه ان عبد الله ابن عامر لم يكن مخلصاً لنا .. أفلا ترى يا عبد الله ان صاحب بيت المال من أعدائك ؟
- فطاب للرجل ان يدافع عن الوزير فقال :
- بل ارى انه من أعداء الوشاة الساعين بي .
- لو كان كما تقول لما رضي ان يختار للبصرة عاملاً آخر .
- أمرته بأن يدلّك على رجل توليه البصرة ففعل .
- فابقسم قائلاً : هذا هو الحلم الذي تضعه في موضع الشدة .. يقول لك الخليفة :
- هذا رجل من أعدائك ، فتقول انه من أنصارك وتدافع عنه بدلاً من أن تشكوه .
- قال : اني اعرف اعدائي يا امير المؤمنين .
- اذكر لنا واحداً منهم . — ابن الكواء الذي نقل اليك أن ابن عامر أعجز عن أن يسوس الناس ويحرد السيف على السفهاء .

قال : لقد خبرنا غيره بما خبرنا هو به فلننس ما مضى ، ولنجرّب الحُرث ابن عبد الله الأزدي هذين الشهرين فقد يكون من أولئك الرجال الذين يريدون أمير المؤمنين . — وإذا رأيت أنه ليس من هؤلاء ؟

— إذا رأينا ذلك عزلناه وجعلنا على البصرة عاملاً رابط الجأش لا يستعين إلا بالسيف ولو غضب مرجون .

ثم نادى غلامه فقال : ادعُ الحُرث الأزدي .

والحُرث لا يفارق الخضراء ..

فلما أقبل قال له : لقد وليناك البصرة بعد أن تخلى عنها عبد الله الذي تراه ، فإذا نذبت إلى إصلاح ما فسد فكُن رجلاً .. وتهض قائلاً : إلى المسجد فهذه ساعة الصلاة .

ولم يزد كلمة على ما قال ، ولكنه كان واثقاً بأن هذا الأزدي اضعف من أن بعيد الأمن إلى ذلك الاقليم المضطرب .



١٢

عزّ على المغيرة بن شعبة ، أن يعزله معاوية عن الكوفة ، ويولي سعيد بن العاص ذلك مابلغه من قبل ، وقد نقل إليه وفد الكوفة أن سعيداً كان في مجلس أمير المؤمنين . والمغيرة لا يسكت على أمر مثل هذا ، فهو الرجل الداهية الذي يحاري معاوية في دهائه : والوالي المجرّب الذي خبر الزمان وعركته التجارب .

وكان القوم قد تحدّثوا كثيراً بأمر عزله وهو يصفي إلى ما يتحدثون به ولا بهول كلمة ؛ حتى عاد الوفد من دمشق ، وقص عليه رجاله ما سمعوه من معاوية ثم مشلوا بين يديه . وكان يثق باخلاص ابن الكواء ، فقال له :

أذن فأمر المؤمنين لا يكتفي بأن نشتم علينا ونستغفر لعثمان .

— لا ، بل هو يريد أن تؤدّب بسيفك حَجْر بن عدي الذي يشتم عثمان

ويستغفر العلي . قال : نهينا حجراً عن ذلك كما تعلم فلم يشأ إلا الاصرار على مايفعل وليس لي حيلة في رده . قال : اسفك دم حجر يستسلم اليك قومه .

– ولكن لايطيب لي ان اسفك الدماء .

قال : قد يطيب ذلك لسعيد بن العاص ..

– ليفعل سعيد ما يراه عندما ينتهي اليه الامر .. أما انا فان ديني خير من دنيائي ولست بفاعل . قال : بهذا يأمرك امير المؤمنين فاصنع ما يأمرك به .

– ما كنت لأطيع أحداً في المعصية وقتل حجر يفضب الله عز وجل .

– اذن فاترك قصر الامارة مختاراً قبل أن تتركه وأنت مكره فعاوية لايلبث

حتى يولي سعيداً . قال : اعد عليّ ما قاله سعيد لمعاوية وأنت حاضر .

– قال له ان الصبر على حجر بن عدي ظاهرة من ظواهر الفتنة وكأنه يسأله

أن يولي له لينقذ الكوفة من حجر .. فتردد قليلاً ثم قال :

لا يجلس سعيد بن العاص في قصر الكوفة والمغيرة حي .. ولا يظن سعيد أن

سرجون يستطيع أن يعزلي كما عزل عبد الله بن عامر .. إن المغيرة شيء وعبد

الله شيء آخر ، ومع ذلك فعبد الله خير من الحرث الازدي الذي لا يصلح للولاية

أتعرف ماذا صنع ؟ – ماذا ؟

– دعا اليه سفهاء البصرة وصعاليكها فنصح لهم بأن يكفوا عما يفعلون ، ثم

سكت فرأى القوم بعد ذلك انه رجل يقول ولا يفعل .

– وكيف يرضى امير المؤمنين عن هذا ؟

– ما أظنه راضياً وأنا أرى انه سيأمر بعزله وسيولي زياداً فقد سمعت انه

ينتظر الامارة . – الويل لأهل البصرة اذا انتهى الأمر الى زياد .

– بل الويل لزياد نفسه الذي يغوص في لجة من دماء الأبرياء .

وبينا هما يتحدثان ، أقبل حاجب المغيرة يقول : إن زياداً بالباب .

فأذن له المغيرة وجعل يهامس ابن الكواء قائلاً : لم يأت زياد الآن إلا لأمر .

فلما دخل هشّ له المغيرة ، ودعاه الى الجلوس ثم قال :

اذكر حاجتك ايها الأمير .

- ليس لي حاجة أسألك قضاءها وإنما ورد عليّ كتاب من أمير المؤمنين بأمرني فيه بترك الكوفة فلم أشأ أن أتركها قبل أن أراك ..
- قال : بترك الكوفة ؟ - نعم . - والذهاب الى البصرة ؟ - نعم .
- وقد ولاّك وعزل الأزدي ؟ - نعم .
- لقد اختار أمير المؤمنين لأهل البصرة السيف القاطع بعد أن جرب الحرث ابن عبد الله أربعة أشهر ..
- ومنى ترحل ؟ - بعد ثلاثة أيام .
- بل تمكث بيننا بضعة عشر يوماً ثم تتصرف .
- ولكنني لا أستطيع ذلك . - لماذا ؟
- لأن القوم في البصرة في فوضى ، وقد جمع لي أمير المؤمنين ، خراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان ..
- قال : إنها ولاية واسعة الأطراف لم يول أمير المؤمنين أحداً مثلها .
- ولكنها لا تتسع لسيفي ... !
- صدقت ، وهذا ما أراده أمير المؤمنين ، ولكن هل فكرت في الرجال الذين ستجعلهم أعواناً لك ؟ - فكرت في رجل واحد أجعله على الشرطة .
- من هو ؟ - عبد الله بن حصن .
- وكان ابن حصن ، سفاكاً بطاشاً مثل زياد ، فقال المغيرة :
- مارأيت أبعد نظراً منك في الاختيار .. ان عبد الله هذا يقتحم الموت ولا يبال .. قال لآخر في الرجال الذين لا يقتحمون الموت .
- والتفت الى ابن الكواء قائلاً : أليس لك في البصرة غرض نقضه لك .
- كان لي غرض قضاء أمير المؤمنين ولم يبق لي غرض آخر .
- وهل تلجأ الى أمير المؤمنين في قضاء الأغراض ؟
- اجل ، فقد وصفت له ضعف ابن عامر وعجزه عن الأمر ، ثم طلبت اليه ان يولي سواه ففعل . وكان زياد يعرف حكايته فقال :

ولكن ابن عامر لم يترك الامارة إلا بعد أن جعل على خراسان ، عدوك ابن أبي شيخ الشكري . قال : ان ابن دجاجة « وهو يعني ابن عامر » قليل العلم .
 - وكيف ذلك ؟ - لقد ظن ان ولاية عبد الله بن ابي شيخ خراسان ، تسوءني لوددت انه لم يبق يشكري إلا عاداني وانه ولاه قبل عزله ..

- إذن فأنت لاتسألني ان اعزله الآن ..

- ولماذا أسألك وقد عزله امير المؤمنين .. ألم تقل الآن انه جمع لك خراسان

وغيرها ؟ - بلى ولكن يخطر لي ان ابقيه ..

- افعل ماتشاء فليس لي أن أسأل الأمراء ان يعزلوا جميع الناس ..

- وانت ايها الأمير ؟

- أما انا فأسأل الله ان يجعل عهدك في البصرة عهد هدوء وراحة .

قال : سأقيم بالبصرة وعيناي تنظران الى الكوفة ... فاذا فسدت حالها فاستعن بي فالسيف خير ما ألقأ اليه .. قال : سأستعين بالقوة ..

فقال في نفسه : بل تستعين بالضعف كما كان يفعل ابن عامر ، ولولا بقية من هيبة الخلافة لوثب على معاوية ، حجر بن عدي .

وقام فخرج والقساوة تطل من عينيه .

فقال ابن الكواء : سنتهي اليها اخبار قساوته بعد حين .

- وسيرحل الناس عن البصرة فراراً من الظلم .

- اما انا فأرى انهم سيؤثرون البصرة على كل بلد . - لماذا ؟

- لأن قساوته ستحفظ الأمن وتعيد هيبة الامارة .

قال لو جعلك الخليفة اميراً لجردت السيف ، انك يا ابن الكواء تؤثر الحرب

على السلم والشدة على اللين . قال : شدة يعيش الناس بعدها ، خير من لين يخسرون معه كل شيء ، قل لي على أي أمر عولت ؟

- على الذهاب الى دمشق . - وماذا تصنع فيها ؟

- أرى معاوية فاستغفبه لأظهر للناس اني مللت الولاية .

- ولكنك قلت ان ابن العاص لا يجلس في قصر الكوفة وأنت حي .

- وهل يخطر لك ان الأمر ينتهي عند هذا الحد ؟
- أجل ، فاذا استعفيت الخليفة ، ارسِل سعيدياً الى الكوفة قائلاً له : هذا المغيرة قد ملّ فكن خلفاً له .
- بل يعينني الى عملي قائلاً : لا أرضى إلا ان تبقى ..
- وأي شيء يدعوهُ الى ذلك ؟
- تدعوه اليه مصلحة ملكه والدفاع عن العرش ..
- قال : اعترف لك بأنني لم افهم شيئاً مما قلت .
- ولكنك ستفهم كل شيء بعد رجوعي من الشام . - ومتى تترك الكوفة ؟
- أمكث بها يوماً واحداً بعد رحيل زياد ، ثم اذهب .
- اي انك تسافر بعد اربعة ايام .
- نعم فأنا اخشى ان يولي معاوية سعيدياً إذا ترددت في الذهاب .
- وانا اخشى دهاء معاوية وحلمه فاحذر ..
- قال : سأضيق هذا الدهاء الذي تخافه بدهاء مثله إن شاء الله .
- وهل تأذن لي في الذهاب معك ؟
- أخاف ان تكثر ظنون الخليفة إن فعلت ..
- قال : أصبت فالجرب والوباء أهون علي وعلى الناس من هذه الظنون ...
- وقام المغيرة فدخل منزله وجعل يأمس ولديه موسى وعروة ، وقد سمع الفلمان من كلامه لفظة البيعة ثم سمعوه يردد اسم يزيد .
- وكان ابن الكواء قد انصرف ، وقد قام في ذهنه ان عزل المغيرة لابد منه ، وان دهائه لا يذكر ، إذا ذكر دهاء امير المؤمنين .

وأهل البصرة يعلمون اي رجل هو زياد ، واي سيف هو سيفه .. قدمها ،
والفسق ظاهر فاش فيها ، والأمن لا وجود له ، والقوي يتناول الضعيف ،
بطمعه وجفائه . فأقبلوا اليه يظهرون له الطاعة ويحنون له الرؤوس .
فلم يبتسم لأحد ، ولم يمد يده الى أحد .

ولكنهم رأوه يمشي بقدم ثابتة الى المنبر ثم سمعوه يقول :
« اما بعد فات من الضلالة العمياء ما يأتي سفهاؤكم ويشتمل عليه العقلاء من
الأمر الجسام التي يثب فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأن لم تسمعوا
نبي الله ولم تقرأوا كتاب الله ، ولم تعلموا ما أعد الله من الثواب لأهل طاعته ،
والعذاب لأهل معصيته ، أتكفون كمن طرقت عينه الدنيا وسدت مطامعه
الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ولا تذكرن انكم أحدثتم في الاسلام حدثا
لم يسبقكم الي مثله احد ؟ هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوية ، ألم يقيم منكم
من يمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟ وتعطفون على المحتلس وكل امريء
يذب عن سيفه ، لا يخاف عاقبة ولا يخشى معاداً ...

اني رأيت آخر الأمر لا يصلح إلا صلح به أوله ، لين في غير ضعف ،
وشدة في غير عنف ، واني لأقسم بالله لا أخذت الولي بالولي ، والمقيم بالراحل ،
والمقبل بالمدير ، والصحيح منكم بالسقيم حتى تستقيم لي قناتكم ..
إياكم ودليج الليل ، فاذا حمل الي مدليج سفكت دمه ، إياكم ودعوى الجاهلية
فلاني لا أجد احداً دعا بها إلا قطعت لسانه . لقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ،
من حرق بيتاً حرقناه ، ومن نعب منزلاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته
حيّاً فيه ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم اكفف عنكم لساني ويدي .. من كان
منكم محسناً فليزدد احساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته ..

ايها الناس ، لقد اصبحنا لكم ساسة نوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، فلنا
عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، واعلموا أني مها
قصرت فاني لا أقصر عن ثلاث .. لست محتجياً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني
طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً أو عطاء ، ولا تاركاً لكم جيشاً في أرض العدو ..

فقام عبد الله بن الأهم فقال :
أشهد ايها الأمير انك اوتيت الحكمة وفصل الخطاب .
قال : كذبت فذاك نبي الله داود . فقال الأحنف بن قيس وكان حاضراً :
قد قلت فأحسنست ، والثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثني
حتى نبتلي ...

قال : صدقت . ثم أمر منادياً ينادي :
من يخرج من بيته ليلاً بدون عذر يضرب الأمير عنقه !!
وجعل على شرطته عبد الله بن حصن ، وأوصاه بأن لا ينسى كلمة مما قال .
وكان يؤخر المشاء الآخرة ثم يصلي ، فيأمر رجلاً بأن يقرأ سورة البقرة أو
غيرها يرتل القرآن ، ثم يصبر ساعة ، ويأمر بعدئذ صاحب شرطته بالخروج ..
فيخرج الى الاسواق ويطوف في الاحياء فلا يرى انساناً خارج بيته إلا قتله .
حتى أخذ صاحب الشرطة ، في ليلة مظلمة اعرابياً غريباً .
فأتى به زياداً فقال له : أبصري أنت ؟ - لا والله .
- ولم تسمع النداء اننا لا نأذن لأحد في الخروج ليلاً ؟
- لم أسمع شيئاً ولكني قدمت بناقة لي وغشيتي الليل فاضطرتها الى موضع
واقفت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير .
قال : أظنك والله صادقاً ولكن في قتلك صلاح الأمة . ثم أمر به فضربت عنقه !
وكان زياد اول من جرد سيفه من الولاة ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ،
لخافه الناس خوفاً شديداً ، وأمن بعضهم البعض الآخر .
حتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له احد حتى يأتي
صاحبه فيأخذه . وحتى كان القوم يبيتون دون ان يغلق أحد بابه ..
وانتهت اخبار البصرة الى معاوية ، فقال لرجاله :
لم أكن نخطئاً حين وليت زياداً ، انه رجل يعرف اين يضع السيف ...
وجعل زياد شرطته اربعة آلاف ، وسيّر الحراس بين يديه بالحرايب والعمد ،
وأمر خمسمائة من رجال الجيش بأن لا يفارقوا المسجد .

فصلحت حال البصرة ، وطابت نفس معاوية من هذه الناحية ، وجعل يفكر في أن يجعل زياداً عاملاً له على الكوفة والبصرة ، في وقت واحد . ولكنه لم يذكر ذلك لأحد ، ولم يحدث به الوزراء . وكان يهم بأن يعزل المغيرة ، الذي لمس ضعفه ، وثبت له أنه يخاف حجر بن عدي ، الذي يسب عثمان ..

١٤

انتهى المغيرة الى دمشق ، ومعه بضعة رجال من قومه . وكانوا يقولون له : نخشى ان ينتهي الأمر بينك وبين معاوية الى ما لا تحب ، أما هو فكان يقول : لو لم أكن واثقاً بأني سأحفظ الولاية لي ، لما خطر لي ان اجيء الى الشام ...

ونزل معهم في دار لأحد اصحابه ، لم يخرج منها إلا عندما جنَّ الليل . وكان قد سأل عن إخوان يزيد ابن الخليفة ... فدلوه على أحدهم ، فأتاه فقال : أتستطيع ان تستأذن لي على الأمير يزيد ؟ قال : من أنت ؟ — إني من أهل العراق .. — وليس لك اسم ؟ فتردّد .. ثم قال : اسمي المغيرة بن شعبة . قال : عامل الكوفة ؟ — اجل . — ان الأمير في مجلس امير المؤمنين وقد لا يخرج منه إلا إذا أذن له ابوه ، بعد الهزيع الثاني من الليل .. — والى أين ينصرف إذا خرج ؟ — الى جناح في الحضراء يقيم به . — واقدر ان أراه الليلة قبل ان يستسلم الى الكرى ؟ قال : ألا تطيق الصبر الى الصباح . — لا فالأمر خطير ، ومن الرأي ان أحدثه به قبل ان ادخل غداً على أمير المؤمنين . قال : سأمهد لك سبيل الوصول اليه قبل ان يغلق بابه ..

ثم قال : دلني على مكانك . - إني في منزل صديق لي .. وسماه له .
فقال : ارسل الى الخضراء من يخبرك ان الخليفة صرف جلساءه وخاصته ثم
هدد الي فتري الأمير . - هنا ؟ - نعم هنا وستحدثه بما تشاء .
فانصرف المغيرة وهو واثق بنفسه ، ومؤمن بأن الغاية ستتم له .
ولم يتردد في إرسال رجل الى الخضراء .
وبعد بضع ساعات ، عاد ذلك الرجل وهو يقول :
لقد انصرف امير المؤمنين وخرج يزيد من القصر .
فمشى والى الكوفة الى ذلك البيت الذي يقابل فيه أميره .
وكان يزيد قد وصل قبله ، بدعوة من صديقه ورفيق لهوه .
فاستأذن ودخل ثم قال : السلام على مولانا الأمير ..
قال : وعليك السلام يا ابن شعبة . ما الذي أتى بك ؟
قال : خاطر خطر لي لم أستطع معه البقاء في العراق .
قال : خاطر حرب أم سلم ؟
قال : أما الحرب فقد خمدت نارها بعد تفرق الخوارج ، وأما السلم فنحن
من طلابه ولم نحارب قط إلا من شهر في وجهنا السيف .
- إذن فالأمر يتعلق بخبر انتهى الى الكوفة ...
- الأخبار كثيرة يا مولانا الأمير ، فأياها عنيت ؟
- ذلك الذي تحدثت به الوفود ورددته الشفاه في دمشق ...
- ومع ذلك فأنا لأعلم ماهو .
قال : ألم يخبرك الناس أن أمير المؤمنين أراد أن يجعل سعيد بن العاص خلفاً
للمغيرة بن شعبة ؟ قالها يزيد وهو يبتسم ابتسامة الاستخفاف .
فأجابه مستغرباً : وهل خطر لأمير المؤمنين أن يعزل المغيرة ؟
- هذا ما سمعته منذ بضعة اشهر وقد قيل لي أنه كان يهيم بعزلك يوم عزل
ابن هار عن البصرة ... ! قال : انه خبر لم يجاوز الشام يا مولانا وأمير الكوفة
لا يعلم ان هنالك سبباً يدعو الى هذا العزل ..

- قال : ألم يبلغك أن امير المؤمنين غير راض عنك ؟ ..
- بلغني قوله لابن الكواء أنه غير راض عن حجر بن عدي ..
- وهذا معناه أن حجراً لم يرفع صوته في سب عثمان إلا عندما رأى أن امير الكوفة اضعف من ان يؤديه ..
- ليس في الأمر ضعف كما يظن امير المؤمنين ، ولكني كرهت ان اضرب حجراً فتثور كندة ويحمل السيف انصار علي ... ففقهه ضاحكاً ثم قال :
- إذن فأنت تخاف انصار علي وتخشى ان تدافع عن الخلافة .
- بل أخاف ان أعكر على أمير المؤمنين صفو العيش ، وأدفع جيشه ، سياسيي الطائشة ، الى خوض الميادين . — ولكن الخليفة يرى غير ماتراه .
- ماذا يامولانا ؟
- يريد أن تخافه الشيعة فلا يرتفع لها صوت في ظل عماله .
- قال : إذا أراد أن نضع السيف في الشيعة وضعناه ...
- لا أعلم ما الذي يريده اليوم فلك ان تسأله .
- قال : خير لي أن استعفيه فينتهي الأمر ..
- ستمثل بين يديه غداً فتفعل مايطيب لك .. اذكر الآن ماقدمت لأجله .
- قال : في الأمر سر أيها الأمير .
- في هذا المنزل تحفظ الأسرار فلا تكتننا إياها ..
- فخفض صوته قائلاً :
- لقد ذهب أصحاب النبي وكبراء قريش ولم يبق غير أبنائهم .
- وما معنى ذلك ؟
- معناه انك انت أفضلهم وأحسنهم رأياً ، وأعلمهم بالسياسة والسنة ولا أدري مايمنع أمير المؤمنين من ان يعقد لك البيعة .
- فأشرق جبين يزيد وجعل يقول : البيعة بولاية العهد ؟ — نعم .
- وهل ترى يا ابن شعبة ان الامر يتم لي ؟
- قال : لا كان المغيرة ان لم يضمه لك ..

— وعولت على أن تحدث به الخليفة ؟ — لقد قدمت من اجل هذه الغاية ولكني رأيت ان أبسط لك رأيي قبل أن أدخل عليه .

فأطرق يزيد وهو يفكر في هذا الاقتراح العذب ... ثم رفع رأسه قائلاً :
سأرى أمير المؤمنين عند الصباح فأعيد عليه ماسمعه منك ثم تدخل انت بعدئذ فتسأله الرأي . — وتكون انت في مجلسه ؟

— اجل فيجب ان اسمع كل ماتقولان ..
وملاً الغرور عندئذ بردتيه ، فنهض وهو يقول : الى اللقاء غداً في الخضراء .
وأوماً الى رفيق صباه بان يلحق به الى مجلس لهوه حيث ينتظره المغنون ..



١٥

كان معاوية في ذلك الصباح ، كثير التفكير أصفر الوجه ، يرى اصفراره جميع الذين خرجوا معه الى الصلاة ، وعادوا الى مجلسه .

وكانوا يعلمون ، ان هذا الاصفرار ، دليل حادث مفاجيء ، أو همّ يحمله من هموم الدولة . ولكنه لا يلبث حتى يستعيد هدوءه ويخرج من لجة تفكيره زاهي الجبين ، مفتر الثغر . فالدهاية مثل معاوية لا يفرق في كأس ماء كما يقولون .

ورجال البلاط لم يتعودوا ان يسألوه عن هم بل هم لا يحسرون على ذلك إلا إذا حدثهم بأمره ، وسألهم رأيهم فيما يعانیه .

وكان يزيد في ذلك اليوم ، أول من مثل بين يديه ، بعد الصلاة .

فقال له : لقد جئت الآن يا بني تسألني قضاء حاجة لك ..

— بل جئت اقص عليك ماسمته امس ، من رجل له مقامه في العراق ، ومنزله عند أمير المؤمنين . قال : اذكر الرجل قبل ان تذكر ماسمته .

— انه المغيرة بن شعبة والي الكوفة .

— المغيرة هنا ونحن لا نعلم ؟ انه آت إذن ، ليسمع بأذنه ما قيل له عن سعيد

ابن العاص . - يقول أنه لم يسمع شيئاً من هذا وقد خبرته أنا كل شيء .
 - ماذا ؟ - خبرته ان أمير المؤمنين لم يكن راضياً عنه يوم نقلوا اليه ان
 حجر بن عدي يستغفر لملي كلما لعنوه ...
 لقد نقل اليه ذلك ابن الكواء فكأنك لم تقص عليه شيئاً .. وماذا قلت غير
 هذا ؟ - قلت انك هممت بعزله يوم عزلت عبد الله ..

فجعل معاوية يعبت بلحيته وهو يقول :
 هذا خطأ يا بني ، فليس من الرأي ، من الناحية السياسية ، ان يطلع عمال
 الدولة على مايفكر فيه امير المؤمنين .. ألا تعلم ان هؤلاء العمال يستخفون بنا
 عندما يعلمون اننا همنا بأمر وترددنا فيه . وسكت قليلاً ثم قال :
 وماذا يظن المغيرة عندما تخبره بذلك ؟ سيقوم في ذهنه ان أمير المؤمنين لم
 يحسر على المضي في أمر العزل خوفاً من الفتنة او من أمر آخر فكأنك أعطيته
 سلاحاً جديداً يضمه الى ما عنده من سلاح الدهاء .
 وبماذا أجاب ؟ - يقول انه سيستغفك .

قال : كذب المغيرة فهذا القول قطعة من دهائه ... قل لنا الآن ما سمعت
 منه ؟ - لقد جاء ليحدثك بأمر ولاية العهد . فوضع يده على جبينه ثم قال :
 انه موقف سنستغله نحن قبل ان يستغله المغيرة .. هذه هي السياسة ، وهذا
 هو الدهاء وإننا نعترف للمغيرة بالاثنين .. أتدري ما الذي يريده من اقتراحه ؟
 انه يريد أن يخدع الخليفة ، ويخدر أعصابه ، فيستسلم اليه ، ويعدل عما يهم به
 من امر عزله .. ولكن فاته أن الأمر يهتم له امير المؤمنين أكثر مما يهتم له سواء ..
 أجل ، سنصني اليه ، ثم نعيده الى عمله ، ونأمره بأن ينظر ، وهو في الكوفة ،
 في امر البيعة ، ويمهد لها السبل في العراق ... ودعا حاجبه فقال : اخرج الى
 الرواق ، فاذا رأيت والي الكوفة في القوم فليحضر فقد أذننا له .
 فانصرف الغلام ثم عاد قائلاً : لقد أقبل الساعة يا امير المؤمنين .

- دعه يدخل وامنع الناس .
 وما هي إلا لحظة حتى دخل المغيرة ومعاوية يفتصب الابتسام اغتصاباً

ويحاول أن يخفي همه وراء مظاهر الهدوء .

وقد أحس المغيرة بذلك ، فسلم منحنيًا له وليزيد ، فقال معاوية :

أهلاً بوالى الكوفة ، الذي يمرّ بيزيد فيحدثه بشأن من شؤون الدولة ، قبل ان يرى امير المؤمنين ... قال : خطري يا أمير المؤمنين ان ألس بيدي هوى ولذلك قبل ان اذكر لك أمر البيعة . - كأنك خفت ان يرفض يزيد ولاية العهد؟

- هذا ما خطري . - وماذا رأيت ؟

- رأيت هوى في النفس ، ورأيت الأمير أهلاً لما افكر فيه .

- ومن اوحى اليك بهذه الفكرة يا ابن شعبة .

- أوحاها اخلاصي لك ولآل بيتك .

- ولكنها فكرة جريئة تحدث في الاسلام حدثاً لم يسبقنا اليه احد ولم يخطر

مثله للخلفاء . - حسب أمير المؤمنين ان يختار للخلافة بعده ، رجلاً يبعد مطامع

الناس عن عرش المسلمين ... - نفعل ما فعله الخلفاء قبلنا ..

- ماذا يا مولاي ؟ - نختار رجلاً من غير أبناء معاوية ..

ولكن الناس لا يرضون ، إلا أن يكون الامير يزيد ، خليفة لهم بعد أمير

المؤمنين ابيه .. - من هم هؤلاء الناس ؟

- انا أكفيك أهل الكوفة . - ثم ماذا ؟

- ويكفيك زياد اهل البصرة . - ثم ماذا ؟

- ثم لا يخالفك أحد في غير الولايتين اللتين ذكرت . - والحجاز ؟

- أما الحجاز ومصر فليس فيها من يرفع صوته كما تعلم ..

فتمتم قائلاً : قد يقوم في اقليم الشام نفسه من لا يرضى بهذا .

- الشام كلها في يد أمير المؤمنين .

فتظاهر بالتفكير ثم قال : ومع ذلك فقد يوجد بين امرائها من يطعم بالعرش .

- يقول الناس ، إن الذين يطمعون بالخلافة اربعة رجال من قريش يقيمون

جميعهم بالحجاز وأنت تعرفهم كما اعرفهم انا .

قال : انا معجبون بك يا ابن شعبة فأنت تعلم كل شيء .. من هم رجالك الاربعة؟

- الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر الخطاب، وعبد الرحمن بن ابي بكر،
وعبد الله بن الزبير .. فابتسم قائلاً : وفي حص رجل آخر أحبه أهل الشام
وعظم شأنه عندهم هو عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ..

- وهل يطمع كما يطمع هؤلاء ؟

- من يعلم فقد يخدعه الناس ويدفعونه الى الامام .

ومررت عندئذ موجة صفراء على جبينه .. فقال المغيرة : ماسمت قط ان لعبد
الرحمن هوى في هذا .. انه رجل شديد البأس وهواه في الحرب كما كان هوى أبيه .
- أجل إنه رجل حرب ، وهو اليوم يقاتل الروم ، وله شأن في جميع
الميادين .. رجل حرب نعم ... ورجال الحرب يقتحمون المخاطر وتثب بهم
المطامع الى لجة ليس لها قرار ...

فعرف المغيرة عندئذ ان معاوية يخاف عبد الرحمن من هذه الناحية ، فقال :
إذا رفع الرجل صوته خفضته بسيفك !

قال : ما نبالي بصوته ، ولا نعبأ بأصوات الآخرين .. ولكننا نريد ان ننظر
في الأمر من جميع نواحيه قبل ان ينتشر الخبر في الاقاليم .. أي عذر نعتذره به
يا ابن شعبة اذا فعلنا هذا ؟ - لقد رأيت يا أمير المؤمنين ما كان من سفك الدماء
بعد عثمان ، فاعقد للأمير يزيد ، فان حدث بك حادث ، كان ابنك كهفًا للناس
وخلفاً ، لا يسفك دم ، ولا تكون فتنة ...

- وماذا تصنع بحجر بن عدي ؟ فتجلد قائلاً : ان خوفي من الفتنة التي ذكرت ،
أملى علي أن اغض الطرف عن حجر ، ولكنني نهيته ..

- ومع ذلك فهو يفعلها كل يوم . - لم يخطر لي يا امير المؤمنين ان أضع السيف
في كندة من أجل كلمة يقولها ابن عدي .. وقد يكون ذلك خطأ في السياسة
فانا من أجل هذا الخطأ أتيت لاستغفيك .

قال : ذكرت هذا ليزيد امس ، وتذكره لنا الآن .. إن في هذا القول ضعفاً
يا ابن شعبة لانرضاه لك .. - وأين هو هذا الضعف يا أمير المؤمنين ؟
قال : أرايت أن امير المؤمنين يستعمل رجلاً لا يثق به ؟

— لا . — وهل رأيت أن الولاة لا يثقون بالخليفة الذي ولاهم ؟

— لا . — أما نحن فقد رأينا واحداً من هؤلاء الولاة هو انت .

— انا ؟ — أجل . — وكيف ذلك ؟

— سنقول لك كيف ذلك .. لقد سمعت من الناس أن الخليفة يريد أن يجعل

سعيد بن العاص عاملاً له على الكوفة ، فصدقت ما قيل لك وجئت الآن تتخلى عن الولاية دون أن تسألنا عما سمعت .. أتعرف معنى هذا ؟ . معناه أن ثقة أمير الكوفة بأمر المؤمنين قد ضعفت بل كادت تتلاشى ..

ونظر اليه نظرة رضى والابتسامة على شفتيه ..

فقال : لقد سألت الأمير امس فخبرتني أنك همست بعزلي وهذا يكفي .

فضحك قائلاً : ولكن الأمير الذي خبرك ذلك امس ، قال لنا اليوم أنه

اراد أن يجرب دهاء المغيرة بن شعبة فنقل اليك ما لا صحة له .. ألم تقل لنا هذا يا يزيد ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين !

قال : وكيف تريد أن لا اصدق ما يقوله ابن الخليفة ؟

— كان عليك أن تقول له : إن الخليفة يثق بي وأثق به فهو لا يعزلي عن

الكوفة إلا اذا حدثني بأسباب هذا العزل . — اذن كان ابن الكواء كاذباً فيما ذكره لي . — ماذا ذكر ابن الكواء ؟

— قال إن الغضب على حجر بن عدي يملأ صدرك ، وقد سألت سعيد بن العاص

رأيه في سكوتي عنه ، أي عن حجر .

— هذا صحيح ، ولكن نسي ابن الكواء كلمة أخرى قلناها وابن العاص

حاضر ... قلنا أن المغيرة يرى ، وهو في الكوفة ، ما لا يراه أمير المؤمنين ، وهو لي دمشق ، وفي هذه الكلمة وحدها بيان لابن العاص ...

اذن فأنت لا تريد أن اترك الكوفة .

— بل لا تريد أن تفكر في هذا ولا يخطر لنا أن ننحيك عن الامارة ، ما دمنا

على هذا العرش ! . — وحجر بن عدي ؟

— افعل مع حجر ما يطيب لك ، على أن تكون شديداً عند الشدة ، وحليماً

عندما ترى وجهاً للحلم !!

قال : خير لي يا امير المؤمنين أن تأمرني بواحد من امرين ، إما أنت أضرب حجراً ضربة لا يرتفع بعدها صوت لقومه ، وإما أن أنهاء بالحسنى عما يفعل .

فذكر معاوية في تلك الساعة البيعة ليزيد ، فقال :

الرفق أولى .. ولكن أبيبايع بنو كندة ولدنا هذا بولاية العهد ؟

— يبايع بعضهم ويتنحى البعض الآخر دون ان يكون له شأن .

— وهل حدثت وجوه الكوفة بالامر ؟

— وكيف افعل قبل ان اسألك الرأي .

قال : ستحدثهم بعد رجوعك فترى ونرى ..

قال : اضمن لأمير المؤمنين ان اهل الكوفة سيكونون اول من يهتف لولي

العهد يوم المبايعة . — واهل البصرة ؟ — لك ان تستشير زياداً ..

قال : لانخاف شيئاً وعلى البصرة رجل مثل زياد .. اما انت فلا تتردد في

ارسال اخبارك بعد شهرين .

— سأجعل امر البيعة أول عمل لي وستعرف كل شيء .

قال : أيطيب لك ان تمكث بدمشق بضعة ايام ؟

— لا يا امير المؤمنين فالرجوع خير من البقاء وسأرحل غداً ..

قال : اكنم الناس جميعهم ما حدثناك به ولا تقل لأحد اننا ذكرنا لك عبد

الرحمن بن خالد ، ثم قال : سنأذن للناس الآن فهل يطيب لك ان تبقى ؟

— أؤثر ان اخرج الى المدينة فأقضي فيها يومي .

فقال : يا غلام ، ليدخل الناس . فنهض المفجرة فودعه وخرج وهو يقول في نفسه :

لقد كنت أدهى من معاوية .. وكان معاوية يقول ليزيد :

كنا أولاً فرسي رهان ثم غلبناه .. قال : بماذا ؟

قال : ولاية العهد اعظم شأناً من ولاية الكوفة ، فليبق والياً وليعهد لنا

سبل البيعة التي هي دعامة العرش .. ودخل الناس عندئذ ، فانصرف معاوية الى

النظر في امور شعبه، وهو يفكر في امرين اثنين، احدهما ولاية العهد، والآخر أمر رجل من وجوه الناس وعظماهم يقيم بمحصر.



١٦

قبل أن يدخل معاوية منزله عند غروب الشمس، دعا وزراءه وخاصته فقال لهم: لنبوح لكم الآن بسر خطير لا نريد أن يعرفه احد غيركم مهما يكن شأنه.

فقال احدهم: ما كنا لنبوح بأسرار الدولة يا امير المؤمنين.

- نعم ذلك ولكن سرنا الحاضر اعظم هذه الاسرار ..

فاستوا في مقاعدهم، ومدوا اعناقهم ليسمعوا ما يقول.

فقال: أرايتم والي الكوفة في دمشق اليوم؟

- رأيناه في مجلس امير المؤمنين هذا الصباح.

قال: لقد جاء يمرض علينا أن ننظر في امر المبايعه بولاية العهد فمن كان له رأي في ذلك فليذكره الآن. - الرأي رأيك ولكن يجب أن تستوثق.

- ممن؟ من جميع الامراء الذين لهم مقامهم في الامة.

- يكفيننا المغيرة اهل الكوفة، وزباد اهل البصرة، ونحن لانجد في غير هذين

الاقليتين من يخالفنا في امر .. - وهل سألت زياداً؟

- سنكتب اليه الساعة فهل يظن أحدكم ان في الحجاز واليمن ومصر والشام

من يأبى ان يبايع؟ فأجابه سرجون قائلاً: انت تعلم يا امير المؤمنين أن في الامة

طائفة كبيرة تأبى ذلك وتكيد الخليفة من وراء الستار، فاذا اردت أن تدعو

الناس الى البيعة، في هذا الزمان، فاسبر غور المسلمين في جميع الاقطار،

وأرسل من يحمل اليك آراء العمال والأنصار.

- لم يخطر لنا ان ندعو الناس اليوم، ولكن نقرأ افكارهم ونبدأ بزياد،

اكتب ياسرجون : وكان سرجون ، كاتبه ووزيره ، وصاحب امره ، فكتب الى زياد :

إذا أتاك كتابنا فاستشر من تشاء من وجوه البصرة في أمر البيعة ليزيد وتعجل في الجواب . ثم قرأه سرجون بصوت عال فقال معاوية لحاجبه :

ادع المختار . والمختار رجل من الموالي جعله معاوية قائداً لحرسه .

فأقبل ، فقال له الخليفة : نحتاج الى رجل صادق من رجال الحرس .

فمرف ان هنالك رسالة لها شأنها ، فقال :

أريد امير المؤمنين ان يحمل الرجل رسالة له ؟

— اجل يحملها الى البصرة على أن لا يراها احد سواه .

— وتأمر بأن يترك دمشق الليلة ؟

— بل يتركها عند الفجر دون أن يعلم الناس الى اين يذهب .

— اعطني الرسالة يا مولاي . — تأخذها من سرجون عندما يتها الحارس

للرحيل . وأوماً اليه بان ينصرف . ثم اطلق ساعة وشفتاه ترتجفان ، والوزراء

لا يقولون كلمة . ثم قام فخرج وأمر سرجون بان يلحق به ، وتقدمه الى احدى

القاعات ثم هامسه قائلاً :

ألم تسمع شيئاً عن عبد الرحمن بن خالد ؟

— لقد كان في بلاد الروم يا امير المؤمنين .

— نعرف ذلك ، وهل ورد علينا شيء من أخباره ؟

— ورد في بريد اليوم انه عاد الى حمص . فبرقت عيناه وجعل يقول : عاد

الى حمص ... ولم ينثر اهل حمص الأراهير على رأسه ؟

فتزدد سرجون في الجواب ثم قال : ان اهل حمص يحبونه ، ويستقبلونه ،

عندما يعود من سفر ، كما يستقبلون القائد الظافر الذي يشرف قومه ..

فهز رأسه قائلاً : لا يفعل ذلك اهل حمص وحدهم بل يشاركونهم فيه طوائف

كثيرة من أهل الشام . قال : أراك تذكر عبد الرحمن يا امير المؤمنين والغضب

في عينيك ...

— أجل ، وهل يطيب لأمير المؤمنين ان يعظم شأن عبد الرحمن في الشام ، ويميل الناس اليه منصرفين عن الخليفة ؟

— ومن يحسر من أهل الشام ، على أن يعظم شأنه والخليفة وآل بيته احياء ؟
— يحسر على ذلك ، اولئك الذين يعرفون آثار أبيه ، خالد بن الوليد ،
ويطمعون بعبثاته ، وهم كثار في هذا القطر . — وهل تخشاه يا مولانا ؟

— نخشى ان يمسي مرجعاً للقبائل النازلة في الشمال الشرقي ، وإن يبعد صوته ويمتد نفوذه حتى ينتهي الى دمشق !!

قال : يسهل على أمير المؤمنين ان يخفض صوته ويقضي على نفوذه ، بكتاب صغير يكتبه اليه . — وماذا نكتب ياسرجون ؟

— هذا ما تكتبه اليه : من أمير المؤمنين الى عبد الرحمن بن خالد ،
أما بعد فنأمرك بأن تترك حمص وتسير الى اليمن فتمكث بها حتى يأتيك أمر آخر .. ، تكتب اليه هذا يا أمير المؤمنين فينتهي كل شيء .

فأجابه هازئاً : لو رفعك القدر ياسرجون الى عرش من عروش بني قومك لما استطعت ان تصون ملكك يوماً واحداً . — ولماذا يا أمير المؤمنين ؟

— لأن هذا الكتاب الذي تشير علينا به ، نفي صريح تضطرب له نفوس المخلصين لعبد الرحمن وتكثر بعده الاقاويل .

— إذن فاجعله عاملاً لك على اليمن .

قال : يظهر أنك تريد ان يعظم شأنه في بلاد اليمن كما عظم في بلاد الشام
لهبكثر انصاره في الناحيتين ويذهب له صيت وذكر .

قال : مره فيحضر الى دمشق . — وإذا حضر ؟

— تجعله من الخاصة او قائداً للحرس . — أو نجعله من الوزراء يروح
ويجيء في البلاط ويفسد علينا كل مانصنع ، أهذا هو الرأي ؟

قال : لقد رأيت الآن رأياً آخر . — ماهو ؟

— هو ان توليه المدينة فيعيش هنالك بين اعدائك ، وتجعل مروان بن الحكم والي المدينة ، عاملاً على حصص .

قال : ألم يكفك يا سرجون ان في الحجاز ابن الزبير وابن عمر ، وابن ابي بكر ، وأبناء علي حتى تقويم وتشدد ازرم بعبد الرحمن ؟ إنك ضيعت دهائك ولم يبق لي إلا ان انظر في الأمر وحدي دون ان يكون لك رأي فيه ...
قال : اقدف به الى بلاد الروم .

قال : ألا تراه يخوض صفوف الروم ثم يرجع ولواء الظفر يخفق فوق رأسه ، وأهل تلك الناحية من الشام يلقبونه بالفارس الذي لا يغلب ؟
فوضع رأسه بين يديه ليخلق للخليفة رأياً آخر ، فلم يجد ، فقال : أعترف لك يا أمير المؤمنين بأني لم أرَ غير هذا .. قال : أعجزت ؟ — نعم .
— وكيف خطر لنا ، ونحن من تعلم ، أن نجعلك كاتبنا وصاحب أمرنا والرجل الأول في الخضراء بعد يزيد ؟

قال : عندما أحاطني أمير المؤمنين بنعمته كنت شيئاً .. أما الآن فأنا لاشيء .
وخير لك ان تبعث بي الى الغوطة احرق الأرض التي وهبتها لي ..
فضحك قائلاً : سنفعل ذلك ولكن في وقت آخر ، ثم قال : أين يقيم الآن ابن أثال ؟ — في حصص . — ولم يزل صديقاً لك ؟
— نعم وهو من المخلصين لأمير المؤمنين .

قال : كنا نراه دائماً في الخضراء ، أما اليوم فقد مرّ أكثر من شهر ونحن لانرى له وجهاً .

— إنه في دمشق بامولانا وقد قدمها عند العصر .
— وتقول إنه من المخلصين للخلافة ؟
— أجل ، وقد ذكر لي غير مرة أنه يبذل دمه في سبيل أمير المؤمنين .
قال : أرسل من يدعوه الى هذه القاعة الآن .
قال : أخشى ان يأمره أمير المؤمنين بقضاء أمر لا يستطيع أن يقضيه .
— يكفي أن يكون مخلصاً ..

فأيقن سرجون بأن في الأمر ما فيه فقال : ولكنه جبان .
 — نحن لأنأمره بأن يشهر السيف .. ولكننا نعلم ان له خبرة بطباع النبات ..
 قل لفلانك ان يأمره بالهجرة . فخرج سرجون ليرسل من يدعوا الرجل وهو
 يردد في سره : لقد قضي عليك يا عبد الرحمن .
 ثم جاء ابن أثال بعد لحظة ، وهو من النصارى ، وكان يحب سرجون ومعاوية
 كما يحب نفسه ، فقال له الخليفة : أغلق الباب واجلس .
 ففعل وهو ينظر الى الأرض ولا يقول كلمة ، ثم قال معاوية : متى
 قدمت من حمص .

— جئت مع البريد يا أمير المؤمنين .
 — ورأيت عبد الرحمن بن خالد يوم رجوعه من أرض الروم ؟
 رأيته وهو في موكبه والحراس والغلمان بين يديه ، والناس يعظمونه ويهتفون
 له كأنه أمير المؤمنين ... !
 فقال وشفته ترحفان : يفعل ذلك اهل حمص كل مرة .
 — ويشاركهم فيه رجال القبائل النازلة في البادية وهم على الخيل والرمح في
 الأبدى ، كأنهم فرسان عبد الرحمن . — ولا يذكرون الخليفة ؟
 — اذا هتف احدهم ذاكراً الخليفة ضاع صوته .. !
 — فترى الناس في حمص يميلون اليه ويذكرون فضله وفضل ابيه ؟
 — نعم يا أمير المؤمنين ، انهم يحبونه ، وتحبهم اليه وفود العرب كل يوم تحمل
 الهدايا وتسأله قضاء الحاجات . — وكيف يعودون ؟
 — يعود الجميع وهم يرددون الفاظ الشكر !
 قال : صف لنا منزله يا ابن أثال .

— اذا وصفت منزل الرجل فكأنني أصف الخضراء .. قاعاته وأروقته تنقص
 اللوم ، وفي مجلسه وجوه العرب وأمراء العشائر والسادات ، والغلمان والمماليك
 يطمعون الناس ويحملون اليهم عطاءه . — واذا جلس للظالم ؟
 — ترى الناس جميعهم ينصتون الى اقواله ، وينصرفون ، عندما يأذن لهم ، وهم

راضون بأحكامه ، مؤمنون بعدله !

وكانت هذه الالفاظ التي يرسلها ابن أثال ، ناراً تتأجج في صدر معاوية ، وابن أثال يعرف ذلك ، وهو يزيد النار ضرباً وسعيراً من أجل غاية له .
أجل ، إن عبد الرحمن لم يقرّب ابن أثال اليه ، ولم يخصّه بإحسانه ، بل آثر عليه من أهل حصص ، طائفة كبيرة وفر لها المال بفضل عطاياه .
ومثل ابن أثال لا ينسى الاساءة ولا ينسى الاحسان .
وقد ساعد الحظ معاوية ، والقت الاقدار بين يديه ، عدواً لعبد الرحمن يستخف بالمخاطر في سبيل القضاء عليه .

وكان الغضب قد ملأ نفس الخليفة ، فقال : — أتشهد مجلس ابن خالد ؟
— ادخل مع القوم عندما يخطر لي أن اسمع شيئاً .
— ويعطيك كما يعطي الآخريين ؟ — لا ، بل هو يضيق عليّ في دفع الخراج .
— وخراجك كثير ؟
— نعم فأنا من فضل امير المؤمنين املك ارضاً واسعة . انفق من غلتها ، وأستعين بما بقي من هذه الغلة ، على جور الدهر .
فأشرق جبينه قائلاً : اذن يطيب لك أن تنجو من ظلم عبد الرحمن .
— وكيف انجو منه يا مولانا ، وهو الغني القوي ، وابن القائد العظيم الذي فتح الفتوح للإسلام ، وأنا الفقير الضعيف الذي اعالج الارض ونبات الارض لأعيش ؟
— يتم لك ذلك بشيء من الحيلة ، والقليل من الدهاء .
— وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ — قيل لنا أنك خير بطيائع النبات .
— نعم . — وهل تعرف احداً من غلمان عدوك ؟ — اعرفهم جميعاً .
— وبينهم واحد من الروم ؟ — بينهم ثلاثة من هؤلاء مخلصون لي .
— اذن فالتقدّر عبد لك يا ابن أثال ، تصنع شربة فيها سم ثم تدسها مع غلام لعبد الرحمن فيشربها فيموت ، وهذا خير ما تلجأ اليه في مثل هذه الحال .
فاضطرب قليلاً ثم قال : القتل هيّن يا امير المؤمنين ولكن يجب أن ننظر فيها يحدث بعده .. — وماذا يحدث ؟

- يعرف القوم في حصص أني قاتل عبد الرحمن فتسوء العاقبة ..
قال : ويلك ، تقول هذا وتنسى أن امير المؤمنين هو الذي يأمر بك بقتله ، وهل
يخطر لك أننا لا نستطيع ان نحميك اذا ظهر السر ؟ .. قل انك جبان ولست
اهلاً لحب الخليفة وثقته بك ...

قال : تحميني من السيف يا امير المؤمنين ولكن يبقى ... - يبقى ماذا ؟
- إني غريب في حصص وقد يحملوني من الحراج مالا اطيع حمله فيضيع مالي
وأخسر كل شيء .. فعادت الابتسامة الى شفثيه الصفراوي ، وجعل يقول : إذا
خسرت مالك فأمر المؤمنين أعجز من ان يعطيك بدلاً منه . اسمع يا ابن أثال ،
لقد وضعنا عنك خراجك ما بقيت ..

فحنى رأسه ولم يجب ، وكأنه كان يطعم بشيء آخر .
فقال معاوية : وما نكتفي بهذا بل نوليك خراج حصص .
قال : حسبي أنك راض عن عبدك يا امير المؤمنين .
- وسنفي لك بما وعدنا ، عندما يقتني الى دمشق خبر ابن خالد .
فتمتم قائلاً : سأفعل .

- ولكن احذر ان تخرج من فمك كلمة تفضح السر ..
- إن الموت خير من الفضيحة .. أأأمرني بالرجوع غداً ؟
- اجل ، وهذا سرجون يعطيك بعض المال تعالج به أمرك .
وهم بالانصراف ، فقال الرجل : أهذه آخر كلمة تقولها لي ؟
- نعم ، وليس لك أن تسألنا سؤالاً إلا بعد ان تفعل ماأمرناك به .
وخرج ، وسرجون ساكت ، فقال ابن اثال : ألا ترى رأياً ؟
- لو كان لي رأي في هذا لما ترددت . - وهل تنصح لي بأن امضي في امري ؟
قال : أجمعون انت ؟ تطلب الي ، بعد أن تم الرضى بينك وبين امير المؤمنين ،
ان انصح لك بما تنصح ؟ إن الامر قد انتهى الآن فكأن ذلك الرجل الداهية ،
الذي لا تعلم يسراه ، بما تفعله يمينه .. ودخل بيت المال فأعطاه ما يستعين به ،
ولم يلبث حتى ودعه قائلاً : الى اللقاء ، ولم يزد كلمة .

فانصرف ابن أثال وهو يفكر في ذلك الامر الرهيب الذي ندب اليه ، وفي ولاية الخراج التي سيكون له بعدها المقام الرفيع ...



١٧

عندما رجع المغيرة الى اصحابه قالوا له : ماذا صنعت ؟
قال : وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على امة محمد وفتقت لهم فتقاً لا يرتق ابداً . - وما ذاك ؟

قال : لا والله لا أقول شيئاً حتى اقدم الكوفة .

فلما رجع اليها ، دعا اليه من يثق به من القوم ، ومن يعلم أن هواه في بني امية وقال لهم : يريد أمير المؤمنين ان نعد العدة لمبايعة يزيد في ولاية العهد فماذا ترون ؟ فقال أنصار الامويين : ليس هنالك شيء احب الينا من هذا .

فقال لقومه : وانتم ؟ - أما نحن فنفعل ما تفعله انت .

قال : ليس لنا إلا ان نبايع فنحن دماء المسلمين بعد موت الخليفة .

- ومتى تكون البيعة ؟

- لا أعلم فهذا أمر ينظر فيه أمير المؤمنين وحده ، ثم قال : سنختار وفداً منكم نبعث به الى دمشق . - وماذا يصنع فيها ؟

- نوصيه بما يقوله فيعلم معاوية ان أهل الكوفة أنصار له . وانها لسياسة تجعلكم من المقربين .. فقال احدهم : الوفد يحتاج الى المال ...

- سنعطيه ثلاثين ألف درهم توزع على رجاله .

- إذن لم يبق إلا ان تختار هؤلاء الرجال .

- وعددهم ؟ - هذا أمر يعود اليك .

فاختار عشرة منهم ، ويقول بعض المؤرخين انه اختار اربعين رجلاً جعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وأوصاهم بما يقولون . فخرجوا وهم يحملون المال الذي

اشترام به ، حتى انتهبوا الى دمشق ، فدخلوا على معاوية وعنده الوزراء .
 فقام خطيب منهم يقول : أتيناك لنتطلب اليك أن تنظر في أمر المسلمين ..
 فتجاهل قائلاً : قضينا حياتنا كلها ونحن ننظر في هذا الأمر . ماذا عنيت
 بقولك ؟ - عنيت أمر الخلافة بعدك فقد كبرت سنك يا أمير المؤمنين .
 - وماذا تريدون ؟ - نريد ان تنصب لنا علماً وتجعل لنا حداً ننتهي اليه .
 - أشيروا علينا . - نشير بيزيد ابن امير المؤمنين . - أو قد رضىتموه ؟
 - نعم . - وذلك رأيكم ؟ - نعم ورأي من وراءنا .
 فهامس موسى قائلاً : بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟
 قال : بثلاثين ألفاً .. قال : لقد كان دينهم رخيصاً ، ثم قال : لا تمجلوا
 بظاهر هذا وكونوا على رأيكم فنحن سننظر فيه ويقضي الله ما أراد والأناة
 خير من العجلة ..

وقضى الوفد في دمشق ثلاثة ايام ، دون ان يحدثه معاوية بالأمر ، غير المرة
 الاولى التي قرأت . ولكن عزمه قوي على البيعة ليزيد ، وأقام ينتظر جواب
 ربه ، وكان رسوله قد انتهى الى البصرة ، بعد رجوع المغيرة الى الكوفة .
 فدعا زياد عبيد بن كعب النميري وهو من مستشاريه ، وقال له : إن أمير
 المؤمنين كتب اليّ يستشيرني في أمر البيعة لابنه يزيد فما ترى ؟ قال : هات أنت .
 قال : يخيل اليّ ان معاوية يخاف نفرة الناس ويرجو طاعتهم ، ويزيد صاحب
 شدة وولع باللهو والصيد ، فأرى ان تلقى امير المؤمنين ، وتذكر له ما تعلمه عن
 ولده ، وتنصح له بأن لا يتعجل في الأمر . - أفلا ترى غير ذلك ؟
 - ماذا ؟ قال : لا تقصد على معاوية رأييه ولا تبغض اليه ابنه .
 - ونساعده في أمر البيعة ولم تأت ساعتها . - بل نفعل غير ماتقول .
 - قل فانا أريد أن ابعث جوابي .

- أذهب انا الى دمشق وأسير الى يزيد قبل أن ارى معاوية فأخبره ان أمير
 المؤمنين كتب اليك يستشيرك في البيعة له وأنتك تحشى خلاف الناس عليه لهذا
 البهر الذي اشتهر أمره ، وأنصح له باسمك ، بأن يترك لهوه ، لتستحكم له الحجة

ويتم له الأمر . - وبعد هذا ؟

- تسلم بعد هذا مما تخاف من امر الامة وتكون قد نصحت امير المؤمنين باخلاص وصدق .

قال : صدقت فاذهب على بركة الله ، فان أصبت فقد انتهى الامر وإن يكن خطأ فحسبك أنك فعلت ذلك وأنت من المحبين ويقضي الله ما يشاء . فقام عبيد فركب حتى اتى دمشق . واستأذن على يزيد فذكر ذلك له ، فقال يزيد وهو هادئ : اذا كان اللهو الذي تحدثني به يمنع الناس من المبايعه فأنا اكف عنه .

قال : سيكون لهلك عذراً لهم اذا امتنعوا .
- اذن فقد تركته ، وتستطيع أن تقول لزياد أن هذا اللهو ستضمحل آثاره .

قال : لم يبق إلا أن أرى امير المؤمنين .

وقام فدخل عليه ، فقال معاوية : عبيد بن كعب ؟

- نعم عبيد بن كعب كما ترى يا مولاي . - وآت من البصرة ؟

- وآت من البصرة .. قال : نسألك عن زياد ..

- اني رسوله إليك يا امير المؤمنين . - وتحمل كتاباً منه ؟

- أجل وهذا هو .

فتناوله معاوية واذا هو لا يزيد على سطرين وقد جاء فيها :

أنا في كتاب امير المؤمنين اطال الله بقاءه يذكر لي البيعة ليزيد فأنا أشير

بالتؤدة وعند عبيد بن كعب الخبر اليقين ، فقال : ما خبرك يا عبيد ؟

-- أذكر كل شيء يا مولاي ؟

- إن امير المؤمنين لا يكتم خاصته شيئاً . أجل اذكر كل شيء وأعد علينا

ما حدثك به زياد ..

قال : كنت الآن عند الامير يزيد ، وقد نقلت اليه ما أوصاني به امير البصرة .

- وبماذا اوصاك ؟ - بأن اطلب الى الامير أن يكف عن لوه .

- ووعدك بهذا ؟ - نعم يا مولاي وقد وثقت بوعده .

- وأي رأي لك في أمر البيعة ؟ - ارى ما يراه زياد وأنا أرجو أن لا تعجل .

قال : قبلنا ذلك منك ومن زياد وسنصبر حتى تشيروا علينا بأن نفعل ..
أيسود الهدوء الكوفة اليوم ؟

- ومن يحسر في الكوفة على رفع صوته والوسط سوط زياد والسيف سيفه ،
وصاحب الشرط يطوف في النهار والليل باحثاً عن السفهاء ..

قال : بارك الله في زياد فقد استعاد في البصرة هيئة الخلافة ثم قال : قل لزياد
أن أمر البيعة قد انتهى الآن ولكن يجب ان يذكر دائماً أننا سندعو الناس اليها في
زمن آخر فليعد لها العدة وليمهد الاسباب ..

قال : أستطيع يا أمير المؤمنين أن تعين هذا الزمان .

- لا يستطيع ذلك غير الله .. إن الخليفة من هذه الناحية لا إرادة له ...
الارادة للأمة وحدها فهي التي تطلب اليها أن تباع رجلًا ترضاه .. وكأنه أراد
أن يقرأ الاسرار من وراء الستار ، فقال : لو سألتك الآن عن ارادة اهل البصرة
فماذا تجيب ؟

- بماذا اجيب يا مولاي وأنا لم احدث احداً ولم يعرف القوم أنك كتبت الى
زياد تسأله رأيه .

- اذا كنت انت لا تستطيع أن تجاوب عن هذا لأنك لم تسأل احداً فكيف
يستطيع الخليفة أن يعين زمان البيعة ، وهو لا يعرف رأي المسلمين في ذلك ??
إن في الصبر نيل الارب فلنصبر ونحن متكلمون على الله .

وسكت قليلاً ثم قال : من في البصرة من رجال الرأي والجاه ؟

- اعظم الرجال جاهاً وأصدقهم رأياً الأحنف بن قيس .

- صدقت انه لكما تقول ولكن كان هواه من قبل في علي وقد شهد معه

صفين . - كان كذلك يا أمير المؤمنين . - واليوم ؟

- اما اليوم فقد اعتزل السياسة وانصرف الى النظر في امر عشيرته كأنه لم

يشهد الحروب ولم يعالج السياسات .

- وهل تظن انه يقبل بالبيعة التي نهم بها ؟

- يخيل إلي انه يقبل فمهد علي قد انقضى الآن ، ولم يبق إلا أن يخضع لأمير

المؤمنين ، خضوعاً لآرياء فيه . - وهل يجب زياداً ؟
 - لا أراه كثيراً في قصر زياد ولكني أعلم انه ليس بين الاثنين جفاء .
 قال : احفظوا منزلته فالخلافة تحتاج الى مثله .
 - إذا أراد أمير المؤمنين ان يكتب الى زياد شيئاً من هذا فليفعل .
 - نوصيك بان تقول له ذلك وهذا يكفي وليذكر زياد دائماً ما أمرناك بان
 نقوله له ... وهو يعني أمر المبايعه .
 وكانت ساعة الصلاة قد أتت ، فصلى عبيد معه ثم سأله ان يأذن له في
 الرجوع ، ففعل . وقد علم معاوية ان البصرة والكوفة ستسبقان الأقاليم كلها الى
 الاعتراف بيزيد ولياً للمهد .



١٨

مر من السنة السادسة والأربعين نصفها ، وابن أثال يفكر في القضاء على عبد
 الرحمن ، والأمر لا يتم له . وكان يدخل القصر ، ويظهر الاخلاص والوفاء ،
 لذلك الرجل الكبير البريء ، الذي حكم عليه معاوية بالموت . ! حتى أصبح عبد
 الرحمن يوماً وهو محموم ، ولم تكن حباه ضيفاً ثقيلاً ، بل كانت حمى خفيفة
 الظل ، تجيء عند الصباح ، وترحل في صباح اليوم الثاني .
 ولكن اهل بيته وغلماؤه ، أحاطوه بالعناية ، وجعلوا يعالجونه بما يعلمون ،
 وبما يشير به الأطباء . وعرف ابن أثال ، كما عرف الناس ، فاقبل الى غلام لعبد
 الرحمن ، يسأله عن مولاه ، والههم ظاهر في عينيه ...
 فخبّره الغلام بأمره ، فقال : سيفنيه الله غداً في مثل هذه الساعة ..
 - ومن اين لك ان تعلم ذلك ؟
 - أعطيك دواء تسقيه إياه في أول الليل فيستسلم بعد ساعة الى نوم لذيذ
 هادئ لاتزعجه فيه الآلام والأحلام ..

- وأقول له إن هذا الدواء مرسل منك ؟
- بل تقول ان طبيباً عربياً اعطاك إياه . — لماذا ؟
- لأنني لست من الأطباء وقد يظن مولاك اني لا أحسن وصف العلاج فلا يأخذه منك .. — وأنت واثق بان حماه ستزول ؟
- أثق بذلك كما أثق بأنك من الأوفياء .
- قال : لقد فكرت في أمر هو أن أرى خالد ابن مولاي فأعطيته دواءك وهو يتولى أمر أبيه .. فابتسم قائلاً : إذا فعلت ذلك قتلت عبد الرحمن .
- وكيف أقتله ؟
- إن ابنه خالد لا يحبني فهو يحول عني وجهه كلما وقعت العين على العين وأنا لا أدري لماذا ، فإذا حدثته بأمر العلاج قذف به الى الخارج فتقتل الحمى أباه قبل أن يبرز الفجر .
- إذن أتولى الأمر بنفسي ويفعل الله مايشاء .. ولكن عد اليّ عند المساء ..
- سأفعل عندما يحين الليل .
- فانصرف وهو يقول في نفسه : إذا صدق الغلام مات الأمير الليلة فالسم الذي وضعته له لا يجب المزاح . وعندما سدل الليل ستاره ، رجع الى القصر وقال للفتى : تستطيع أن تفعل الآن .
- فمضى الغلام ، وذلك الدواء القاتل في كفه ، حتى انتهى الى حجرة عبد الرحمن ، وفيها سراج ينظر الأمير الى نوره الضعيف .
- فقال : كيف أمسيت يا مولاي ؟
- كما ترى ، إن هذه الحمى تعودت أن تزورني كل اسبوع او كل شهر وأنا في بلاد الروم دون ان أبالي بها او اهتم لأمرها .. أين ولدي خالد ؟
- خرج الى المسجد وسيعود .
- ومد يده فأخرج الدواء ، فقال الأمير : ما هذا ؟
- انه دواء طبيب . قال : لا تذكر لي هؤلاء الأطباء فأنا لا أثق بنباتهم .
- ولكنه دواء شاف تهرب الحمى منه بعد ساعة .

- بل تهرب العافية .. خذه فلا حاجة لي اليه .
 - استحلحك بالله يا مولاي أن تشربه فأنا واثق بأنك ستغادر فراشك عند الصباح .. - من يعلم فقد أغادر هذه الدنيا وأسير الى الله ...
 فليج الغلام في الطلب حتى لان الأمير ، فقال : أعطني إياه .
 واستوى جالساً ، ثم وضع الوعاء على شفتيه وجرع ما فيه جرعة واحدة ثم استلقى وهو يقول : إنه شديد المرارة فاسقني ماء .
 فسقاه ، وقد قام في ذهنه ، أن دواءه المرّ سيترد الحمى القاسية . وأغمض عبد الرحمن عينيه . ليمزق السم امعاءه بهدوء .
 فخرج الغلام وخبر ابن أثال فقال : قضي الأمر وسينام مولانا نومه الهاديء .
 وبعد ساعة ، رجع آل عبد الرحمن وبينهم ولده خالد . وكان الأمير يقىء ما في جوفه ، وقد عقد السم لسانه فهو يتملقل متألماً ويوميء الى أحشائه التي تلتهب .
 فذعر القوم ، ولكن هذا الذعر ما لبث حتى أمسى لوعة .. فقد لفظ الأمير روحه دون أن يكون هنالك من يعلم ، أن ابن أثال أرسل اليه الموت ، في وعاء ..
 وبكت العيون عبد الرحمن ، ورتته حمص ذليلة مفجوعة وكانت تعلم انها تبكي بطلا له ولأبيه الأثر الذي لا يبلى ، وذكره يلاً بلاد الروم .
 ولو نظرت الى الصفوف التي شيعت جثة القائد الى القبر ، لرأيت بينها ابن أثال ، وفي عينيه دموع كاذبة قد تجدها في عيون بعض المجرمين .
 وبلغ النمي معاوية ، فقال لمن حوله : لقد خسرت الدولة اليوم ، بطلاً من أبطالها ، ورجلاً من أعظم الرجال .
 ثم قال لسرجون : ول ابن أثال خراج حمص ..
 ثم دار الزمان ، فباح غلام عبد الرحمن بسر الدواء ، وتحدث القوم من وراء الجدران قائلين : هذه ضربة معاوية ...
 وسكت خالد ابن القتيل ، على غلّ . ثم رأى ان يسير الى الحجاز لغرض له ،
 فبينما هو في المدينة ، أقبل عروة بن الزبير ، اخو عبد الله بن الزبير فقال له .
 ما فعل ابن أثال ؟ فركب ناقته دون ان يقول كلمة ورجع الى حمص .

ومشى في صباح يوم الى دار الخراج ، وابن أثال فيها ، يوصي الجبابة ، ويقبض الأموال ، والعلمان بين يديه ، وخالد متقلد سيفه وعيناه ترسلان النار ..

فدخل خالد فقال : يا ابن أثال .. ذكرت دواءك ... !

فتراجع الجاني الى الوراء وهو يقول : اي دواء هذا ؟!

— ذلك الذي دفعته الى غلام ابني ليسقيه إياه ..

قال : لا أذكر أنني سقيت أباك شيئاً .

— ولكن أهل حمص يذكرون ذلك كما يذكره أهل الحجاز ..

وجرد سيفه قائلاً : لقد جئت الآن ادفع ثمنه كي لا يقال ان حفيد خالد بن

الوليد بطل الاسلام ، لم يدفع ثمن دواء عولج به أبوه .. فاستغاث الرجل بمن في

الدار ، ولكن سيف خالد ، برى عنقه ، قبل أن يجتمع القوم وتمتد الأيدي ..

فصاح الناس : قتل القائم على خراج حمص ، قتل ابن أثال ..

على أن خالد لم يبال ، بل أعمد سيفه المخضب بالدم ، والتفت الى القوم قائلاً :

ابن رجال الشرطة ، إني مستسلم .

فقبضوا عليه وحملوا الى دمشق .

فلما قيل لمعاوية ، ان ابن أثال قتل ، وقاتله ابن عبد الرحمن ، أمر بخالد فوضع

في السجن ، ولم يرد ان يأذن له في المثول بين يديه ، خوفاً من أن يسمع

ما لا يجب .

ولكن أيام سجنه لم تطل ، فقد شفع له بعض الخاصة فيه الى معاوية ، فخلّس

سبيله ، بعد ان غرّمه دية القتل . ورجع خالد الى المدينة فلقبه عروة بن الزبير

لأعاده عليه قوله الأول : ما فعل ابن أثال ؟ .

قال لقد كفيتك ابن أثال ولكن ما فعل ابن جرموز ؟ .

« وابن جرموز ، هو قاتل الزبير والد عروة ، يوم فرّ من واقعة الجمل ،

لصكت عروة ولم يجب .

وعاد خالد الى حمص ، وهو يرى ان الابتعاد عن معاوية خير له من الدنو منه .

لم يكن في الستين ، السابعة والأربعين ، والثامنة والأربعين ما يستحق الذكر .
فلما أقبلت السنة التاسعة والأربعون ، فكر معاوية في أمر خطير لا يفكر
فيه غير الفاتحين أصحاب المطامع ، الذين يريدون ان يخضعوا العالم
لمشيئتهم الجبارة ..

رأى هذا الشرق يدين له ، مصر والشام والعراق وفارس وخراسان وبلاد
العرب فلم يبق إلا أن يمد يده الى الغرب .

يفتح بابه ثم يدفع جيشه الى الداخل فيقتل ويسبي ويهدم ويستولي على
كل شيء ..

اجل ، فكر معاوية في أن يغزو بلاد الروم ، غزوة لم يسبقه اليها مسلم حتى
يضرب الجند خيامه ، وراء اسوار القسطنطينية ، عاصمة الامبراطور الغربي وهي
فكرة خطيرة لا تحظر إلا للعظماء من الرجال الذين ليس لطموحهم حد .

يغزو الروم في البر والبحر ، حتى يستسلموا اليه ، ثم يبني وراء عاصمتهم
القوية ملكاً جديداً واسع الارحاء .

واذا استطاع معاوية ، أن يخلف ملك الروم على عرشه ، سماه العالم ملك
الملوك وسليمان الشرق والغرب .

وماذا يبقى ، اذا تم لابن ابي سفيان هذا الامر الذي يفكر فيه ؟ لا يبقى إلا
أن يعصب رأسه بالتاجين ويقول : انا رجل الدنيا .. انا سيد الخافقين .. !
وحسب العرب أن يخلق لهم معاوية هذا العز الذي لا تزول آثاره .

واذا فكر معاوية في أمر ، قذف بفكرته الى الاقطار ، يدعو اليها الناس .
ويعقد لها مجالس الشورى ، ثم يأمر ، فتخرج هذه الفكرة الى العالم بثوبها الرائع
الجذاب . نعم ، ذلك كان شأن الخليفة الاموي الاول ، يمضي في امره الى النهاية ،
حتى اذا خافه الحظ وضاعت خبرته ودهاؤه ، نسي الماضي كأنه لم يكن ،
وانصرف الى اختراع الشيء الجديد ، يقضي به مطامع نفسه .

قضى ثلاثة اشهر ، وهو يدرس مع خاصته ووزرائه حال الروم ، ويقفيس هذه الغزوة بالطول والعرض ، ليكون النصر حليفاً له ، حتى نضجت الفكرة وملأت نفسه ، فقال : لينتقل احدكم بالفكر الى مصر ، والآخر الى العراق ، والآخر الى فارس ، واتركوا لنا بلاد الشام ..

قالوا : لقد فعلنا . قال : اختاروا الآن القائد الاكبر ، لهذا الجيش الذي سلّمت به .

فجعلوا يستعرضون الاسماء ، ولكنهم لم يعثروا على ذلك الرجل العظيم الذي يصلح لمثل هذه القيادة . وساد الصمت ساعة ، فرفع صوته قائلاً : ما رأيكم في سفيان بن عوف ؟

وسفيان رجل السيف ، وداهية الحرب . فقالوا جميعهم : سفيان بن عوف . - وما رأيكم في ولدنا يزيد ؟

فظن القوم أنه يريد أن يجعله من القواد ، فقال زرارة الكلابي وهو شيخ : ليس يزيد من رجال السيف يا امير المؤمنين .

- ولكن يجب أن يكون منهم ، فلا خير في عربي لا يعمد الى سيفه اذا اكرهته الحادثات ... - ويطيب لأمير المؤمنين أن يجعله من القواد ؟

- لا ، بل يكون جندياً غازياً ، يقاتل كما يقاتل فتيان العرب ، ويفعل ما يفعلون . وكان سعد رئيس حجابيه حاضراً فقال له : ليحضر يزيد يا سعد .

قال : رأيته خارجاً من الخضراء يا امير المؤمنين . - متى كان ذلك ؟ - هذا الصباح . - انظر فقد يكون في الجناح الذي يطل على السور .

فانصرف سعد ثم رجع قائلاً : سألت الغلمان فقالوا انه لم يعد .

قال : تركب الساعة الى الغوطة فتقول له : ان امير المؤمنين يدعوك اليه ، اسمع .. يجب ان ترجع الينا وانت وراعه .

- سأنتقل اليه امرك يا امير المؤمنين ثم انتظر امره ..

- يكفي ان تنتقل اليه امرنا فيجيء ، ثم قال : ان سفيان بن عوف في منزله على النهر ، فقل له ان يحضر .

وما هي إلا ساعة حتى جاء سفيان ، وكان يعلم ان معاوية سيسأله رأيه في غزو الروم .

وقد حدثه غير مرة ، بأمر هذا الغزو فلما رآه قال :
 ياسفيان بن عوف ، لقد انتهى الآن ، ذلك الأمر الذي حدثناك به من قبل .
 - أي امر هذا يا امير المؤمنين ؟
 - امر الجيش الذي سلبت به ليزور قيصر .
 - وعولت على إرساله في البر والبحر ؟
 - أجل سنملأ البحر سفناً ، والبر رجالاً حتى يخضع الروم ويتخلوا لنا عن القسطنطينية ، او يدفعوا الجزية ..

قال : لا يعلم غير الله الى اي بلد تنتهي خيل امير المؤمنين اذا فتحت عاصمة الروم .. - ولا يعلم غير الله في اي قضاء يخفق العلم العربي ..
 إن امر الفتح ، يعود الى البطل المحرب ، الذي نوليه قيادة الجيش والى اولئك القواد الذين سيكونون اعواناً له ، والى الجيش الظافر خواض الغمرات ..
 فقال للوزراء : أتذكرون لابن عوف اسم القائد الأكبر الذي اخترتموه .
 فقال سرجون : أنا اعلم لماذا يريد امير المؤمنين ان يذكر لابن عوف اسم القائد الذي اختاره ..

- لماذا ؟ - لأنك تخاف ان لا يحارب ابن عوف تحت لوائه ...
 فضحك قائلاً : بل نذكره له ليشاركنا في الرأي . لقد اخترنا ياسفيان رجلاً من أحب الناس لنا وأصدقهم في خدمة الاسلام هو انت . - انا يا مولاي ؟
 - اجل ، وقد أجمع رجال الدولة ، على ان تحمل لواء العرب خفاقاً في البر والبحر ، وترفعه فوق اسوار مدينة القياصرة ..
 - ولكنني أعجز عن هذا يا امير المؤمنين .

- بل انت ذلك الرجل الذي يشرف قومه في جميع الميادين ، ويخضع لعرش الخلافة ، اولئك الذين سادوا هذا الشرق من قبل ، وبنو لأمتهم مجدداً نراه بالعيون ونلمسه بالأيدي .. قال : هنالك بحر يا مولاي لا يستطيع ان اخمد ثورته ..

قال : تعود البحر منذ القديم ، انت تخضع للأبطال الذين لا يبالون بالموت ، ولا يخافون امواجه ! . — وعدد الجيش يا امير المؤمنين ؟

— لك ان تجعل هذا الجيش اربعين او خمسين ألفاً فالأمر راجع اليك ، وان الرجال قد تهاأت لحمل السيف .. — ومن تبعث معي من الامراء ؟

تخرج فيخرج معك يزيد ، وجميع القواد الذين خبروا الحرب ، ثم يلحق بك ابن عباس ، وابن الزبير ، وابن عمر ، وأبو ايوب الانصاري ، وغيرهم من رجال الاسلام ، وجمل يحدته ويطمعه بالفتح ، حتى قدم يزيد ، فقال له أبوه : ألا يطيب لك أن تقاتل الروم في هذا العام .

فظهر التردد في عينيه ثم قال : يطيب لي ما يطيب لأمير المؤمنين .
قال : لقد جعلنا سفيان بن عوف قائداً للجيش ، وجعلناك انت ، مع الأمراء رجال الحرب والبأس ، اعواناً له ، فكن ذلك الرجل الذي يعلم ، انه يقاتل في سبيل العرب .

فحنى رأسه وجعل يقول : سأكون صادقاً في القتال كما انا صادق في الطاعة ..
وكان يقول في نفسه : سأرجع من ارض الروم قبل أن تتلاحم السيوف ...
وكان سفيان يحدث زرارة الكلابي . ولزرارة ولد يدعى عبد العزيز هو فارس من فرسان العرب البواسل ، الذين يقتحمون الصفوف بصدر الخيل .
فقال سفيان لمعاوية : اطلب اليك أمراً يا مولاي .

— اطلب ما تشاء . قال : أسألك ان تجعل علي الخيل عبد العزيز بن زرارة .
فقال ولم يتردد : لقد جعلناه دون أن نسألك لماذا .

— اما أنا فأقول لأمير المؤمنين ما لم تسألني عنه ، إني أخشى ان يمتد زمن الحرب إذا لم يسعها عبد العزيز ..

— وهذا الزمن سيطول يا سفيان ، أتظن ان أمر القسطنطينية ينتهي في عام .

— من يعلم فقد تسقط الاسوار بعد حصار شهر ! وقد يعجز الجيش عن الفتح ليعتدوا مذكوراً بعد سنة ..

- اما نحن فنرضى بان تسمي القسطنطينية ملكاً للإسلام بعد خمسة أعوام ..
 بل بعد عشرين عاماً . - النصر بيد الله يا امير المؤمنين .
 - أجل وستسيرون على بركة الله .. اكتب يا سرجون الى جميع العمال ليعثوا
 بالرجال وليتعجلوا في ذلك .. واكتب الى ابي ايوب ، وابن الزبير ، وابن عمر ،
 وابن عباس ليتجهوا للسفر عندما يرد عليهم أمر آخر ..
 ثم قال ليزيد : أما انت يا بني ، فأعدّ العدة ، وهذا زرارة يقول لولده عبد
 العزيز ان ينظر في امر الخيل وفرسانها منذ الآن .
 وأوما اليهم بالانصراف ، وقد قام في ذهنه ، ان القسطنطينية ستدين له ..



٢٠

مشى الجيش العربي ، بقيادة سفيان بن عوف ، لا يبالي بالمدن الصغيرة التي
 تطأها حوافر خيله ، بل كان ينظر ، وهو في البر والبحر ، الى تلك المدينة
 الجبارة ، مدينة قسطنطين الاكبر ، وعاصمة الرومان الشرقية ، نظرات تتفقد
 فيها نار المطامع والشهوات .
 مشى ، ويزيد وراءه ، يسير متثاقلاً على مهل ، كأنه لا يريد ان تحتجب بلاد
 الشام ، عن عينيه . وانك لترى ، في كل جيش ، طوائف كثيرة ، تمشي الى
 الحرب ، كما يمشي المجرم الجبان الى الموت ..
 اجل ، ان الجيوش كلها ، في كل زمان ومكان ، فئتان ، في صدر الاولى عقيدة
 راسخة وإيمان ، وتتردد في صدر الاخرى عاطفة خوف هو خوف الدليل الجبان .
 ذلك كان شأن الجيش العظيم الزاحف الى بلاد الروم ، وقد يكون المترددون
 في المسير شيء من العذر .
 إن الطريق طويل وعمر المسلك ، ومخاطر المرض والجوع تحيط بهم من النواحي
 الاربع ، وبينهم وبين بلاد العرب ، أودية وأنهار ، وسهول وجبال .

فلما أمعنوا في البلاد ، وعرضت لهم المصائب والتجاريب ، حين يزيد واعتلّ ، لم تراجع عن الجند لا يريد اللحاق به ، إلى بقاء يكن فيها الخطر ، بل لا يريد أن يموت في أرض بعيدة عن الشام .

وعين معاوية ، وهو في الخضراء ، ترى جيشه وهو في بلاد عدوه ، كأنه بين الصفوف ! . رسل سفيان تروح وتجيء ، ورسل معاوية تروح وتجيء وبين الاثنين يريد دائم من الرجال ، ينقل الاخبار .

وقد انتهى إلى أمير المؤمنين ، أن الجيش يسير إلى الامام وولده الذي يريد أن يجعله خليفة بعده ، يتراجع إلى الوراء ، فأمسك عنه زمناً ، عندما بلغه ان الناس أصابهم مرض وجوع .

ولكن نقلوا إليه بعد ذلك ان ولده يقول :

يا ان ابالي بما لاقت جموعهم بالفرقدونة من حمى ومن موم
إذا اتكأت على الانماط مرتفعاً بدير مرآت عندي ام كلثوم
« الموم الجدري ، وام كلثوم زوجة يزيد وهي ابنة عبد الله بن عامر » .

فلما بلغه شعر يزيد ، كتب إليه يأمره بان يلحق بسفيان ، وأمر في الوقت نفسه ، أبا ايوب الأنصاري ، وابن عباس ، وابن الزبير ، وابن عمر ، بان ينضموا إليه .

فرأى يزيد أن السفر لا بد منه ، فحشى عندئذ كما يمشي الغزاة وركبت السفن طوائف من الجيش ، على أمل اللقاء عند أسوار القسطنطينية . ونحن الآن عند هذه الأسوار ، وقد عبرت سفن المسلمين « الدردنيل ومرمر » دون ان يعرض لها شيء ، حتى رست غربي المدينة وراء السور ، في مكان يقال له « السبع قلاع » .

وبين السور والمدينة « القديمة » سبعة أميال وقد نزل الجيش العربي البر ، بعدته وأثقاله ، وترك اسطوله راسياً في المكان الذي انتهى إليه . والسور ، بناء هائل ضخيم ، لم ير المسلمون في حروبهم وفتوحهم أعظم منه . والروم في المدينة ، متحدون أقوياء ، وعندهم جند يحمي الأسوار ، ويدفع

الأعداء على رأسه جماعة من القواد الذين شهدوا حروب الاسلام في بلاد الشام . وما هي الحرب بين جيشين ، أحدهما في أبراجه ، وفوق اسواره والآخر مكشوف في السهل لا يرى امامه غير الحجر الصلد يمنعه من اقتحام الصفوف ؟ . إنها حرب نبال ونار ، يترامى بها الجيشان ويمر الزمان وهذه النبال لا تتخلق ظفراً ، ولا تشفي الغليل . نعم ظل سفيان بن عوف وجيشه أشهراً ، يرمون الروم والروم يرمونهم فيصيب المسلمون واحداً عندما يصيب الروم عشرة حتى احترق الكثير من خيام المسلمين ، وقتلت منهم الجماعات . وحتى قلّ الزاد في المعسكر العربي وهدده الجوع .

فبعث سفيان سفنه تغزو الشواطىء وتحمل منها الطعام . وكانوا قد جعلوا جزيرة في آسيا الصغرى تدعى « كيزيكوس » ، « Cyzicus » بيتاً لمؤونتهم وقد ظنوا بعضهم جزيرة أرواد التي فتحها معاوية على رأي « كتاب خطط الشام » في السنة الثالثة لعثمان بن عفان وفي السنة الرابعة والخمسين على رأي معظم المؤرخين .

أما نحن فلا نرى ما رآه بعضهم لأننا لانستطيع أن نتصور ان الجيش العربي الذي يحارب الروم في القسطنطينية يجعل أرواد وهي بعيدة عنه بيتاً لمؤونته . وقد رأت الروم أن عدوهم أضعف من أن يفتح المدينة ، فطمعوا وكاموا يخرجون للقائهم وجهاً لوجه ، وتدور رحى القتال فيحصد السيف العشرات من الجيشين .

وعبد العزيز بن زرارة الكلابي قائد الخيل يتعرض للشهادة فلا يقاتل وكان يقول :

قد عشت في الدهر أطواراً على طرق شتى فصادفت منها اللين والبشعا
كلا بلوت فلا النعفاء تبطرني ولا تحشعت من لأوائها جزعا
لا يملأ الأمر صدري قبل موقعه ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا
فبينما هو يقاتل يوماً ، وقد اقتحم الخيل ، امتدت اليه الرماح من كل ناحية . فقتل ، وبلغ خبر قتله معاوية ، فقال لأبيه : يا زرارة ، هلك والله فتى العرب .

فقال وهو هادئ : ابني أو ابنك ؟

قال : ابنك ، أحسن الله جزاءك وجزاءه .

فارتجت شفتاه قليلاً ثم أنشد بيتين من الشعر أحدهما :

فكل فتى شارب كأسه فإما صغيراً وإما كبيراً !!

ودنا الشتاء ، فلجأ المسلمون الى الاسطول ، ثم أتوا هذه الجزيرة التي ذكرت
حتى عاد الصيف فعادوا ...

وجعلوا يهاجمون الاسوار كل صيف ، ويرجمون عنها كل شتاء ، حتى مرت
سنة اعوام ، والنجدة من معاوية تتبع النجدة ، وهم لا يلقون في الهجوم والرجوع
غير المرض والضيق والجهد .

وكان ابو ايوب الانصاري قد قتل ، وقد اضطرب لمقتله المعسكر كله ،
وشيعته الصفوف بالخشوع واللوعة ، وعيون الروم تنظر اليهم من العلاء .

وأبو ايوب من الانصار اهل المدينة ، وله صحة وجهاد ، شايح علياً وكان من
البايعه المجاهدين في الدفاع عن الاسلام .

وقد دفن في ذلك المكان ، وظل قبره مجهولاً زهاء ثمانية اجيال ، حتى وجده
السلطان العثماني محمد الفاتح يوم حاصر القسطنطينية وفتحها سنة ١٤٥٣ للمسيح ،
فبنى له جامعاً يزوره المسلمون بالاحترام والاحلال .

وقد قتل من الجيش العربي ثلاثون ألفاً ، فترجعوا والكآبة تملأ الصدور وتنفس
الروم الصعداء ، بعد ذلك الصراع الطويل العمر ، وبعد الحروب القاتلة التي
خسروا فيها الشرق .

على أن الامبراطور الروماني ، كان حكيماً ، فبعث الى دمشق رجلاً من
مستشاريه الامناء ، يعرض على معاوية النظر في امر الصلح ، أو الهدنة ، كما يقولون ،
ويسأله باسم مولاه أن يكتب عهداً في ذلك . فهش له معاوية ورحب به ، وأمر
وزرائه من وراء الستار بأن يقولوا له : إن امير المؤمنين لا يكف عن الغزو حتى
يرى دليلاً واحداً من دلائل الخضوع . وهي فرصة يفتنمها معاوية على عادته .

وكان السفير الروماني ، من أولئك السياسيين اصحاب المرونة والدهاء . وقد

فوض اليه مولاه أن يفعل ما يظيب له .

وقد عرف أن الخليفة يريد أن يفرض على الروم شيئاً من الجزية .

وهذا هو دليل الخضوع . ولكن هذا الخليفة لم يكن ظافراً ليملي ارادته على الامبراطور ، ومع ذلك فقد رأى أن التسليم بما يريده معاوية خير من حرب دائمة تضعف معها الدولة وتخور بعدها القوى .

فلما عقد الخليفة مجلسه من رجال قریش وأبدى كل واحد من هؤلاء رأيه تم الاتفاق على هدنة عمرها ثلاثون سنة لا تسمر فيها نار حرب بين الدولتين ولا يشهر فيها سيف .

وفرض على الروم خمسين قرساً من جياذ الخيل وخمسين مملوكاً وثلاثة آلاف قطعة من الذهب كل عام .

وأنت ترى أن معاوية وإن خسر في الحرب شيئاً من المال وطوائف من الرجال فقد ظفر في السلم ظفراً معنوياً يحفظ هبة الاسلام والخلافة بين الرومان . وبعد أن كتب العهد انمحت من ذهن معاوية صورة القسطنطينية واكتفى بما قسم له الله من ملك فسيح الجوانب وعز لم ترَ روما مثله .

٢١

بعد أن تخلى الحسن بن علي عن الخلافة أقام بالمدينة لا ينقل منها قدماً .

وكان مطلقاً وقد تزوج الكثير من النساء بينهن جعدة بنت الاشعث بن قيس الكندي . ويظهر أن جعدة كانت تكره أن يتخلى زوجها عن حقه ، وكانت تحب أن تتحدث العرب بأمرها فتقول : زوجة امير المؤمنين !

وقد يكون هنالك شيء آخر هو أنها لم تكن تحب الزوج المتردد الذي يتزوج اليوم ثم يطلق بعد ايام .

وتستطيع أن تقول أن حياتها مع الحسن لم تكن حياة هدوء وحب وليس

لك أن تعرف السبب في ذلك . وكان معاوية يزيد اللذان لا يغفلان عن شيء ،
 يعرفان هذا ، ويكثران من السؤال عن الاسباب ، حتى ليظن الحجازي الذي
 بسلانه ، أن للثنين غاية من وراء السؤال .
 أجل ، كانت هنالك غاية عرفها القارىء من حكاية معاوية وعبد الرحمن
 صاحب حص .

أحب الناس عبد الرحمن فخاف معاوية أن ينازعه العرش ، وتغلى الحسن عن
 الخلافة ، فمال اليه بعض من في الحجاز ، فخافه معاوية على العرش نفسه ، وجعل
 يكر في أن يمثل في المدينة ، ذلك الدور الذي مثله في حص ابن أثال .
 والسم . إن السم سلاح الملوك الخفي ، يقضي على عدوهم وهو في فراشه ، دون
 أن يخلق قتالاً أو يحدث ثورة ..

هذا ابن أثال ، وعده معاوية بأن يوليه خراج حص ، فقتل ، وهذه جمعة
 بلغت الأشعث يتولى يزيد بن معاوية أمرها فتساعده الاقدار .
 أرسل إليها رجلاً من خاصته يقول : أي شيء أحب إليك ، البقاء مع الحسن
 أم الانتقال الى الحضراء وأنت زوجة يزيد ابن امير المؤمنين ؟ فترددت قليلاً ثم
 قالت : يزيد خير لي .

قال : ولكن الامر يحتاج الى القليل من الجرأة .
 - أما الجرأة فعندي منها الشيء الكثير .. ماذا يريد يزيد ؟
 - يريد أن تقتلي الحسن وهو يمدك بالزواج إن فعلت ! قالت : بالسيف ؟
 - بل بالسم ، ولا تمر ثلاثة ايام على دفن الحسن حتى تحملك الهوادج المذهبة
 الى دمشق . - وبقي أنت هنا ؟ - اذا قلت لا ، مشيت الليلة راجعاً الى
 الشام ، وإن قلت نعم ، بقيت في المدينة حتى ارى الحسن محمولاً على نعش ...
 قالت : سأفعل فابق .

- ومتى يكون ذلك ؟ - بعد بضعة ايام .
 فالنصف الرجل الى بيت نزل فيه .
 وبينما هو في السوق ، بعد اربعة ايام ، سمع الناس يقولون : الحسن بن علي في

خطر وهو يوصي ! ثم سمعهم بعد غروب الشمس يقولون . مات الحسن ووصوا بأن يدفن عند جده رسول الله .

وكان معاوية قد عزل مروان بن الحكم عن المدينة وولى سعيد بن العاص فلما أراد القوم في اليوم الثاني أن يدفنوا ابن علي عند النبي تصدى لهم مروان ومعه فريق من بني أمية ومنعهم من ذلك .

ولكن الحسين أراد أن يدفنه بالقوة فقبل له : إن أخاك قال قبل موته : إذا خفتم الفتنة فادفوني في مقابر المسلمين .

فسكت ، وصلى عليه سعيد بن العاص ، ثم دفن .

فلما بلغ معاوية خبر موته خرَّ ساجداً ، فقال بعض الشعراء :

اصبح اليوم ابن هند شامتاً ظاهر النخوة إذ مات الحسن

يا ابن هند إن تذق كأس الردى تك في الدهر كشيء لم يكن

لست بالباقي فلا تشمت به كل حي للنأي مرتين

وأرسلت جعدة بنت الاشعث تطلب الى يزيد أن يفي بوعد فأبى فبك.

حظها وندمت ولكن بعد أن مر الزمان .



٢٢

خلا الجو لمعاوية من هذه الناحية ، ناحية العرش ..

على أن خوفه من الرجلين اللذين صرعاها السم ، كان وهماً صورته له مخيلاً .

التي هي مخيلة السلطان الخائف على تاجه .

‘قتل الحسن ، وقتل عبد الرحمن .. وحلال’ عند معاوية ، قتل كل راء

يخطر له أنه طامع بمقعد الخلافة الذي خلق له وحده .. !

وليس هنالك ما يمنع معاوية من ذلك ، فالعرش قبل كل شيء ، ومن الضم

أن يتردد في الدفاع عنه .. وهو العرش الذي سالت دماء الناس حوله ، وحار

من أجله ابن عم النبي . والقدر ؟. أما القدر فقد ساعده في أمره وكان عبداً للأحلامه وأمانيه ..

هذا الحسن وعبد الرحمن ، قتلها السم دون أن يرتفع لقومها صوت وهذا المغيرة بن شعبة ، طواه الموت ، وهو في الكوفة ، قبل أن يبعد صيت حجر بن هدي ويشتد ساعده .. أجل كان بهم بعزل المغيرة فتمنعه سياسة « البيعة » من ذلك ، وكان بهم بقتل حجر ، فتعرض له بالفكر ، صورة قومه بني كندة ، حاملين السيف ، وخارجين على الخلافة . حتى مد هذا القدر يده الى المغيرة لمعاه من الوجود ، فلم يبق ، نعم لم يبق إلا أن ينظر معاوية ، من جديد ، في أمر حجر الذي يلعن عثمان والناس يسمعون ..

وليس أسهل من أمر حجر ، بعد موت المغيرة ...

إن زياداً حيّ ، وهو الوالي السفاح البطاش ، الذي يخضب يديه كل يوم بدماء الأبرياء !

نعمي أمير الكوفة الى أمير المؤمنين في السنة الحسین ، فاطمأنت نفسه ، وكتب الى زياد يقول له : جمعنا لك الولايتين ، فاستخلف على البصرة من تشاء ، وارحل الى الكوفة قبل أن يفسد علينا أمرها ، أصحاب علي . فاختر البصرة سمرة بن جندب ، وهو اخوه ، في العنف ، والقسوة والجفاء .. وقال لأصحابه قبل خروجه : نقيم بينكم ستة أشهر ، ونقيم مثلها بين الكوفيين ، حتى نخمد أصوات الشيعة ، ويدب الذعر في القلوب ... ومشى الى الكوفة . فلما قدمها ، تحدث الناس فقالوا : ويلكم جاء زياد .

أما هو فأنصرف الى المسجد ، وقام خطيباً في الناس ؛

ثم ترحم على عثمان ، وأثنى على أصحابه ، ولعن قاتليه . فقيل له : إن حجراً يقول اليوم ما كان يقوله بالأمس .

فقال : مهلاً ، فسيأتي دور حجر ..

ولم يلبث حتى رجع الى البصرة لأمر عرض له ، واستخلف على الكوفة رجلاً يقال له عمرو بن حريث . وبينما عمرو يخاطب يوماً ، حصبه اصحاب حجر ، أي

رموه بالحصى .

ثم بلغه ان حجراً تجتمع اليه شيعة علي فظهر لمن معاوية والبراءة منه ،
وتسب عثمان وأصحابه . فأرسل رجلاً يخبر زياداً بما جرى . فأقبل زياد حتى
صعد المنبر ، وحمد الله ، وحجر جالس ، ثم قال :

أما بعد فان هؤلاء آمنوني واجترأوا على الله ، لئن لم تستقيموا لأداوينكم
بدوائكم ، ولست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر بن عدي ..

وأمر أحدهم بأن يدعو حجراً ، وهو بالمسجد .

فما دعاه ذلك الرجل ، قال اصحابه : ليأت زياد نفسه ..

فخبر الرسول زياداً ، فقال لصاحب شرطته ، وهو شداد بن الهيثم : علي
بالرجل الساعة ، قبل ان يخرج . فشت طائفة من الرجال تريد ان تحمل سيد كندة .

ولكنها رجعت بعد قليل وهي تقول : إن اصحاب حجر يسبون الأمير ،
فقال لأهل الكوفة : أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الأحمق ..

قالوا : ليس لنا رأي إلا طاعتك وما فيه رضاك ..

قال : ليدع كل رجل منكم عشيرته وأهله ..

ففعلوا ، فتفرق أكثر اصحاب حجر . فقال زياد عندئذ لابن الهيثم :

انطلق الآن الى حجر فان تبعك فأتني به وإلا فشدوا على اصحابه بالسيوف
حتى تحملوه .. فحمل صاحب الشرطة على القوم ، وزياد على المنبر ، وهو يرى

كل شيء . فقال احد الكنديين لحجر : ليس معك رجل يحمل سيفاً غبري ،
وما يغني سيفي .. قم فالحق بأهلك بمنعك قومك ، ويتسع لهم مجال الدفاع عنك .

فمشى هو واصحابه الى ابواب كندة ، ودافعوا دفاع اليائس حتى خرجوا
منها ، وركب حجر بغلته ، فأقى داره ، وحوله طوائف من رجال العشائر ،

إلا كندة فلم يكن منها غير بضعة رجال !! فظهرت الكتابة على وجهه ثم قال :
انصرفوا ، فلا طاقة لكم برجال زياد ، وما احب أن تهلكوا .

فخرجوا ، وخرج هو وراءهم الى دار رجل منهم يقال له سليم بن يزيد .

ولكن ابن الهيثم لحق به .

فتناول سليم سيفه ليقاتل الناس ، فبكت بناته .

قال حجر : إني اذن بين نساء ..

قال : والله لا تؤخذ من داري اسيراً او قتيلاً وانا حي ..

فلم يبال بما سمع ، بل خرج من نافذة ، في الجانب الآخر ، تطل على الحي ، ولجأ الى منزل عبد الله بن الحرث ، اخي الأشر ، فأحسن لقاءه .

وبينا هو عنده ، قيل له أن الشرط تسأل عنك .

ففرّ الى الأزد ، واستخفى في بيت ربيعة بن ناجد وأعياء القوم طلبه ..

فدعا زياد محمد بن الأشعث وقال له : والله لتأتيني به أو لأقطعن كل نخلة لك ،

واهدم دورك ، ثم لا تسلم مني حتى أضرب عنقك !

فاستسلمه ثلاثة أيام ، ثم بعث الى حجر يسأله أن يستسلم ، قبل ان تشتمل

النار في الكوفة . ونصح بعضهم لحجر بان يحقن الدماء ، فقال : لياخذ لي ابن

الأشعث ، اماناً من زياد ، حتى يبعث بي الى معاوية .

فجاء ابن الأشعث الى زياد ، ومعه جرير بن عبد الله ، وحجر بن يزيد ،

وعبد الله بن الحرث ، فاستأمنوا للرجل على ان يرسله الى دمشق فيرى امير

المؤمنين رأيه فيه .

فأجابهم الأمير الى ما طلبوه . ومثل حجر بين يدي زياد ، فلما رآه قال :

مرحباً بك يا أبا عبد الرحمن .. حرب ايام الحرب ، وحرب وقد سالم الناس ؟!

هل اهلها تجني براقش ..

قال : ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة ، وإني على بيعتي .

قال : خذوه الى السجن .

فلما خرج قال : والله لأحرصن على قطع خيط رقبتة ..

وبدأ يطلب أصحاب حجر حتى قبض على بعض الرؤساء واستخفى البعض

الأخر ، وكان رجال الفتن والشر ، يحملون الاخبار الى زياد ، حتى كان الرجل

منهم يسمى بابن عمه ...

من هؤلاء قيس بن عباد الشيباني ، الذي أقبل يقول لزياد :

ان امرءاً منا يقال له صيفي من رؤوس أصحاب حجر .
 قال : أين هو ؟ قال : أدلك على مكانه .
 فأمر زياد فأتي به ، فقال : يا عدو الله ، ما تقول في أبي تراب ؟
 « قال أبو تراب كنية علي ويقول أبو الفداء إنها كانت أحب الكنى إليه لأن
 الرسول كناه بها » .

قال : ما أعرف أبا تراب . - أتعرف علي بن أبي طالب ؟
 - نعم . قال : ذاك أبو تراب . قال : كلا ، ذاك أبو الحسن والحسين ..
 فقال صاحب الشرطة : يقول الأمير أبو تراب وتقول لا ؟ ..
 قال : فإن كذب الأمير أ كذب أنا وأشهد على باطل كما شهد ؟
 فقال زياد : وهذا أيضاً ؟ علي بالعصا .
 فحملوها إليه ، فقال : ماتقول في علي ؟
 قال : أحسن قول . قال اضربوه ..
 فضربوه حتى لصق بالأرض ، ثم قال زياد :
 كفوا عنه .. ماقولك في علي ؟
 قال : والله لو مزقتني الخناجر ما قلت فيه إلا ما سمعت مني الآن .. !!
 قال : لتلعنه أو لأضربن عنقك . قال : لا أفعل ..
 قال : ضعوا الحديد في يديه ورجليه وضموه الى اخوانه .
 ثم أمر رجاله بأن يقبضوا على عبد الله بن خليفة الطائي .
 فثار بنو طيء ، وانفذوا عبد الله .
 فقال زياد لعدي بن حاتم وهو في المسجد : أثنتي بعبد الله .
 قال : لأعلم لي بما جرى . فخبيره وأمره بأن يحمله إليه ، فقال :
 والله لا أتيك به أبداً . . أتيك بأبن عمي تقتله ؟ ! والله لو كان تحت قدمي
 ما رفعتها عنه .. قال : اقبضوا إذن على عدي ..
 فلما أخذوه الى السجن لم يبق في الكوفة سيد من سادات العرب إلا خاطب
 زياداً بأمره وكانوا يقولون : تفعل هذا بعدي بن حاتم صاحب رسول الله .

قال : أخرجه على شرط أن يخرج ابن عمه عني فلا يدخل الكوفة ما دام لي فيها سلطان .. فأمر عدي عبد الله ، بأن يلحق بجبلي طيء ، ففعل ، ثم مات المجلبين قبل موت زياد ! . وكان اصحاب حجر ، الذين قبض عليهم ، أحد عشر رجلاً .

فدعا زياد عندئذ رؤساء الأرباع ، وهم عمرو بن حريث على ربع أهل المدينة ، وخالد بن عرفة على ربع تميم وحمدان ، وقيس بن الوليد على ربع ربيعة وكندة ، وأبا بردة بن أبي موسى على ربع مذحج وأسد ، وطلب اليهم أن يشهدوا على حجر .

فشهدوا ، أن حجراً جمع الناس ، وأظهر شتم الخليفة ، ودعا الى حرب أمير المؤمنين ، وزعم أن الخلافة لا تصلح إلا لآل أبي طالب ، وترحم على علي ، ولعن عثمان .

ثم كتبوا : وإن هؤلاء الذين معه هم رؤوس اصحابه وانهم على مثل رأيه وأمره لا يخالفونه في شيء . وأقبل زياد ينظر في شهادتهم ، ثم قال : اني لأحب أن يكونوا اكثر من اربعة .

ودعا الناس فشهد منهم بضعة رجال بينهم عمرو بن سعد بن أبي وقاص ، والمنذر بن الزبير ، وعمار بن عقبة ، وغير هؤلاء . ثم دفع حجراً وأصحابه الى وائل بن حجر الحضرمي ، وكثير بن شهاب ، وأمرهما بأن يسيرا بهم الى الشام . فخرجوا حتى انتهوا الى ارض الحيرة ، فلحق بهم شريح بن هانئ ، وأعطى وائلاً كتاباً يحمله الى امير المؤمنين .

ثم ساروا حتى بلغوا مرج عذراء ، عند دمشق ، وهم اثنا عشر رجلاً ، وأتبعهم زياد برجلين آخرين هما عتبة بن الاخنس ، وسعد بن نمران . وانتهى خبر وصولهم الى معاوية ، فأرسل الى وائل بن حجر ، وكثير بن شهاب يأمرهما بالحياء اليه .

فلما دخلا عليه ، قرأ كتاب زياد ، وشهادة الشهود ...

ثم دفع اليه وائل كتاب شريح بن هانئ ، وهذا ما ورد فيه :

بلغني يا أمير المؤمنين ان زياداً كتب شهادتي ، فأرجو أن تعلم أن شهادتي هل
حجر هي هذه : إنه ممن يقيم الصلاة ويديم الحج والعمرة . ويأمر بالمعروف ،
وينهى عن المنكر . حرام الدم والمال فان شئت فاقتله وإن شئت فدعه ..

فقال معاوية : ما أرى هذا إلا قد أخرج نفسه من شهادتكم .. ليبقى القوم
الآن في مرج عذراء .. ثم أقبل من المرج عامر بن الاسود البجلي ، فقال معاوية :
ما وراءك ؟ قال : أتيت أخبر أمير المؤمنين أن زياداً أرسل رجلين اثنين من
اصحاب حجر وكنت أنا من حراسها . قال : عرفنا هذا .. وهل رأيت حجراً ؟
- نعم يا أمير المؤمنين . - وهو خائف من الموت ؟

- انه يخفي خوفه ، على ما أرى ، وراء مظاهر الهدوء وقد طلب إلي أن
ينقل اليك كلاماً . - وحفظت انت هذا الكلام ؟

- نعم ، وأنا أعيد قوله : قل لمعاوية أن دماءنا عليه حرام ، وخبره أن زياداً
قد أمنا فصالحناه ، وإننا لم نقتل احداً فيحل له قتلنا .. - ولم يقل غير هذا ؟
- لا . قال : مسكين حجر فكأنه لم يقل شيئاً .

ثم نادى حاجبه قائلاً :

ادع هدبة بن فياض ، والحسين بن عبد الله ، وأبا شريف البدي .
فأقبل الثلاثة ، فقال لهم : اذهبوا الى مرج عذراء واقتلوا حجراً وأصحابه .
فقام يزيد بن أسد البجلي فقال : أسألك يا أمير المؤمنين ان تعفو عن ابني عمي .
- من هما ؟ - عاصم بن عوف ، وورقاء بن سمي .

قال : لقد كتب جرير بن عبد الله في الرجلين يشهد لهما بالبراءة .. عفونا عنها .
وقام وائل بن حجر فشفع في الأرقم بن عبد الله الكندي . فقال :
لقد تركناه ..

وشفع ابو الأعور السلمي في عتبة بن الأخنس ، فوهبه له .
وقام حمزة بن مالك يستوهبه سعد بن نمران ، فتركه له .
وطلب اليه حبيب بن مسلمة ان يطلق عبد الله بن حوية التميمي . فقال :
ليكن ذلك .. وسمع الناس عندئذ مالك بن هبيرة السكوني يقول :

دع لي ابن عمي حجراً يا امير المؤمنين ..
قال : هو رأس القوم ، ونخاف إن خيلنا سبيله ان يفسد علينا الاقليم فنحتاج
الى ان نرسلك اليه بالعراق .. فارتجفت شقنا الرجل وجعل يقول :
والله ما أنصفتني يا معاوية .. قاتلت معك ابن عمك يوم صفين حتى ظفرت
وهلا كعبك ولم تخف الدوائر ثم سألتك ابن عمي فمنعتني ...
قالها ، وتراجع الى الرواق ، ثم خرج من الحضراء . فقال معاوية لجلاديه :
انصرفوا الآن ، وحلوا سبيل الرجال الستة الذين عفونا عنهم ، واضربوا
أهناك الآخرين . فخرجوا حتى انتهوا الى المرج ، فتقلوا خبر العفو الى اصحابه ،
لم قالوا للحجر ومن معه :
أمرنا أن نعرض عليكم لعن علي والبراءة منه .
فقال حجر : وإن فعلنا ؟ - تركناكم .. - وإن أبينا ؟ - قتلناكم ..
- إذن فالقتل أهون مما تسألون .
فأمر هذبة بن فياض فحفرت القبور .. وحملت الاكفان ..
وقام حجر ورجاله يصلون الليل كله ..
فلما كان الغد قدموم للقتل ، فقال حجر :
اتركوني اتوضأ واصلي فاني ما توضأت الا صليت ..
فتركوه فصلى . ثم اثنى وهو يقول : والله ما صليت صلاة قط أخف منها
ولولا أن تظنوا في جزعاً من الموت لاستكثرت منها ، ثم قال :
اللهم ، إنا نستعديك على امتنا ، فان اهل الكوفة شهدوا علينا ، واهل الشام
يقتلوننا أما والله لئن قتلتموني بها فاني اول فارس من المسلمين هلك في وادعها
وأول رجل من المسلمين نبخته كلابها ...
ورفع عينيه الى السماء ، وجعلت عيناه ترتجفان كأنه يخاطب الله عز وجل .
فثنى اليه هذبة بن فياض بالسيف . فارتعد ، فقال هذبة :
زعمت أنك لا تجزع من الموت ، فابراً من صاحبك ، وانت حر ..
قال : وما لي لا أجزع ، وأنا أرى قبراً محفوراً ، وكفنًا مفشوراً وسيفاً

مشهوراً .. إني ان جزعت من القتل لا أقول ما يسخط الرب ..
فضرب عنقه ، وأعناق خمسة من رجاله حتى انتهى الى عبد الرحمن بن حسان ،
وكريم بن عفيف الحثعمي . فقال الاثنان :

إبعثوا بنا الى امير المؤمنين ، فنحن نقول في علي مثلاً يقول هو . فأغمد هدبة
سيفه وقال لأحدهم . اذهب وخبر امير المؤمنين بما رأيت وسمعت .

فذهب الرجل ، ثم رجع وهو يقول : لقد أذن امير المؤمنين بإحضارها .
فلما دخلا عليه ، قال كريم بن عفيف : الله الله يا معاوية انك منقول من هذه
الدار الزائلة الى الدار الآخرة الدائمة وانت مسؤول عن هذه الدماء ..

فابتسم قائلاً : ما تقول في علي ؟ فتردد قليلاً ثم قال :

اقول فيه قولك ..

قال أتبرأ منه ؟ فسكت ..

فقام شمر بن عبد الله ، وهو من خشم ، يسأله أن يهبه له .
قال : لقد وهبناه لك على ان لا يدخل الكوفة .

ثم قال لعبد الرحمن : يا أخا ربيعة ، ما تقول في علي ؟

قال : لا تسألني فذلك خير لك ... قال : والله لا أدعك حتى تقول .

فقال : أشهد انه كان من الذاكرين الله تعالى ، ومن الآمرين بالحق ، والقائمين

بالعدل ، والعافين عن الناس .. — وما قولك في عثمان ؟

قال : هو أول من فتح أبواب الظلم وأغلق ابواب الحق !!

قال : قتلت نفسك ..

— بل إياك قتلت ، ولا ربيعة في الوادي ..

« وهو يعني أن قومه ليسوا بدمشق ليشفَعوا فيه . »

فقال معاوية : ولكن ربيعة في الكوفة .. احمِلوه الى زياد فهو يعلم أي قتله

يختارها له .. وكتب الى زياد يصف له موقف الرجل ويأمره بأن يجعله عبرة
لسواه من أنصار علي .

فلما انتهى المحكوم عليه الى الكوفة ، ومثل بين يدي اميرها السفاح اقبل

القوم من جميع العشائر والاحياء ، ليسمعوا الفاظ الرحمة ينطق بها زياد بن ابيه ...
وسمعوهم يقول : يا ابن حسان . يدعوك أمير المؤمنين الى لمن علي فتأبى وتقول
ان عثمان كان ظالماً لا يعرف الحق ؟
قال : وهل يخطر لك ولماوية اني أبيع ديني برضاه ، والعن أعظم رجل بعد
النبي ، كما فعلت أنت ؟ !

فاضطرب قائلاً : أتقول هذا لي ؟ ... أتقول أن زياداً باع دينه ؟
- نعم أقول ذلك ، والمسلمون جميعهم ، في العراق والحجاز ، واليمن ومصر ،
يعلمون أن ذلك الامام الصالح الذي تلعنونه اليوم ، هو الذي رفعك من ذل كنت
ليه الى هذا العز الذي صرت اليه ...

قال : لك ان تقول ما يطيب لك قبل أن تلفظ الروح ..
- وما هي هذه الروح يا زياد ؟ .. انها لله فان لم تذهب اليه اليوم ذهبت غداً ،
وخير الناس من يرحل عن هذه الدار ، طاهر النفس مطمئن الضمير لا يخشى ان
يلقى ربه يوم الدين . وخطى الى الامام خطوتين ثم قال :
لقد كنت يا زياد ، وانت في فارس ، من اتباع علي ، بل كنت من عبيده . فلما
اهلسم لك معاوية بعد غضبه عليك مشيت الى دمشق كما يمشي العبد الذليل ، لتجثو
هند قدميه وتعفر الجبين بتراب الهوان ، وما هي الاليلة حتى أمسيت مبشراً
بالمصائب الجالس على العرش تلعن علياً وآل علي وتستعين بالسيف لتخمد الاصوات
التي تلعن عثمان ... أجل يا زياد ، كنت أحقر رجل في الاسلام ، كما يعلم الناس .
ولكن علياً رحمة الله عليه ، اراد أن يشرفك ، فمد اليك يد الفضل فقطعت يده ،
ولكنك عهده ، وامسيت جلاداً لانصاره فبش الرجل أنت .. أنت .. زياد بن
ابيه .. نهش الاعراض ...

فأرسلت عينا زياد ، لسانين من نار ، ونهض وهو يقول لمن حوله : احموه الى
خارج القصر فقد وجدت دواء الجنونه ، وتقدهم وهو يتعجل في مشيه حتى انتهى
الى الفناء ، فوقف لحظة وهو يرتجف ، ثم خرج والناس وراءه الى الارض التي تحيط

بالقصر ، واستند الى الجدار . ثم أوماً بسوطه قائلاً :

احفروا عند الجدار قبر هذا المجنون ..

ففعّلوا ، وعبد الرحمن بن حسان ينظر الى قبره ، والابتسامة لاتفارق شفثيه ، وكأن الخوف لم يتمش في أعصابه .

ثم قال زياد : سترقد هنا ، ويرقد معك دفاعك عن علي .

— وهذا هو الامر الذي ارغب فيه .. اتعرف لماذا يزايد ؟ اني لا اطيع

الميش في ظل خليفة يؤثر دنياه على آخرته ، وظل وال ، تصبغ يديه وثيابه ، دماء الابرار من المسلمين .. ودفع حراسه ، ثم وثب الى الحفرة وهو يقول :

لم يبق الا ان تجعلوا هذا التراب غطاء لي !!

فامتدت الايدي ، بأمر زياد ، الى ذلك الفطاء الناعم ، واختفى تحته ، به لحظة ، جسم المخلص الوفي عبد الرحمن بن حسان .

وجعل زياد ينظر الى جانبيه ، كأنه يقول لانصار علي : هذا جزاء من يرفع صوته بالدفاع عن ابي تراب ، وكان الذين قتلوا ، سبعة رجال : حجر بن عدي ، وشريك بن شداد الحضرمي ، وصيفي بن فسيل الشيباني ، وقبيصة بن ضبيه ، العبسي ، ومحرز بن شهاب التميمي ، وكدام بن حيان العنزي ، وعبد الرحمن بن حسان العنزي .

وكادت الثورة تستمر نارها في دمشق ، بعد مقتل حجر ، فان مالكا بن هبيرة السكوني ، الذي سأل معاوية ان يعفو عن حجر ، لم يشأ ان يصبر على ما رآه من رفض معاوية ، فعمد الى رجاله يقول لهم : سننقذ حجراً بقوة السيف ، وركب معهم يريد مرج عذراء .

فلما كان في بعض الطريق ، لقيه الجلادون ، فقال لهم : ما وراءكم ؟

فلم يحسروا على ان يعترفوا له بما جرى ، فقالوا :

قد تاب القوم وجئنا نخبر امير المؤمنين .

فسار الى عذراء فرأى ان حجراً قد قتل .

فارسل الخيل في اثر قتلته فلم يدركوهم ، لانهم كانوا قد انتهوا الى دمشق

هبطوا امير المؤمنين ، بثورة ابن هبيرة .
فقال : انما هي حرارة يجدها مالك في نفسه ... وستطفأ .

وكان يعلم اي علاج يعالج به مالهكا . . .

حتى جن الليل فقبل له : لقد عاد مالك الى بيته .

فدها سعيداً رئيس حجابيه وقال له :

اذهب الى بيت المال وليعطك سرجون مائة الف درهم .

— وبعد ذلك ؟ — — تحملها الى مالك بن هبيرة وتقول له :

مامنع امير المؤمنين ان يعفو عن حجر ، الاخوفه من أن يشعل في الكوفة نار
الحروب فيكون في ذلك من البلاء على المسلمين ما هو اعظم من قتله .. قل له ذلك
واحفظ جوابه . فحمل سعد ذلك المال الى الرجل الثائر ، ونقل اليه كلام امير
المؤمنين فأخذ مالك المال ، وهو يقول : ان امير المؤمنين أبعد نظراً من رعيته ...
وطابت نفسه كما طابت نفس معاوية . وكانت عائشة قد بلغها خبر القبض على حجر
فارسلت الى معاوية ، عبد الرحمن بن الحرث يسأله باسمها ان يخلي سبيله وسبيل
اصحابه . فقدم عبد الرحمن وقد قتل القوم ، فقال لمعاوية :

ابن غاب عنك حلم ابي سفيان ؟!

قال : حين غاب عني مثلك من حلماء قومي .. لقد حملني زياد ابن سمية

فاحتملت ... ! وعندما بلغ الحسن البصري قتل حجر وانصاره قال :

صلو عليهم وكفونهم ودفنوم واستقبلوا بهم القبلة ؟

فقبل له : نعم . قال : حجوا ورب الكعبة .. وقال بعد ذلك :

اربع خصال كنّ في معاوية لولم تكن فيه الا واحدة منها لكانت موبقة : أخذه
الحلافة بالسيف من غير مشاورة وفي الناس بقايا الصحابة وذوو الفضيلة واستخلافه
ابنه السكير الخير الذي يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً ، وقتله
حجراً واصحاب حجر فيا ويلا له من حجر ، ويا ويلا له من أصحاب حجر . .
وكان الناس يقولون :

اول ذل دخل الكوفة ، موت الحسن بن علي ، وقتل حجر .

وقالت هند بنت زيد الانصارية ترى حجراً :

ترفع ايها القمر المنير	تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب	ليقتله كما زعم الامير
تجبرت الجبابر بعد حجر	وطاب لها الخورنق والسدير
الا يا حجر حجر بني عدي	تلقتك السلامة والسرور
اخاف عليك ما اردى عدياً	وشيخاً في دمشق له زثير
فان تهلك فكل زعيم قوم	من الدنيا الى هلك يصير

وقال حجر لاصحاب معاوية قبل ان يضربوا عنقه :

لا تطلقوا عني حديداً ، ولا تفسلوا عني دماً ، فاني لاق معاوية غداً ...

٢٣

نحن الآن في السنة الثالثة والخمسين وليس في الكوفة شيء جديد .

بلى ، كان هنالك شيء جديد ، في دار هانيء بن عروة الذي كان يغص بالناس ،

من جميع الاحياء . وكان الناس يقولون :

لقد عاد عمر بن الحجاج الزبيدي من دمشق ، ومعه فتاته التي يسمونها ، فناء الشام ... اجل ، عاد ابن الحجاج الى الكوفة ، بعد ان احتجب عنها ثلاثة عثم عاماً ، ومعه زوجته خولة ، وابنته امانة الحسناء .

وقد أعد لهم هانيء منزله ، وملأ الفرح قلب زوجته سلمى ، ابتهاجاً بشقيقتها وفتاتها الساحرة التي احببتها الحب كله .

وكانت امانة ، فتاة المحاسن كما رأيت ، وقد وهب لها الله جمالاً لاتقع المعنى على أروع منه : عينان سوداوان ذابلتان ، وثغر جذاب لاتفارقه الابتسامة البريئة ، وحديث عذب يستهوي السامعين .

انها قطعة من ذلك الجمال العربي الخلاب ، الذي تضرب به الامثال .

وكما كانت في القوطة ، بهجة بني سعد ، وهي طفلة ، هكذا امست ، في ليلة وضحاها ، بهجة الكوفة ، وحديث النساء والرجال ، في تلك المدينة الكبيرة الفاصلة بعشائر العربان . رأها قوم من ربيعة فقالوا هي لنا ، ورأها آخرون من مذبح فقالوا هي لنا ، وكان كل رجل تقع عيناه عليها يقول :

سأضم الى العشيرة ، حسناء بني زبيد !

والجمال في كل مكان وزمان ، يلفت اليه العيون ، وتحقق له القلوب ...

وقد احس ابن الحجاج ، ان جمال ابنته خلب العقول ، والاعجاب بذلك الجمال ملأ الصدور ، وان سادات العرب سيخطبونها لابنائهم ، ويسأله كل واحد منهم ان يرضى بولده ، زوجاً لها ..

وكان يحمل ، ان سلمى اخت زوجته ، وعدت مسلم بن عوسجة بان تكون امامة لولده عبد الرحمن ، ولم يكن يعلم ، الا انها اختارت لها خطيباً ، وهي طفلة . حتى ان خولة نفسها كانت تجهل ذلك ، ولم يتسع لها مجال السؤال ، عن ذلك الخطيب ، الذي كتبت اليها سلمى عنه ، وهي في الشام . على انها كانت تفكر في ذلك ، بل كانت تفكر في الفتى المجهول الذي ستجعله الاقدار زوجاً لامامة ..

وهي ترى ان ابنتها اجل حسان العراق ، كما كانت في الشام اجل حسانها ، لمن حقها ان تقيه عجباً بها ، وتمشي على مهل في اختيار الزوج الصالح اذا رأت ان الفتى الذي اختارته اختها غير أهل .

ولكنها لم تكن تريد ان تزوج امامة في هذا العمر ، بل كانت تريد ان تعلم اي فتى هو ، لتبدأ في صدرها ، تلك الفكرة التي تعرض لها ، في نهارها وليلها ، ونظير الى مستقبل الفتاة الذي تريده زاهياً زاهراً ، نظرة الرضى والاطمئنان .

وعندما تمر الاعوام ، وتبلغ امامة العشرين ، تأذن لها في الخروج من منزلها الى منزل الزوج ، على ان ترحل هي وعمرها ، الى البلد الذي تنتقل اليه ..

وليست هنالك قوة ، تستطيع ان تزوج فئاتها ، قبل العشرين ولو كان طالب الزواج امير المؤمنين .. ان امامة وحيدة أبويها وليس من الرأي ان يخسر البيت الوالدي بهجته ، في مثل هذه السرعة .

وبينما هي تهم بأن تحدث اختها بالامر ، أقبلت سلمى تقول :
 سيذهب الليلة عمرو وهانيء ، الى منزل سليمان بن صرد الخزاعي .
 — وماذا يصنعان ؟ .. — ينضمان فيه الى رجال الشيعة شيعة علي .
 — واي شيء تفعله الشيعة اليوم ؟ — انها تخاف ان يمين زياد في جوره ،
 فيسأل معاوية ان يضرب اعناق اشrafها كما فعل بحجر بن عدي .
 قالت : خبروني بأمر حجر وأنا في الشام ، وكان القوم يظنون ان النار
 ستشتعل في الكوفة .
 — ان رجال الشيعة كثار في هذا البلد ولكنهم لا يحسرون على حل السيف .
 — وهم يجمعون على مرأى من زياد ؟
 — ان زياداً يعلم كل شيء ، ولكنه لا يعرض لهم ، إلا إذا تصدوا له وأظهروا
 عثمات .

قالت : لعنه حجر فكلفه اللعن حياته ..
 — كان يفعل ذلك أيام المغيرة والمغيرة ساكت حتى جاء زياد فعمد الى السيف
 وسالت دماء الأبرياء ، في مرج عذراء . وكانت خولة تكره معاوية وتحب علياً
 وآل علي ، وقد نشأت أمانة على هذا التشيع ، وهذا الحب .
 وليس في ذلك شيء من العجب ، فها زوجة عمرو بن الحجاج وابنته ، وعمرو
 يتظاهر بحب علي والتشيع له ، وله مواقف كثيرة تشهد له انه لا يحب الخليفة
 الأموي ، المغتصب . ولكن هذه المواقف لم تكن في المسجد او الحلي ، بل كانت
 في منازل الشيعة ، داخل الجدران ..
 على أن خولة كانت مؤمنة ، بأن عمراً أصلب عوداً من سواء ، وأكثر الناس
 دفاعاً عن ذلك الإمام الصالح الذي قتله ابن ملجم عدو الله ، فقالت سلمى :
 تقولين أن رجال الشيعة يخافون أن يمين زياد في جوره ..
 — أجل . -- وهل يمنع اجتماعهم جور زياد ؟
 — لا ، ولكنهم محتاطون للأمر ، وينظرون في قضية الشيعة من جميع الوجوه .
 قالت : لي رأي أبدي لعمرو قبل أن يذهب الى منزل سليمان . — ماهو ؟

- هو أن يخرجوا من الكوفة ويظهروا أنفسهم ، فقد تنضم اليهم من المسلمين ، طوائف كثيرة ، تستطيع ان تخلع معاوية وتجعل الخلافة في بيت علي ، كما كانت من قبل !! قالت : إنه رأي يقذف بالرجال الى أتون النار . - لماذا ؟
- لأن الجيش والمال والسلطان في يد معاوية ، وعماله في كل قطر لا يعرفون الرحمة ولا يعمدون في سياسة الناس ، إلا الى السوط .
- إذن كتب لأنصار علي أن يعيشوا في خيبة دائمة .
- بل يعيشون والامل في الصدور . - وأي أمل هذا ؟
- إن معاوية جاوز السبعين ، وسيموت ... - وبعد موته ؟
- يثور الناس ، ثم يبايعون الحسين بن علي .
- وهل نسيت بني أمية وأنصارهم ؟
- لو لم يكن معاوية سيد بني أمية لما قام لهم ذكر ... انه داهية العرب وجوادها كما يقولون ، يبذل المال بدون حساب ، فيشتري به قلوب أعدائه ، فإذا خانته الحظ عالج عداوتهم بدعائه ، وعندما يرى ان الأمر ، مع الدهاء والمال ، لا يستقيم له ، يبرز الى الساحة ويدعو الناس الى حمل السيف ، ثم قالت : وليس في أمية رجل مثله ، تنحني له بعد موت معاوية ، رؤوس القوم .
- قالت : ستنحني هذه الرؤوس ليزيد .
- فابتسمت قائلة : الحمر أحب الى يزيد من الخلافة .
- ولكنني سمعت ، وأنا في الغوطة ، أن معاوية سينظر في أمر الخلافة قبل موته وسيدعو الناس الى مبايعة ابنه .
- وهذا ما تحدث به القوم في الكوفة .. على انهم كانوا يقولون انه لا يحسر على ذلك . - وماذا يخاف ؟
- يخاف الفتنة .. بل يخاف أن تخرج الخلافة من يده وهو حي .
- ونسيت الجيش والمال والسلطان ..
- لم أنس شيئاً ، ولكن الأمر الذي يهم به معاوية حدث غريب في الاسلام ، وبدعة في وراثة الملك لم يعتمد الى مثلها الخلفاء .

قالت : إن معاوية يخلق الأمر كما يشاء هواه ، ولا يبالي بأولئك الخلفاء فهو لا يذكر غير مصلحته ومصلحة العرش .. قولي يا سلمي ، أي خليفة قبل معاوية أخذ الخلافة بالسيف ؟

فسكتت قليلاً ثم قالت : ذلك زمان ما نحب أن نتحدث بما جرى فيه .
- ولكنه زمان معاوية نفسه .. إن الرجل الذي استطاع أن يأخذ الخلافة بسيفه ، يستطيع أن يحفظ هذه الخلافة لولده عندما يخطر له .

قالت : الخلافة لا تثبت في يد يزيد ، وسترين .
قالت : سيجد يزيد رجالاً يحفظونها له كما وجد أبوه رجالاً يساعده في أمره ، ويحاربون من أجله ، أحب الناس إلى النبي . وخفضت صوتها قائلة :

هذا زياد بن سمية ، لقد كان من أتباع علي المخلصين له ، فلما طوى الموت علماً بهرت عينيه عظمة الامارة ، فحنى رأسه لمعاوية حتى ولاه ، وهو اليوم يحارب إخوانه بالأمس ، ويسفك دماءهم ، ويدفنهم أحياء ... أجل ، وسيقوم غداً ، إذا مات معاوية رجال مثل زياد يبيعون دينهم بمقعد من مقاعد الحكم ويفعلون كما يفعل مستسلمين إلى يزيد استسلاماً لا تردد فيه ...

- وهل تظنين ان الله يرضى بما يصنعه هؤلاء ؟
- لا ، إنه لا يرضى ، وأنا أسأله عز وجل ، أن ينقذ الاسلام من المفسدين الظالمين .
واقبل هانئ عندئذ يقول لسلمي :

إذا جاء مسلم بن عوسجة فليلحق بنا الى منزل ابن صرد .
قالت : وعبد الرحمن ؟ - سيكون عبد الرحمن معه فهو لا يترك أباه ..
وخرج مع عمرو بن الحجاج يريدان بيت سليمان .

ولمسم صيت في العشائر ، وشهرة يتحدث بها رجال المروءة ورجال السيف في العراق ، منشأ هذه الشهرة ، حروب المسلمين في خراسان .

اجل كان مسلم فارس الهيجاء في الحروب التي ذكرت ، وأحد أولئك الرجال الذين رسخت بفضلهم قدم الاسلام في ذلك القطر .

ولم يكن اقليم خراسان وحده ميداناً لبسالته ، بل كان يقتتل ، من اقليم الى آخر حاملاً في صدره عقيدته الثابتة وایمانه الذي لاتزعزعه الحادثات ، وهو ابعد الرجال عن معاوية ، واصدقهم في وفائه لآل علي .

وبنو أسد في الكوفة ، فئتان ، احدهما مع الجالس على العرش ، وهي الفئة الكثيرة العدد ، والاخرى تشايح علياً ، من وراء الستار .

وكذلك كانت عشائر العراق ، في ذلك الزمان ، رجال العشيرة الواحدة للفرقهم السياسة ، وتفصل بينهم الاغراض ، هذا هواه في بني امية ، وهذا هواه في بني هاشم ولكن الدنيا .. الدنيا مع « الواقف » كما يقولون ، وهنالك مثل هارسي يقول :

أضف الخصوم خصوم السلطان . على ان مسلماً لم يكن في خصومته ، من رجال الثورة ، بل كان هادئاً ليناً يحترمه رؤساء العشائر ، وتميل اليه رجال الفئتين . مع أنه لم يكن من قبل ، ذلك الرجل الذي نصفه الآن .

نعم ، لم يكن يلعن عثمان ويسبّه على مسمع من الناس ، ولكنه لم يطق قط ان يسمع لعن علي . فلما مات ولده ، سعد وعبد الله ، كما مر معك في مستهل هذه الرواية ، تحت الاحزان ، الشيء الكثير من حدة نفسه ، وانقلب هواه الجامح ، الذي كان ناراً في صدره ، فصار هدوءاً ..

ولكن وفاءه لآل علي ، كان أرفع من أن تمتد اليه ، يد المصيبة التي نزلت به . وكان في صدره عاطفتان هما أقوى وأصدق العواطف التي عرفتها نفسه ، حب علي رضي الله عنه ، وحب ولده عبد الرحمن .

وله من وراء العاطفتين غايتان ، هما أن يعيش ليرى رجلاً من آل علي على العرش ، ويزوج عبد الرحمن ، ثم يمهّد له أسباب السعة ورغد العيش .

وقد وفر المال لمسلم ، فهو لا يشكو غير سوء حظه في ولديه اللذين انتزعهما الموت من يده ، وغير القدر القاسي الذي جاز على علي .

وعبد الرحمن ، من أولئك الفتيان الذين يشرفون عشائرم ، ويرثون بحق زعامة الآباء والجدود .. وجه اسمر جذاب ، وقلب جريء لا يعرف الخوف ، وشجاعة لا تجد مثلها في جميع فتيان قومه . أضف الى هذا ، ذلك الإباء الذي يملأ صدره ، والشرف الذي يبدو لك في كل مظهر من مظاهره .

ولولم يكن عبد الرحمن في الثالثة عشرة ، والعمر لا يختفي ، لما نظر اليه الناس نظرهم الى الفتيان . أجل ، كان ذلك الفتى رجلاً في خلقه ، رجلاً في رصانته وهدوئه ، حتى أن زهو الصبا فيه ، لم يستطع أن يغلب ذلك الهدوء .

وقد أحبّ أباه ، حباً لا تنطبق صدور الأبناء على أصدق منه وكانت دلائل ذلك الحب ، ظاهرة في رواحه ومجيئه مع أبيه في المسجد وفي الأسواق .

وقد شاء مسلم ، أن ينفخ في صدر ولده البار ، روح التضحية والاخلاص لآل علي ، بعد أن قص عليه حكاية صفين ، ويوم الجمل ، وخبره بعظمة ذلك الامام الصالح ، وإثاره دينه على دنياه .

فما في قلبه ، حب الخليفة الذي كانوا يلعنونه في المسجد ، وكان يرافق أباه الى منزل سليمان بن صرد ، نادي رجال الشيعة ، ويسمع أقوال أولئك الرجال ، ثم يعود الى منزله ليلهو بجواده الادم ، وسيفه الذي وهبه له هانيء بن عروة المرادي ...

وكان يركب كل صباح الى ميدان الكوفة ، ووراءه أبوه على فرسه ، فيجري الفرسان في ذلك الميدان .. ويعلم الوالد ولده ، الضرب بالسيف .

ثم ينصرفان بعد ذلك الى المسجد ، ثم الى المنزل ، ولا يزور مسلم زيادةً إلا اذا كان هنالك امر لا بد منه . وعبد الرحمن يعلم أن أباه خطب له ، على أن مسلماً لم يذكر له اسم خطيبته بل كان يقول له :

انها في الشام وستجيء . فلما قدم عمرو بن الحجاج ، قال لسلي : ألا ترين أن نحدث عمراً بالأمر ؟ - بلى ، ولكن الرأي أن اقرأ ما في نفس

لهولة قبل أن أخطب زوجها لأن أمر امامة في يدها اكثر مما هو في يد عمرو .
قال : إن الفتاة حسناء فتئانة ، وأنا أخشى أن يكون نظر خولة ، في قضية
الزواج ، أبعد مما نظن ..

قالت : لا تذهب خولة الى ابعد من هذا ... إن عبد الرحمن من احسن
الفتيان وأبوه بطل من ابطال المسلمين الذين بنوا للاسلام هذا المجد الذي نراه ...
وهل يرفض عمرو بن الحجاج أن تكون ابنته زوجة لسيد من سادات بني اسد .
من يعلم فقد يطمع بأن يجعلها في بيت من بيوت الامراء . - الامراء عمال معاوية؟
- نعم . - لا يخطر لابن الحجاج أن يفعل ذلك وهو من اعداء الامويين .
- ولكنه ليس عدواً للولاة . - ومع ذلك فهو لا يصاهرهم .

قال : متى تسألين خولة ؟ - سأفعل في هذين اليومين .
وأطرقت قليلاً ثم قالت : أراك تتعجل في الأمر كأنك تريد أن تزوج عبد
الرحمن اليوم .. قال : ليس هنالك ما يمنعني من ذلك اذا رضي عمرو .
- إن خولة لا ترضى وأنا ارى أن يكون موعد الزواج غير قريب .
- لماذا ؟ - لأن الفتيتين في الثالثة عشرة من العمر .

قال : ليكن قريباً او بعيداً فانا لا أبالي . وانتهى حديث الاثنين عند هذا
الحد . فلما كانت تلك الليلة التي خرجت فيها شيعة علي الى الاجتماع في منزل
مليان ، أقبل مسلم الى فناء الدار يسأل عن هانيء ، فقالت سلمى : تراه في منزل
ابن صرد . فخفض صوته قائلاً : والوعد ؟ قالت : ستعلم غداً كل شيء فسأخطب
خولة الليلة .

وكان عبد الرحمن وراؤه فلم يفهم شيئاً ولم يسأل اباه عن ذلك الوعد وقد
اكتفى مسلم بما سمع ، فانتنى الى الخارج وهو يقول في نفسه :
ابذل نصف ملكي على أن تكون امامة لمبد الرحمن ..

٢٥

- خولة .. ألم اكتب اليك وأنت في الغوطة ، أني وجدت في الكوفة خطيباً لامامة ؟ - بلى . - ولكن مضى بضعة ايام ولم تسأليني عن ذلك .
- خيل إلي أن هذا الخطيب لا وجود له ...
- اذن خطر لك اني خدعتك فيما كتبت .
- بل خطري أنك لا ترضين بأن اذف امامة الى فتى من فتيات الشام فكتبت إلي أن خطيبها في الكوفة . - لم أفكر قط في أن اهزأ باختي ، إن الطفل الذي اخترته لامامة ، اصبح اليوم من اصدق الفتيان وأحسنهم وجهاً .
- وهو هنا ؟ - اجل . - من هو ؟
- لا أذكر اسمه إلا بعد أن اسمع كلمة الرضا .
- فضحكت قائلة : إني راضية بما ترضين به .. قالت : هو عبد الرحمن بن مسلم ..
- قالت : هذا الفتى الهادىء الذي تبدو النبالة على وجهه وفي عينيه ؟
- نعم . - ويعرف ذلك مسلم ؟
- يعرف كل شيء وهو ينتظر هذه الساعة منذ كان عبد الرحمن في حضن مرضعه . فترددت قليلاً ثم قالت : وأنت ماذا ترين ؟
- أتسأليني رأيي وأنا التي مهدت اسباب الخطبة ورغبت في مصاهرة بني أسد ؟
- قالت : أخشى أن يكون عمرو راغباً في غير ما نرغب نحن .
- لا أظن أنه ييخل على مسلم بن عوسجة بما يحود به على سواء .
- من يعلم ، فقد يكون له رأي آخر لم يخطر لنا نحن الاثنتين .
- أما انا فأرى أنه سيؤثر بني اسد على جميع العشائر النازلة في الكوفة . إلا إذا كان هنالك طمع بالامارة .
- قالت: ليس زياد بن ابيه ، وهو عامل البصرة والكوفة ، اعظم الامراء الآن ؟
- بلى . قالت : لو اقبل زياد بنفسه ، يخطب امامة لواحد من ابنائه ، لما لقي غير الفشل .

قالت : يفعل زياد كما يفعل معاوية .

- يستعين بالمال ؟ - بل يستعين بالدعاء ، ويبذل الوعود ليلبغ غايته .

- وماذا يصنع ؟

- يولي عمرأأمر خراسان فيعطيه ابنته .. ثم يعزله بعد شهر ويحول وجهه عنه .

- لا يولي زياد رجال علي .

- بل يفعل أكثر من هذا عندما يرى أن الحاجة تدعوه الى ذلك .

- ولكن عمرأألا يرضى ولا يخرج على اصحابه .

- اذا كان هذا فعبد الرحمن يكون زوجاً لامامة .

قالت : لقد رضيت وسأحدث عمرأأبالأمر عندما يحىء .

- وتستطيعين ان تقولي له أن مسلماً سيجيء غداً خاطباً لعبد الرحمن .

قالت : بقيت امامة فأنا اريد أن يكون لها رأي .

قالت : أسألها الساعة . فانشئت الاختان الى حجرة صغيرة ودعت خولة

ابنتها قائلة :

لقد رجعنا يا امامة الى البلد الذي خرجنا منه كما ترين وقد خبرتك من قبل

أن في الكوفة رجالاً يحفظون عهد الوفاء لآل علي .

فغمزت ثغرها ابتسامة طاهرة ثم قالت :

وأنا قد رأيت معظم هؤلاء الرجال الذين تذكركين .

- وعرفت أبا عبد الرحمن ؟

- أعرفه كما أعرف شيب بن ربعي وسليان بن صرد وحجار بن ايجر ،

وزيد بن الحرث وعروة بن قيس ومن معهم من الأنصار .

- ورأيت عبد الرحمن بن مسلم ؟ فأرخت نظرها الى الارض ولم تجب .

فقالت خولة : معنى هذا الحياء أنك تعرفينه ، وقد يكون في الأمر معنى

آخر .. قولي يا بنية كل شيء .

- رأيت فتى حسن الوجه مع مسلم وقيل لي أنه ابنه . .

فأرادت الأم أن تقرأ الأسرار فقالت :

وأنت تحبين هذا الفتى الحسن الوجه .. أليس كذلك ؟
فأخفت وجهها بيديها وتمتت قائلة :
لم يخطر لي أن أحب أحداً .. وأنا لا أعرف الحب ..
- ولكنك تنظرين بأعجاب الى عبد الرحمن .. - نعم ..
- وبماذا تحسین عندما تنظرين اليه ؟
- أحسُّ بعاطفة تتردد في هذا الصدر لا أعلم ماهي ..
فقالت لسمي : لقد تمَّ لك الأمر فامامة عاشقة . ثم قالت للفتاة :
سترين مسلماً في هذا المنزل عند الصباح . قالت : أراه كل يوم ؟
- ولكنه سيطلب الينا غداً قضاء حاجة له ، وسيتردد أبوك في جوابه
ريثاً يسألك عن ذلك . - أنا ؟
- نعم أنت فان مسلماً سيخطبك غداً لعبد الرحمن .
فوضعت يدها على صدرها ، وقد خيل اليها أن أمها تسمع نبضات قلبها
الحفاق .. ثم قالت : وبماذا أجيب أبي ؟ - بما ترين فليس لي في هذا رأي .
- بل أجيبه بما تقولين لي .
قالت : لا أحب أن أخدع ابنتي وأكرها على أمر لا تريده هي .
- وليس لك رأي في عبد الرحمن ؟ - بلى ، إن عبد الرحمن من
خيرة فتيان العرب ، كما أن مسلماً من خيرة الرجال الذين رفعوا شأن الأمة .
قالت : هذا يكفي فسأقول لأبي عندما يسألني ، اني راضية .
- وإذا أراد أبوك أن تتظاهري بعدم الرضى ؟
- أفعل ما يأمري به ، وأنزع من صدري هذه العاطفة التي ذكرت قبل أن
تسي غراماً ... فضمتها لسمي الى صدرها وجعلت تقول :
أما نحن فلا نريد الا أن تنمو هذه العاطفة وتكبر ، لأننا لم نجد بين فتيان
الكوفة خيراً من عبد الرحمن . وقد شعرت امامة في تلك الساعة ، أن عاطفتها
هي مطلع الفجر ... فجر الحب الصحيح الذي لا يتراجع الى الوراء ...

هاد رجال الشيعة من منزل سليمان في الهزيع الثالث من الليل .
 وكان القوم في دار هانيء بن عروة ، قد استسلموا الى الكرى .
 فلما دخل عمرو بن الحجاج غرفته المطلة على الرواق ، استيقظت خواته قائلة :
 ما هذا الاجتماع يا عمرو فقد مضى من الليل ثلثاء ..
 قال : ليس للقوم حديث غير زياد فهم يريدون أن ينقذوا الكوفة من شره
 ويعيون بأن يشهروا السيف ..

- ولكن السيف يسقط في النهاية على أعناقهم فيخسرون كل شيء .
 قال : ذلك ما أراه ويراها هانيء ، وشبث بن ربعي .
 قالت : لشبث همة قد لا تجد مثلها في صدور الفتيان .
 - أجل ، وله خبرة بالحرب ورأي عند الشدة ، ولكني أحسست الليلة ،
 أن اليأس يقوم مقام الأمل الذي كان يملأ نفسه . - وكيف ذلك ؟
 - هو يرى أن أنصار علي في الكوفة لا يرتفع لهم صوت ، وزياد حي ،
 ووراءه في الشام ، خليفة يدعى معاوية ..
 - إذن لم يبق إلا أن يخضع لزياد خضوعاً لا رياء فيه .
 قال : أما هذا فلم يفكر فيه ، ولكنه قال :

تناسوا أمركم حتى يخلق الله ما لا تعلمون .. - وسليمان بن صرد ؟
 - لا يتردد في حمل السيف إذا أجمع القوم على حمله ، ولكنه يرى من ناحية
 أخرى ، أن الظفر لا يتم لرجال الشيعة إلا إذا مات أمير المؤمنين .
 قالت : هذا أول مظهر من مظاهر الضعف .

- بل هو مظهر من مظاهر الحكمة وأنا قد آمنت بما قاله شبث بن ربعي ، ثم
 قال : نحن طائفة قليلة ، بين طوائف تدين لابن أبي سفيان ، فإذا خرجنا الى الساحة
 فكأننا نخرج الى الموت وسأحدث ابن ربعي بهذا الامر غداً وأنت تسمعين .
 - هنا ؟ - أجل فقد قال لي عندما انتهى الى داره ، انه سيأتي عند

الصباح لغاية له لم يشأ ان يذكرها لي .

- وماذا تظن ؟ - خبرني هانيء انه يريد ان يزوج ولده الأصغر .

- ربيع بن شبت ؟ - نعم ولعله أراد أن يختار أمانة زوجة له .

فاستوت جالسة وهي تقول : ويطيب لك أن تتزوج أمانة اليوم ؟

- يطيب لي أن انظر في أمر هذا الزواج من جميع نواحيه .

واضجع على الفراش قائلاً : أتعلمين من هو شبت بن ربيعي ؟

- انه سيد من سادات بني تميم . - وابنه الربيع ؟

- أعلم أنه في الصف الاول بين فتيان الكوفة .

- وإذا جاء شبت غداً يقول لي : أريد أمانة ، فماذا أقول له ؟

- تسأل أمانة ان تبدي لك رأيها قبل أن تقول شيئاً .

- وهل تريدن أن تجعل العرب ، ابن الحجاج الزبيدي ، مضغة في الأفواه .

ويلحق بي العار الى الأبد ؟ - وأين هو العار في هذا ؟

- إن العار ، هو أن يسألني ابن ربيعي سؤالاً لا أستطيع أن أجيبه عنه إلا

إذا استأذنت أمانة وهي في الثالثة عشرة من العمر .

- ولكنك لا تستأذنها إن فعلت . - وماذا إذن ؟

- تلمس رغبتها بيدك ، لتشعر إبتتك ، وليس لك سواها ، أن أبأها لا يزفها

إلا الى الفتى الذي تريده هي . . قال : لا أفعل ذلك ولو خسرت أمانة .

وخولة تعلم ان عمر أصعب المراس ، لا يرجع عن أمر أصر عليه إلا إذا دارت

حواله دورة حيلة ودهاء ، فقالت :

وإذا عرض لك أمر لا تستطيع معه أن تعد شبت بن ربيعي ؟

- انظر عندئذ في هذا الأمر وأشاور فيه .

قالت : أقسمت بالله اني لا أزوج ابنتي إلا بعد أن تجاوز العشرين .

- ومتى فعلت ذلك ؟

- يوم بلغتو عامها الخامس ولم يمن الله علينا بولد ذكر .

فضحك قائلاً : أما أنا فلم أحلف ولم يخطر لي أن أبقي أمانة في منزل أبيها

هذين عاماً ومع ذلك فأنت تحترم قسم زوجتك وتدعوها الى أن تبرز فيه ، ولو كان طالب الزواج الحسين بن علي . .

قال : تبلغ امامة العشرين بعد سبعة أعوام . . - نعم .

- واني أفكر الآن في أمر . - ماهو ؟

- هو أن يقول شئت عند الصباح ، اخطب للربيع والربيع يصبر عشرة أهوام لا سبعة . .

- ولكن يعرض لك عندئذ أمر آخر كنت أظن أن هائثاً خبرك به في هذا

البلد . . قال لم يزد هائثاً على قوله : ان ابن ربي يريد أن يزوج ولده .

قالت : سترى غداً مسلم بن عوسجة ، جالساً بالقرب من شئت وهو يخاطب

ابنك لولده عبد الرحمن . فبرقت عيناه قائلاً له ومن خبرك بهذا ؟

- سلى وقد اختارت عبد الرحمن وهو طفل ، وأظن أنك لم تنس ذلك

الكتاب الذي بعثت به البنات ونحن في الغوطة . .

- اذن ستكون امامة غداً بين خطيبين .

- أجل بين خطيبين ولها وحدها أن تختار أحدهما .

- بل نختار نحن الليلة ، ثم نأمرها عند الصباح ، بأن تؤثر الذي اخترناه على

الآخر . . انظري الآن في أمر الفتين . - لقد نظرت منذ ساعة . .

- وأيهما يصلح لامامة ؟ .. فلم تشأ أن تتمجل في الجواب ، فقالت :

كلاهما من أحسن الناس والرأي رأيك . .

قال : الربيع بن شئت في الثانية والعشرين من عمره .

- نعم . - وعبد الرحمن في الثالثة عشرة . . - نعم .

- والاثنتان يقتسمان الى عشرين من أشرف عشائر العرب وأبعدها صوتاً

ولكني أؤثر عبد الرحمن على الربيع . .

فتظاهرت بالتفكير ثم قالت : وأنا من هذا الرأي . . .

قال : بقي أن تقولي لامامة عند الفجر أن تختار ابن مسلم لأنني سأعهد اليها في

فتاة الشام (٩)

الاختيار على مسمع ومرأى من الرجلين ، اذا أتيا .
 قالت : ستفعل امامة ما تأمرها به .
 واستلقت على فراشها وهي تريد أن تقف عند هذا الحد ، وقد كرهت أن
 تعترف له بأن ابنتها أحست بقشعريرة الغرام ...
 ونام عمرو وهو واثق بأنه أحسن الاختيار ، وان امامة ستكون راضية ...

٢٧

طلع الصباح ، فقصت خولة ، على امامة وسلمى ، ماجرى بينها وبين عمرو ،
 بعد رجوعه من منزل سليمان .

ونقلت سلمى الخبر الى هانيء ، فطابت نفسه وأقبل يقول لابن الحجاج :
 هممت بأن احدثك امس بأمر ستسمعه اليوم .. قالها وهو يتجاهل كل شيء ..
 فابتسم عمرو قائلاً : لقد عرفت ما تريد أن تقوله لي . — ماذا ؟
 — تريد أن تقول أن مسلماً سيخطب الى ابنتي .. — هو ذاك ..
 — وتريد أن تسألني رأيي في هذا ..

قال : عجباً وهل تعرف ما في الصدور يا عمرو ؟
 قال : خبرتني خولة كل شيء وأنا أنتظر الآن أن يبجيء الرجلان شبت ومسلم
 فاسأل امامة أن تختار أحد الفتيتين . — تفعل ذلك دون ان يكون لك رأي فيه ؟
 — لقد أشارت عليها امها بأن تختار عبد الرحمن ..

وبينا هما يتمشيان في الرواق ، والنساء الثلاث في الجانب الشرقي منه ، أقبل
 مسلم ووراءه عبد الرحمن ، ثم أقبل على الأثر شبت بن ربيعي وحده ، كأن
 الثلاثة على موعد .

ولم يحضر الربيع مع أبيه . فهش هانيء لضيوفه ، ودعاهم الى قاعة واسعة تطل
 على مسجد الكوفة العظيم ، وفي القاعة باب داخلي جلست النساء وراءه ..

ثم قال : هل خطر لكما خاطر في الليل الماضي ؟
فقال شبت : خطر لنا ان نأتي هذا المنزل ، في هذا الصباح ، كما ترى .
وكان مسلم يقول في نفسه : إن ابن رباعي جاء يخطب للربيع .
وقد أراد ان يسبقه في الطلب ، فقال : أما انا فقد قدمت لأمر أسأل عمرأ
ان يقضيه لي .

فقال عمرو : مثلك يا مسلم يقضي الحاجات اذكر ما تشاء .
قال : أتيت خاطباً ابنتك لابني هذا ..
فأطرق عبد الرحمن .. وقبل ان يتكلم عمرو ، قال شبت وهو يبتسم :
وانا قد أتيت خاطباً لابني الربيع .
فظهر التردد على وجه ابن الحجاج ثم قال : ليس لعمر الزبيدي ان يرد طلب
بني أسد وبني قيم ...

- ولكن الأمر يحتاج الى القليل من التفكير . . . ماذا ترى يا هانيء .
فقال ضاحكاً : أرى ان نار الحرب ستشتعل بين العشائر الثلاث من اجل
فتاة .. ماذا أرى ؟ أقول لمسلم بن عوسجة لا أزف امامة الى ولدك ؟ - لا .
وتقول ذلك لشبت بن رباعي ؟ لا .

- إذن لم يبق إلا ان تخبر امامة بأمر الاثنين ثم تأمرها بأن تختار .
فقال مسلم : لقد رضيت . اما شبت فقال : ولكن الفتاة لاتعرف الربيع ..
- وهي في الوقت نفسه لا تعرف عبد الرحمن . - إذا كان هذا فأنا راض .
فقال هانيء : ادعُ امامة يا عمرو وليخرج عبد الرحمن الى الفناء .
فأوماً مسلم الى ولده بأن ينصرف ، ثم اقبلت الزبيدية الحسناء ، وكأنها لم
اسمع شيئاً ، مع انها سمعت كل شيء . فقال ابوها اجلسي يا بنية .

فجلست وعيناها تنظران الى الارض حتى انها لم تتبين وجوه القوم .
ثم قال : أتعرفين الربيع بن شبت ؟ - ما رأيت له وجهاً يا مولاي .
- وعبد الرحمن بن مسلم ؟ - ولا أعرف عبد الرحمن ..
فرقص قلب هانيء من الفرح ثم قال : دعني أقصُ عليها حكاية الخطبة .

قال : افعل .

قال : ستكونين بعد ساعة مخطوبة لواحد من الاثنين اللذين ذكرهما أبوك الآن ، فحنت رأسها الى الصدر حتى كاد الوجه يختفي في ثوبها من الخجل .

أما هو فلم يبال بل كان يقول :

ولك أن تختاري من تشائين فهذا ما يريدك أبوك ونريده نحن .

فرفعت رأسها عندئذ قائلة : يختار أبي من يشاء فأنا لأخالفه فيما يفعل .

— ولكنه لا يختار ، فالعشيران من أقرب العشائر الى بني زبيد والفتيان .

أحب الناس اليه . . وهذا يكفي .

قالت : صعب على الفتاة الزبيدية أن تختار خطيبها وأبوها حاضر . .

فقال عمرو : أمرتك بأن تفعلي وانتهى الامر .

قالت أتأذن لي أن أشاور أُمي في هذا ؟

— انك لا تخرجين من هذه القاعة إلا بعد أن تقولي كلمتك .

فجعلت تنظر الى الرجلين ، شبت ومسلم ، ثم قالت : أختار ابن مسلم .

فنهض شبت قائلاً : لقد أحسنت الاختيار . . وللربيع أن يطلب في حيه

او في حي آخر زوجة له . . ثم قال : أتذهبون الليلة الى منزل سليمان ؟

فقال عمرو : نذهب اذا أردتم ذلك .

قال : سارى سليمان في المسجد وأحدثه بالأمر .

وهم بالانصراف . فأراد عمرو أن يقرأ ما في نفسه قبل أن ينصرف فقال

الى أين ؟

— الى المسجد كما قلت .

— ولكنك تذهب الآن ونحن لانعلم أي أثر بقي في صدرك ، من هذا المش

الذي رأيت . — وهل يحفظ شبت بن ربيعي ، لعمر بن الحجاج غير الأ

الطيب والوفاء الابدي ؟ . . ان القضية قضية شباب وهوى ، وليس لي أن أه

كلمة بعد أن انتهى الأمر على هذا الوجه . .

قال : اطلب اليك ان تمكث قليلاً ريثما تجيء خولة ونضرب موعداً للزوا

قال : أما الموعد فلا أريد أن يكون لي فيه يد لان الأمر لا يتعلق بي
- ولكن يطيب لي أن تعلم كل شيء .

ونادى خولة ، فأقبلت وهي تقول لزوجها :

دعوت امامة فعرفت أنكم لاتحدثون بأمر الشيعة .

قال : الحديث حديث زواج وقد انتهى الآن .

ثم خبرها بما جرى ، فقالت : والموعد ؟ - نسألك رأيك فيه .

قالت : هنالك يمين يجب أن نبر بها . - يمين العشرين ؟

- نعم .

فالتفت الى مسلم قائلا : لايتم الزواج الا بعد أن تبلغ امامة العشرين من
العمر ... فقال ثبت : هذا كثير - ولكنها يمين لحولة لايسقط منها حرف .

فجعل مسلم يقول : انها يمين نعم .. ولكن الصبر سبعة اعوام صعب .. وقد
تغير الامم والدول بعد أن ينقضي هذا الزمان .

- ومع ذلك فنحن مكرهون على هذا الصبر .

قال : اذا كان هذا فانا أول من يرضى . - وعبد الرحمن ؟

- يلهو عبد الرحمن بفرسه وريحه حتى تمر الأعوام السبعة ويفعل الله عندئذ
مايشاء .. أتأذن له الآن في الدخول ؟ فشى الى الرواق وهو يقول : انا ادعوه .
ولم تكن إلا لحظة ، حتى دخلا ، وقد صبغ الاحمرار وجنات الخطيبين ،
وكان القلبان يخفقان بشدة ، ولكنه خفقان عذب .

ولم يبق لشبث ما يقوله ، فصافح القوم مهنئا ثم خرج وهو يقول في نفسه :
لا تقع العين على أجل من امامة وقد خسرها الربيع .

واستطاع الخطيبان بعد ساعة أن يتكلما بلغة العيون .



وكان يعرف مقامه عند معاوية بل كان واثقاً بأن معاوية لا يخالفه في امر يطلب اليه ان يقضيه . ومن حق زياد ان يتدلل ما طاب له الدلال .

فهو الذي أعاد بسيفه هيبة الخلافة ، في البصرة والكوفة وهو الذي خفض الرؤوس العالية وأخذ الأصوات المرتفعة ، ولولا ذلك السيف ، لاشتعلت نار الفتنة في العراق ، ثم امتدت الى الحجاز ترسل لهيبها الى الجيوش والعشائر فيلتهم كل شيء .

أجل ، كان زياد في ذلك الزمن ، دعامة من دعائم العرش الأموي ، وركناً قوياً ثابتاً من أركانه ، بل كان سيفاً قاطعاً يتخطف الأرواح بالحلل او الحرام لا ينظر إلا الى غاية نفسه ...

حتى كان الرجل في أقصى خراسان ، يخشى غضب زياد ويخاف ان تمتد اليه يد القسوة الجائرة ! وقد رأيت فيما مر من الفصول ، كيف كان رجال علي ، أعداء بني أمية ، يستخفون في ظلام الليل ؛ لينظروا في امر الشيعة ، ويمهدوا لها اسباب القوة والظهور .

على ان زياداً لم يكن يحهل ذلك .

كان يعلم ان القوم يجتمعون في منزل سليمان بن صرد .

وكان يستعرض بذهنه ، جميع عشائر الكوفة ، ويعدّ الرجال الذين هم بالدعوة علي .. وهو مؤمن بأنه قادر على اخماد نارهم اذا سمروها في العراق . ولكن كان يقول لأصحابه :

الويل لهم اذا خرجت من أقوام ، على مسمع من الناس ، كلمة لعن ... !
لهم عبرة بحجر بن عدي . من أجل ذلك كان معاوية يحبه ، ويؤثره على معالي عمله ، في الحزم ، والجرأة وشدة المراس . ومن أجل ذلك ، كان زياد يعين دلاله ، ويسأل معاوية قضاء حاجاته وحاجات من ينتمي اليه .

وامير المؤمنين يحمود عليه ، بما يبخل به على معظم الرجال ..

فلما كانت السنة الثالثة والخمسون ، اشتدت شهوة زياد الى التوسع في الحكم واحسن كما قرأت ، بأن الكوفة والبصرة مجال ضيق لطموحه ؛ فكتب الى

- معاوية يقول : إني قد ضبطت العراق بشمالى ويميني فارغة .
 فأشغلها بالحجاز !! فما انتهى الكتاب الى دمشق كان يزيد بن معاوية في مجلس أبيه ، فدفعه اليه قائلاً : رأيك يا يزيد ؟
 فقرأه ثم قال : يريد ان توليه الحجاز !
 - نعم . - وماذا يبقى لسواه ؟
 قال : لا تنتظر الى هذا بل انظر الى عمله في العراق ، يستحق أن يكون أمير الحجاز كما هو أمير البصرة والكوفة أم ماذا ؟
 قال : انه يستحق ذلك ولكن ليس من الرأي أن يخطو هذه الخطوة الواسعة وحولك رجال كثار أهل للولاية .
 قال : نخشى أن يعظم شأن الحسين بن علي في المدينة .
 - ليس هنالك ماتحشاه وعامل المدينة سعيد بن العاص .
 قال : سنعزل سعيداً في هذا العام . - لماذا يا أمير المؤمنين ؟
 - لانتنا أمرناه بأن يهدم دار مروان بن الحكم ، ويحبض أمواله كلها ، ويسترجع « فذك » التي وهبناها له ، فلم يفعل .
 - وهل كان مروان عدواً لأمير المؤمنين ؟
 - لا ، وإنما يريد أمير المؤمنين أن بوغر صدر الواحد منها على الآخر ويجعلهما هدوين الى الابد .. ! - وما هي الغاية من هذا ؟
 - تلك هي السياسة التي تجهلها أنت ..
 فجعل يزيد ينظر الى أبيه نظرات الاستغراب . فابتسم معاوية قائلاً :
 بلغني أن سعيداً يقول لمروان : انك تصلح للخلافة بعد معاوية .
 - ومن نقل اليك هذه الرواية ؟ - رجل يشهد مجلس ابن العاص .
 - قد يكون كاذباً يا مولاي .
 وقد تكون الرواية صحيحة فيحدث في الحجاز بعد حين مالا نحب أفهمت الآن ??
 - لا . - يظهر أنك نسيت أمر المباينة بولاية العهد .

- وما شأن المبايعة الآن ؟ - نخاف أن ندعو اليها الناس فيتنحى سعيد ومروان وترتفع الأصوات في الحجاز تدعو القوم الى الخلاف .

فحنى يزيد رأسه ، مؤمناً بذلك الدهاء الذي ليس له حد ، ثم قال :
ومن تختار للولاية بعد سعيد ؟ - تختار مروان نفسه اذا لم يكن زياد ! !
- والآن ؟ أما الآن فسنكتب لزياد عهده على الحجاز . . . اكتب أنت يا بني هذا العهد فزياد يعرف اليد التي كتبتة . .

فكتب الأمير ما أملاه عليه ثم دعا معاوية رسول زياد قائلاً :
قل لأمير الكوفة ان يمينه قد امتلأت الآن وقد وليناه الحجاز . . .
ودفع اليه الكتاب وأمره بالانصراف . فلما خرج قال يزيد :
أراك تخاف الرجال الأقوياء ، على الخلافة : ولا تخاف زياداً .

قال : ليس لزياد رجال يمشون وراءه ويرفعونه الى العرش . انه رجل شدة ورجل سيف ، والناس يخافونه في الاقليم الذي يقوم به ، ولا يخافونه في سواه .
- وماذا يقول الناس غداً ؟

- يقولون إن أمير المؤمنين لا يولي الرجال إلا اذا كانوا مثل زياد . وإنا لنرضى بأن يصير جميع الرجال مثله .

- بل يقولون انه إثثار غريب لم يتعودوه في الاسلام وستأتيك الوفود من الحجاز حاملة اليك اخبار الثورة .

قال : رجال قريش في الحجاز اليوم ، أضعف من ان يثوروا ، وزياد بينهم ، وأمير المؤمنين يعرف رجال السياسة واحداً واحداً حتى ليعلم ما يحول في الصدور . وخطر له خاطر فقال : علي بواحد من الحراس ، فتسابق الغلمان ينقلون أمره الى رئيس حرسه .

فلما أقبل الحارس قال له : تخلع لباس الحرس وتسير الى الكوفة لابساً لباس أهلها ثم اذا رأيت ان تنصرف منها الى الحجاز فافعل .

- وماذا اصنع يا أمير المؤمنين ؟
- لقد جعلنا زياداً عاملاً لنا على الحجاز وهو في الوقت نفسه عامل البصرة

والكوفة ، وقد بلغنا ان في القوم من لا يرضى بهذا ، فإذا أتيت الكوفة فاسمع أقوال أهلها ثم تنتقل الى الحجاز مع زياد فتسمع أقوال أهله . — وبعد ذلك؟ —
— تعود اليينا وأنت حافظ ما سمعت .

قال : سأكتب أسماء الرجال وأحفظ كل شيء .

— ولا تنس أن تسأل انصار بني أمية عن انصار علي وتحصي على هؤلاء أنفاسهم وتسير وراءهم الى المساجد والأسواق .

— وهل بقي شيء آخر تأمرني به .

— بقي أن ترافق رسول زياد الى الكوفة فقد انصرف منذ لحظة واحذر أن يعرف من أنت . فانصرف الرجل وهو يقول :

سيعلم الناس غداً أنني من بني مذحج المقيمين وراء الحيرة .

وأقبل سرجون في تلك الساعة ، فقال له : أين هو رسول جنادة بن أبي أمية؟

— في الرواق يا أمير المؤمنين . — وكتب الى جنادة جواباً ؟

— اكتبه عندما تأمرني بذلك . قال : ما عرفنا غايته من الكتاب . هو يقول

ان بالقرب من القسطنطينية جزيرة يريد ان يفتحها ثم يقول انها لا تبعد عن الشاطئ . — ولكنك قلت يا مولانا أنك عرفت الجزيرة .

— اجل عرفناها فهي بعيدة عن القسطنطينية . ومع ذلك فنحن لانسأل عن

هذا بل نعجب لكتابه ونحن قد أمرناه بأن يفتح للإسلام كل جزيرة وكل بلد لم يفتحه المسلمون من قبل دون أن يشاور . .

— هو يخشى يا أمير المؤمنين ان يخسر بعض جيشه في حصار الجزيرة فتغضب

عليه وهذا ما لا يطيقه . قال : لا بد للفتاحين من ان يخسروا الجيوش ، والدول القوية لا تبنى إلا على جثث الرجال .

« والجزيرة التي شاوور جنادة معاوية في أمرها هي جزيرة ارواد وقد فتحت

في السنة الرابعة والخمسين ، ويقول بعض المؤرخين انها فتحت قبل ذلك » .

فقال سرجون : وماذا اكتب اليه ؟

— مره بأن يفتح البر والبحر اذا استطاع ، وليقم المسلمون بالجزيرة بعد الفتح

حتى يصل اليهم أمر آخر .

وبينا هو بهم بالذهاب الى المسجد ، دخل حاجبه يقول : رسول من الحجاز قال : ليحضر فقد حدث في الحجاز حادث .

ومثل الرجل بين يديه فسأله قائلاً : ماهي أخبارك ؟

قال : مات عبد الرحمن بن ابي بكر وهذا كتاب الامير سعيد بن العاص ينعاه اليك ، وعبد الرحمن من أولئك الرجال الذين يخافهم معاوية على الخلافة بعد أن يتولاها يزيد ، فقال : مات في المدينة ؟

— بل مات يا أمير المؤمنين على الطريق بينها وبين مكة .

— وكان مريضاً ؟ — لا ولكنه نام نومة مشى اليه فيها الموت ..

قال : انظر ياسرجون أترى في كتاب سعيد غير هذا ؟

— ان فيه أشياء يا أمير المؤمنين . — ماذا ؟

— يقول انه ليس من الرأي أن يهدم دار مروان بن الحكم كما أمرته ويسألك أن تغض الطرف عن ذلك .

فابتسم قائلاً : عرفنا ذلك قبل ان يكتبه ، وهل تعجب شيئاً آخر . — لا .

فقال للرسول : عد أنت وقل لسعيد أن جوابنا سيأتيه .

ثم جعل يقول : لم يكن عبد الرحمن بن ابي بكر على شيء من الهمة . . . بل

كانت له همة في النساء واللهم ... واذا رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله .

ونهض قائلاً : الى المسجد .. الى الصلاة .. الى الصلاة .



بلغ أهل الحجاز أن معاوية وتلى زياداً أمرهم فاضطربوا وتنادوا الى الاجتماع .

وكانوا يرون ، أن الوباء والبلاء ، أخف وطأة منه .

ثم اتوا عبد الله بن عمر بن الخطاب فذكروا ذلك له .

فقال : اسألوا الله أن يكفيكم شره .

فاستقبلوا القبلة وجعل يقول وهم يرددون قوله : اللهم اكفنا شر زياد .
وكان زياد ، عندما انتهى إليه عهد أمير المؤمنين ، يهيم بالسفر الى الحجاز لينظر في أمره ، ثم يعود الى الكوفة . ولكن الله استجاب دعاء الناس ...
نعم ، ان لكل مخلوق يوماً لا يستطيع الفرار منه ، والويل للظالمين من ذلك اليوم الذي يمثلون فيه بين يدي الخالق عز وجل . أعدّ زياد عدة السفر ، وأعدّ الطاعون عدته من الناحية الأخرى ، فأصابه في اصبع من أصابع يده اليمنى ! فقال لمن حوله : عليّ بالطبيب فأنا أرى شبح الموت . .

وكيف يخاف زياد الموت ، وقد كان يفتحمه وهو على فرسه ، والسيف في يده ، بل كيف يخافه وقد كان رسوله الى الأبرياء ! !

وأقبل الطبيب فقال : أرى أن تقطع هذه اليد .

— وهل أنجو ؟ . — لا أعلم فالحيّة بيد الله .

قال : عليّ بشريح القاضي .

فأقبل شريح فقال له : لقد حدث ما ترى وقد أمرت بقطع يدي. فما رأيك؟
قال : أبعد الناس عن الطب القضاة .

— ولكن اريد ان تشير عليّ .

قال : أخشى ان يكون الأجل قد دنا فتلقى الله وأنت اجذم .

— واذا كان في الأجل تأخير ؟ — تعبش اجذم وتعير بنيك .

قال : لا أبيت والطاعون في فراش واحد . فخرج شريح من عنده .

فتصدى له الناس يسألونه ، فخبّروهم ، فقالوا : كان عليك ان تشير بالقطع .

قال : أشرت بما أعلم . وأراد زياد أن يبعد الطاعون عنه فقال : اقطعوها .

والقطع عندهم بالمكاوي والنار . فلما رأى الأمير النار جزع وجعل يقول :

لا أريد ان افعل ... إن الموت خير من هذا ! ..

ومر يوم لم يغمض له فيه جفن .

الحقّ تنهش أحشائه ، والموت امام عينيه ؛ والطاعون الرهيب يلجّ في طلبه

وهو لا يتراجع ولا يلين كأن قلبه يشبهه في قسوته قلب زياد ..
حتى دنت الساعة فقال لولده عبيد الله وكان عند فراشه : لقد خاب الرجاء
يا بني وجاء الموت .. فأجابه قائلاً : هيأت لك ستين ثوباً أكفنك بها !!
قال : ولكن دنا من ابنيك لباس هو خير من لباسه ..
ولم يلبث حتى أسلم الروح . فدفنوه عند الكوفة ، وقام في أذهان أنصار
علي ، أن وجه السماء سيتغير بعد موته وسيبسم لهم الزمان .
وبلغ الخبر عبد الله بن عمر فقال يخاطب زياداً :
اذهب ابن سمية اذهب .. لا الآخرة أدركت ، ولا الدنيا بقيت لك ...
وكان عمره اثنتين وخمسين سنة . قال مسكين الدارمي يرثيه :
رأيت زيادة الاسلام ولت ، جهاراً حين ودعنا زياد
فأجابه الفرزدق ، ولم يكن قد هجا زياداً :
أمسكين أبكى الله عينيك انما ، جرى في ضلال دمعها فتحدرا
بكيت امرءاً من أهل ميسان كافراً ككسرى على عدوانه أو كقيصر
أقول له لما أتاني نعيمه ، به لا بظي بالصريمة اعفرا
وأقبل الناس يسألون عن الرجل الذي استخلفه على الكوفة .
فقال لهم شريح : استخلف عبد الله بن خالد بن أسيد .
وكان على البصرة ، سمرة بن جندب .

٣٠.

مات زياد في رمضان . فلما نماه الناعي لمعاوية قال :
انا لله وإنا اليه راجعون لقد أراد الله غير ما أردنا .
ثم قال للرسول : من يقوم اليوم مقام زياد في الامارة ؟
- عبد الله بن خالد يا أمير المؤمنين . - والناس راضون ؟

- نعم . وكان الحارث الذي أرسله إلى الكوفة قد عاد ، فدعاه إليه قائلاً :
أتعرف عبد الله بن خالد الذي استخلفه زياد قبل موته ؟
- رأيته يوم دفنوا زياداً ثم رأيته في المسجد . - وماذا يقول الناس ؟
- هذا يقول أحسن زياد ، والآخر يقول أساء . - ورأيت أبناء زياد ؟
- رأيت أكبرهم عبيد الله وراء جثة أبيه وهو مطرق ، وخيل إلي ، عندما
رفع رأسه ، أن نار الغضب تنقد في عينيه . .
- إذن لم يكن عبيد الله راضياً بما فعله أبوه ؟ - هذا ماظهر لي .
- وأنصار علي ؟ - عرفتهم واحداً واحداً يامولانا .
- وشيعوا زياداً ؟
- نعم شيعوه دون أن تظهر على الوجوه آثار الحزن . . .
فطوى معاوية وسادة كانت بين يديه وجعل يقول :
يريد الناس أن تندب الشيعة قاتلها وترثيه . . . وماذا فعلوا بعد دفنه ؟
- انصرفوا إلى منازلهم ثم اجتمعوا عندما جن الليل في منزل سليمان بن صرد .
قال : نعم في منزل سيدهم سليمان بن صرد ، ليفعل سليمان مايطيب له فنحن
لأخافه وعندنا له دواء ، ثم قال : وكان القوم كثاراً ؟
- أكثر من أربعين رجلاً يأمر المؤمنين بينهم عمرو بن الحجاج الزبيدي الذي
كان مقيماً بالغوطة في بني سعد . فوضع يده على جبينه قائلاً :
عرفناه . . ونحن نرى أنه سيترك شيعة علي يوم تغير الخيل على الخيل .
- ومسلم بن عوسجة ؟
- أما مسلم فليس في رجال الشيعة أصلب عوداً منه .
- وشبث بن ربعي . - هذا فارس من فرسان الميادين .. ولكنه يلبس
في يوم حلة وقد يراه الناس يوماً في صفوف بني أمية . . .
- وسويد بن المطاع وحبيب بن مطهر . فجعل يهز رأسه ويقول :
لو كان أهل الشيعة جميعهم مثل هذين الرجلين لحطموا الخلافة . . .
- والضحاك بن عبد الله المشرفي ؟

- لقد خبرنا هذا الرجل من قبل فهو لا يثبت في مجال . . .
 - وهانيء بن عروة المرادي ؟ - يحب علياً ولكنه بعيد عن الشر . .
 واطرق ساعة وهو يفكر . .
 كان يريد أن يخلق رجلاً شديداً قاسياً مثل زياد . .
 ان الخلافة لا تثبت بعده ليزيد إلا اذا وضع السيف في رجال بني هاشم وساق
 المترددن بالسوط .
 وكان يستعرض الرجال فلا يجد من يوليه حتى انتهى في استعراضه الى عبيد
 الله بن زياد فقال لأصحابه : صفوا لنا عبيد الله .
 فقال مسلم بن عقبة المري : إذا قيل لك يا أمير المؤمنين ان تصف زياداً أفلا
 تفعل ؟ - بلى . - إذن تستطيع ان تصف عبيد الله بمثل ما تصف أباه .
 فأشرق جبينه قائلاً : في حزمه وجرأته ؟
 - وفي قساوته وشدته . . - ونظن أنه لا يجاوز الثلاثين من العمر .
 - انه في الخامسة والعشرين يا امير المؤمنين .
 فخفض صوته وجعل يقول : لم يبق إلا أن نختبره كما خبرنا سواء . .
 ولكنه لم يفكر في امير المؤمنين وكان عليه ان يجيء . .
 - اذا لم يأت اليوم أتى غداً . - نظن انه سيجيء في اول العام . . لننظر
 الآن في امر الحجاز . . فنحن لا نطبق ان نبقي سعيداً في ولايته .
 فقال يزيد : بقي من السنة شهر يا امير المؤمنين فاصبر حتى ينقضي .
 قال : نكتب كتاب العزل ولا نبعث به إلا بعد شهر . . لقد راجعنا سعيد
 فيما أمرناه به مرتين ، وكتبنا اليه كتابين وهو لا يبالي . اكتب يا سرجون :
 من امير المؤمنين الى مروان بن الحكم :
 لقد وليناك امر المدينة وعزلنا سعيد بن العاص ، فاذا أتاك كتابنا فاقبض
 امواله واهدم داره والسلام . . فكتب سرجون ما أمره به ودفع اليه الكتاب .
 فنادى المختار صاحب حرسه وقال له : عندما ينقضي آخر يوم من هذا
 الشهر ، تبعث بهذا الكتاب مع رجل من رجالك الى مروان بن الحكم في المدينة . .

- اممع .. تبعت به دون أن تسألنا أو تسأل أحداً والويل لك ان لم تفعل .
 فحنى المختار رأسه ولم يقل كلمة . ثم قال معاوية لوزرائه :
 لا بدّ لأمير المؤمنين من ان يختبر طائفة من الرجال ، بعد موت زياد وسنبداً
 بالبصرة .. ما رأيكم في سمرة بن جندب ؟
 قالوا : هذا ولّاه زياد وكنت يا امير المؤمنين راضياً عنه .
 - ولكنه كان رجلاً وزياد حي ، أما اليوم ، فنحن نرى ، انه سيضيع في
 البصرة كل شيء وعزله خير لنا وله . قال يزيد : ومن يخلفه ؟
 قال : يقيم ببابنا منذ ثلاثة اشهر رجل تعرفونه هو عبد الله بن عمرو بن غيلان
 وقد سألنا ان نوليّه .
 قال : أرى أن تجعله يا امير المؤمنين ، على خيلك في احدى الساحات ...
 - بل نوليّه البصرة بضعة اشهر ، فاذا رأيناه أهلاً للولاية رفعناه وإلا فالعزل
 لا بد منه .. ماذا تقولون ؟ فسكت القوم .
 فقال : يا غلام ، عليّ بعبد الله بن عمرو .
 فدخل وسلم ، فقال له : ماذا تعلم عن احوال البصرة ؟
 فمرف الرجل غايته فقال :
 أعلم أنها فسدت في عهد عبد الله بن عامر . - ومن أصلحها ؟ - زياد .
 - وتعلم أن زياداً لم يكن أشد وطأة على أهل البصرة من سمرة بن جندب ؟
 - نعم . قال : خطر لأمير المؤمنين الآن أن يعزل سمرة ويوليّك ، فهل
 تعرف انت أن تضع الشدة في موضعها والمعو في موضعه ؟
 - أعرف ذلك يا أمير المؤمنين .
 - وعندك الحلم الواسع والسيف القاطع ؟ - نعم يا أمير المؤمنين .
 - واذا كذبت الظنون وضاع الأمل ؟
 - انصرف الى منزلي وأنا أتعثر بالفشل .
 - اذن فانت والي البصرة فأعدّ عدة الرحيل .
 فسار الرجل والزهو يملأ برديته .

فلما انتهى الى سمرة خبر عزله ، في مطلع السنة الرابعة والخمسين ، قال لقومه :
لعن الله معاوية والله لو أطعت الله كما أطعته ما عذبني ابداً .

٣١

أحبها وأحبته حباً ، لاتفقد في أفاصيص الهوى ، وحكايات الغرام أبعد
أثراً في القلوب منه . أجل ، كانت امامة مؤمنة ، بان الله مسح عبد الرحمن
ملكاً على فتيان الاسلام . في شبابه وشرفه ، ومروته وعزة نفسه .
وكان عبد الرحمن مؤمناً ، بان امامة حورية من الجنة ، وان حياته
الضاحكة ، هبة من ثغرها الفتان وعينيها الذابلتين .

انه حب طاهر قوي ، يخفق عليه قلبان لم يعرفا الغرام من قبل .
ولكنك ترى ، وانت تلمس بيدك روعة هذا الحب ، مظهرأ من مظاهر
اللعب ، يقوم به غلام وفتاة ، في الرابعة عشرة من العمر . تقني امامة اذا غنى
عبد الرحمن .. وتضحك اذا ضحك ، وتذرف الدموع اذا اكفهر وجه الحبيب .
وابلسامة واحدة تبدو على شفقي احدهما ، تمحولة الآخرة وتمسك الى
النفس مرحها ، والى القلب بهجته . عاشقان يتشاكيان الهوى ويلعبان .. . وانه
لغرام عجيب ، يزول كل شيء حوله ولا يزول .

وكان شبت بن ربيعي ، قد نقل الى ولده الربيع ، فشله في مهمته ، وخبره
ان امامة هي التي اختارت الفقى الآخر وآثرته عليه . والربيع في زهرة عمره ،
إذا أحب عرف كيف يحب ، وإذا أبغض عرف كيف يبغض .
فاشتعلت نار الكبرياء في صدره ، وأحس بماطفة حقد هائل تضطرم في
أعماق نفسه وبدأ ينظر الى عبد الرحمن ، نظره الى عدو له .
وعبد الرحمن بريء كما رأيت ، وليس له يد في ذلك الاختيار .. . وانما كان
ذنبه أنه أحب الفتاة وأحبته هي .

والربيع لم يكن عاشقاً برّح به هواه ، بل كلف طالب زواج ، بفتاة من بنات العشائر النبيلة ، النازلة في الكوفة ، والتي لها مقامها بين العربان .
على أن الفشل صيره من العشاق ، ولو نظرت في أمر غرامه ، لرأيت أن ذلك المرام عاطفة كبرياء ، لاعاطفة حب ووفاء . ولكن أباه ، أباه الشيخ الذي خبر الإيمان ، لم يبال بما رأى وسمع في منزل ابن الحجاج ، بل كان يقول لولده :
سأختار لك فتاة من بنات كندة لا تذكر معها نساء بني زبيد ، أو من ربيعة التي كانت نساؤها فتنة العرب . فيقول : اما امامة أو العيش في الميادين !
- ولكنها مخطوبة يا بني . - اجل ، غير أنها لا تزوج إلا إذا جاوزت العشرين وهذا معناه أن المجال رحب ، والايام بيني وبين عبد الرحمن .
- وماذا أساء عبد الرحمن ؟ - لا أعلم بماذا أساء ، ولكنني أعلم أمراً واحداً هو أنني أبغضه كما كنت أبغض زياداً . .
- ذلك كان عدواً لك ولأبيك .

- أما اليوم فعدوي مسلم بن عوسجة وقد نسيت عداوة زياد .
قال : انك لا تدري يا بني ما تقول . - بل أدري ما أقول وما أفعل . .
السنطيع أن تذكر لي ذلك السبب الذي دعاك الى الدفاع عن آل علي ؟
- أحببت علياً في حياته ، ثم أحببت بنيه بعد موته .
وماذا صنع هذا الحب ؟ بايعتم الحسن فنزل عن حقه لمعاوية وتخلص عن كل امه ثم مات مسموماً في المدينة فخاب الرجاء . قال : رأى الحسن رحمه الله ان ترك الخلافة خير من فتنة تهلك فيها الطوائف من المسلمين .
- ورأى الحسين أن يرحل الى المدينة ويقيم بها وأنصاره في الكوفة يمشون في الاسواق واحداً واحداً لا يمسرون على الاجتماع الا في ظلام الليل ، واذا رأوا رجال الشرط لجأوا الى المنازل يحتجبون وراء الجدران . . !
قال : وملك ما هذا ياربيع ؟ - وما هذا يا أبي ؟ انه أمر يوجب أن ننظر له قبل أن نضيع العز ونخسر النفوذ الذي يسود العشائر .

فانتهره قائلاً : بل هو كلام يلميه جنون الهوى وكبرياء الشباب ، أخرج عن دعوة أهل الصلاح ، من أجل فتاة أحببت جارك ابن مسلم ؟

— لا ، لا أخرج عنها من أجل امامة ، بل من أجل هذا الجزاء الذي لقيته أنت بعد جهاد السنين في سبيل بني هاشم . — وأي جزاء هذا ؟

— هو الذي كنت تراه كل يوم ، من زياد قبل موته ، والذي تراه اليوم من عبد الله بن خالد . قل لي يا أبي كم ليلة بت مطمئناً في فراشك منذ حملت السيف مع علي الى اليوم ؟ قال : لو كان الأمر في يد آل علي لكانت الإمارة جزاء لي ومع ذلك فأنا لا أطمع بالدنيا بل أنظر الى الآخرة ، وكلما فكرت في ذلك الخليفة الصالح الذي يلعبه بنو أمية ، في المساجد ، تتجه نفسي الى الله وهي مؤمنة بأنها صنعت ما يجب أن يصنعه كل مسلم .

— ولكن علياً قتل ومات الحسن ، والحسين واخوته لا يطعمون بالخلافة علي ما أرى فأني رجل اذن تريدون ان تولوا .

تنظر في هذا الأمر يوم تدعوننا الحاجة الى النظر فيه .

— ولكنني أريد أن أعلم ذلك . . — لماذا ؟

— لأن الرأي يقضي بأن أعرف الرجل الذي أبغض معاوية واحاربه من أجله .

— انه الحسين . — وأين هو الحسين ؟ إنه في الحجاز ، فاذا اراد أن يكثر انصاره فليخرج من المدينة وليأت العراق .

قال : لم تأت الساعة بعد .

— اذن فاترك الدفاع عنه ، وادخل في صفوف بني أمية ليعرف معاوية مقامك ويرفعك الى العلاء . . قال : ان معاوية لا يفكر إلا في أصحابه .

— وستصير أنت من هؤلاء الاصحاب . . ثم قال :

لقد حملت السيف يوم الجمل ، ودافعت عن علي يوم صفين ثم تركت علياً ومشيت مع الخوارج الى حروراء ، ثم رجعت الى الشيعة ووضعت يدك في أيدي أعداء بني أمية وأنت اليوم عدو معاوية . . أليس كذلك ؟

— بلى . — ولكن قل لي أي شيء رجحت من كل هذا ؟

- فأطرق شبت ثم جعل يقول : لم أربح شيئاً . .
- وإذا قضيت زمانك كله مدافعاً عن آل علي فماذا يكون لك من وراء هذا الدفاع ؟ — قلت أني لا أطمع بالدنيا ، وهذا يكفي .
- لا . لا يكفي هذا . . بل يجب أن تعد لبنيك مستقبلاً زاهياً ، حافلاً بالمنى ، فياضاً بالنعيم . . قال : لبني أن يفعلوا ما يطيّب لهم بعد موتي .
- بل يفعلون ما يقرّبهم الى أمير المؤمنين وأنت حي . .
- فخفض صوته قائلاً : لقد كنت من قبل جندياً باسلاً من جنود الشيعة .
- وكنت انت من قبل جندياً باسلاً من جنود الخوارج ثم رأيت أن الشيعة أولى فمشيت في صفها لاتبالي بالموت الذي فاجأ حجر بن عدي .
- وما معنى ذلك ياربيع ؟
- معناه أنك رجعت الى نفسك فوجدت أن الخوارج لم يكونوا على صواب ، فلوكتهم ولجأت الى أنصار علي ، وإني أنا الآن ارجع الى نفسي والجأ الى بني امية . — ألم تقتل الآن اما امامة أو العيش في الميادين ؟
- قلت ذلك وأنا أقوله مرة ثانية . .
- ولكن اذا دافعت عن معاوية خسرت امامة .
- فابتسم الشاب قائلاً : لي في هذا رأي لم أذكره لك .
- ماهو ؟ — هو أن عمرأ بن الحجاج سيرك الشيعة .
- ومن قال لك ذلك ؟ — اني واثق بالامر كما أثق بنفسي وسترى .
- قال : اذكر ما تعلم . قال : أشهد مجالس الشيعة في منزل سليمان ، وأرى رجالها يتنادون الى حمل السيف فتتصدى لهم أنت ويقوم عمرو ورامك فيعرض لهم .
- يفعل ذلك فراراً من الخيبة فالسيف لا ينفع وابن ابي سفيان سيد الموقف وخليفة المسلمين . . قال : لو كان في صدره ، ما في صدور اصحابه ، من عقيدة وإيمان ، لما تردد في الخروج على معاوية .
- قال : رميت ابن الحجاج فأصبت أباك قبله . . اني أول المترددين فيما ذكرت
- لانا اذن لاعقيدة لي ! ! — أأأذن لي أن أقول كل شيء ؟

— قل . — أصحاب العقيدة في شيعة العراق اربعة رجال هم : مسلم بن عوسجة ، وحبيب بن مطهر ، وسويد بن المطاع ، ويحيى بن عروة .
— والباقون ؟

— أما الباقون ، فالريب يملأ نفوسهم ، واذا اجتمعوا ، فأنما ، يجتمعون بالجسم ، وروح الدعوة .. روح الثبات في المبدأ ، بعيدة عن دار سليمان . .
فقال شبت في نفسه : صدق الربيع . . . اني انا شبت بن ربيعي ، رجل الحرب وفارس الخيل ، لاهم بأمر حتى احس بداء التردد يشل قواي . . ثم قال :
هب ان الأمر كما وصفت فماذا ترجو ؟

— ان عبد الرحمن سيتزوج بعد ستة اعوام ، فأننا ارجو ، ان يسمي عمرو بن الحجاج في خلال الأعوام الستة ، من انصار معاوية . . — واذا حدث ماتقول ؟
— يقوم الجفاء ، مقام الولاء ، بين مسلم وابن الحجاج ، ثم يمنع مسلم عبد الرحمن ، من أن يتزوج ابنة عدوه ! .

— وتظن ان امامة ترضى عندئذ بأن تزف اليك ؟

— ليس لي ان اظن شيئاً الآن فكل آت قريب .

— وعلى اي امر عولت الآن ؟ — على ما قلت ..

— وتجاهر بالعداوة ؟

— بل اظهر بمظهر الصديق الذي نسي ما مضى حتى تأتي الساعة ...

وكان شبت ، ضعيف الارادة كما رأيت ، كثير التقلب في عمله ورأيه ، يمشي في هذا الصف ثم يتحول بعد حين الى الصف الآخر ، وهو في قلبه قوي الساعد .
ولكنه لا مبدأ له ...

والناس يعرفون الشيء الكثير عنه ، وماضيه ، مع علي ، ومع الخوارج تردده الأفواه ، ولكنهم كانوا يرغبون في الدنو منه ، طمعاً بسيفه ...
ولو استطعت ان تقرأ ما في نفسه ، لرأيت ان اخلاصه لآل علي اخلاص متداع واهي الدعائم مزعزع الاركان .

من اجل ذلك لم ينه الربيع عما يهيم به ، إلا ذلك النهي الضعيف الذي لا قوة فيه

ولا سلطان .. وقد اكتفى بأن يقول ، قبل ان يترك ولده :
 دع عبد الرحمن وامامة . ودع بني هاشم وبني امية ، الى يوم تنقلب فيه
 الحال ، ويتسع المجال . واكتفى الربيع بأن يقول :
 والله لو حارب معاوية آل علي ، لمشيت في طليعة جيشه !! .



٣٢

انتهى كتاب أمير المؤمنين الى مروان بن الحكم ، ذلك الكتاب الذي يوليه
 له أمر المدينة ، ويعزل سعيداً ، ويأمره بأن يقبض ماله ويهدم داره .
 وكان سعيد قد وضع كتابي معاوية عنده ، وفي الكتابين أمر صريح ، بأن
 يهدم دار مروان ويقبض أمواله ! فلما قرأ مروان الكتاب قال لقومه :
 هذا أمير المؤمنين يأمرني بأن أهدم دار سعيد ، وسأفعل الليلة . .
 فقالوا له : بل تصبر الى الصباح فذلك خير لك .
 فبات ليلته ، ثم مشى في صباح اليوم الثاني والناس وراءه حتى بلغوا دار ابن
 العاص فأطل سعيد فرأى القوم ، فقال لمروان : أي شيء هذا يا أبا عبد الملك ؟
 قال : لقد عزلك أمير المؤمنين وولاني . . قال : سمعت وأطعت ثم ماذا ؟
 -- وكتب الي "أن أقبض مالك وأهدم دارك .
 قال : أو تفعل ؟ -- نعم ولو كتب اليك في هدم داري لفعلت .
 قال : ما كنت لأفعل هذا ولو قتلت .
 قال : بلى والله . قال : ائذن لي أحدثك ساعة .
 فدخل مروان الدار ، وجلس ، وجلس بعض أولاده بالقرب منه .
 فقال سعيد لعلامه : اثني بكتابي معاوية .
 فجاء بها فقال : خذ واقرأ يا ابن العم . .
 فلما قرأها اكفهر وجهه وارتجفت شفتاه ، ثم قال :

كتب اليك فلم تفعل ولم تعلمي ؟ !

- أجل ، وإنما أراد معاوية ان يوغر الصدور .

فقال انك والله خير مني ، والله لا أهدم لك داراً ولا اقبض مالا بل اعود

من ساعتي . وقام فزجع .

فكتب سعيد الى معاوية :

العجب بمما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا يرضنُ بعضنا على البعض الآخر . .

العجب من حلم أمير المؤمنين ، وصبره على مايكره ، وادخاله القطيعة والجفاء

بين أبناء العم ! ! أما والله لو لم نكن أبناء أب واحد لما اجتمعنا على نصره

عثمان الخليفة المظلوم ، وكان حقاً عليك يا أمير المؤمنين أن ترعى ذلك . .

فأجابه معاوية يعتذر ، وقد جاء في كتابه : سنعود الى أحسن ماتعهد .

فقدم سعيد دمشق واستأذن على معاوية . وكان قد استأذن قبله ، شاب

طويل القامة صغير العينين أسمر الوجه فسأل عنه فقيل له :

هذا عبيد الله بن زياد .

ثم أقبل حاجب الخليفة يقول : ادخل يا ابن العاص .

فدخل ، ورجال معاوية يقص بهم المجلس .

فمدَّ معاوية يده مبتسماً وجعل يقول : أهلاً بابن العاص . . . كتبنا اليك ولم

يخطر لنا أنك ستجيء . . . نعم سنعود الى أحسن ما تعهد . . . اجلس .

ثم اختفت تلك الابتسامة ، وحوّل نظره الى عبيد الله قائلاً :

انت ابن زياد ؟

وقد بدأ عندئذ دور الاختبار . . فقال عبيد الله : نعم يا أمير المؤمنين

قال : لقد ذكرناك منذ أيام وقام في الذهن انه لا بد لك من أن تأتي دمشق .

وأمره بالجلوس ثم قال : من استعمل أبوك على الكوفة ؟

- ان أمير المؤمنين يعلم ما أعلم . قال : يعلم أمير المؤمنين كل شيء ويطلب

له ان يسأل . . قل من استعمل أبوك على الكوفة ؟

- عبد الله بن خالد . - وعلى البصرة ؟

- سمرة بن جندب وقد عزلته . قال : لو استعملك أبوك لاستعملناك ..
 فرفع صوته قائلاً : أخشى أن يقول لي أحدٌ بعدك . .
 ثم سكت . . فقال : يقول ماذا ؟
 — يقول لو استعملك أبوك وعملك لاستعملتك .
 فأعجبه جوابه فقال : لقد كان أبوك سيد العمال والولاة .
 قال : وإني ابنه يا أمير المؤمنين . . فأشرق جبينه وهامس سرجون قائلاً :
 والله سأكتب له الليلة عهداً على خراسان .
 قال : حسناً تصنع فأنا أرى همة زياد وفصاحة لسانه ..
 قال : وإذا رضي أمير المؤمنين عن عمله ولأهـ البصرة في العام المقبل .
 — وسعيد بن العاص ؟
 — أما سعيد فيستطيع أن يروح ويحيى في دمشق ريثما انظر في أمره .
 — وهمت يا أمير المؤمنين بعزل عبد الله بن عمرو عن البصرة .
 — أجل فنحن نريد عمالاً أقوياء يهدون أسباب البيعة ليزيد ولم يكن عبد الله
 من هؤلاء فقد خبرناه . — ومتى تدعو الناس الى المبايعة ؟
 — في هذين العامين فقد اتت الساعة ونحن نخشى أن نرحل عن الدنيا قبل
 أن نفعل .
 وكان عبيد الله ينظر الى الاثنين وقلبه يضطرب في صدره فالتفت اليه معاوية
 وقال : اذن تخاف أن يقول لك احد بعدنا ما قلناه لك الآن .
 — نعم يا مولانا . — اتعرف بلاد فارس ؟
 — لقد نشأت وتعلمت فيها ركوب الخيل وحمل السيف .
 — وخراسان ؟ — وكنت في خراسان واحداً من اهلها وأنا غلام ..
 قال : اكتبوا له عليها عهداً .. ولكن نوصيك بأن تتقي الله ولا تؤثرن على
 هؤلاء شيئاً وإذا أعطيت عهداً فف به . — سأفعل ما تأمرني به يا أمير المؤمنين .
 — ووفر عرضك من أن تدنسه ولا تبعن كثيراً بقليل ولا تطمعن احداً في
 شهر حقه ولا تؤيسن احداً من خلقه . . وخاطب الناس قائلاً :

هكذا فليفعل كل مسلم . فدنا منه عبيد الله يريد أن يقبل رداؤه .
فمد اليه يده فقبلها وهو يقول : ستعلم يا امير المؤمنين أن زياداً لم يميت ..
قال : هذا ما نريده فانصرف الى عملك واعلم أن لك وللمسلمين في خراسان
طائفة من الاعداء . فقال الناس في نفوسهم :
إذا كان الولد سر ابيه فالويل لك يا خراسان ..

وخرج عبيد الله فبات ليلته في منزل مسلم بن عقبة ، وبدأ الناس عند الصباح
يسلمون عليه بالامارة ، ثم انصرف والامل يملأ صدره بأنه سيصير والياً على
الكوفة بعد حين . ومكث سعيد بن العاص اياماً بدمشق ومعاوية يعده بالامارة
حتى مل ، فقال له : اتأذن لي في الرجوع الى الحجاز ؟
— اختر اي بلد شئت فسيأتيك امرنا . فعرف الرجل أنه سيعود صفر اليدين
ولكنه لم يشأ أن يغضبه لأنه كان يعلم أنه سيأتي يوم يوليه فيه ...



٣٣

نحن اليوم في السنة السادسة والخمسين .
وقد عزل معاوية عبد الله بن عمرو عن البصرة ، وولى عبيد الله بن زياد ، وهو في
الوقت نفسه عامل له على خراسان . وكان الجو في مطلع ذلك العام ، صافياً في نظر
معاوية ، والسلام يبسط جناحيه على الاقاليم .
والناس في كل بلد ، مستسلمون الى الهدوء ، خاضعون دون ان يترددوا أو
يثوروا لكل ما يأمرهم به امير المؤمنين .
وكانت ولاية العهد ، تمكر على الخليفة الأموي صفو عيشه ، وهو يعلم ان هذا
العيش لا يطيب له ، إلا اذا رأى الناس بميليه وسمعمهم بأذنيه يبايعون ابنه ،
واية حكمة تقضي عليه ، بأن يصبر اكثر مما صبر ، وهو في الخامسة والسبعين من
عمره ، ونفوذه يملأ الخافقين وسادات العرب وامراؤها يحنون رؤوسهم له ؟ لله

أتت ساعة المباينة فليتمجمل فيها معاوية قبل ان يغمض الموت عينيه ، وقبل ان تمتد الى الخلافة ايدي الهاشمين ..

أفاق يوماً وهو يفكر في الأمر ، وقد قضى ليلته يستعرض ميول الأمراء في جميع الأقاليم حتى عول على المضي فيه ، في ذلك اليوم .

فقال لغلمانه : ادعوا الوزراء وامنعوا الناس .

فأقبل وزرائه وهم يعلمون انه يدعوهم من اجل ولاية العهد .

وكان وجهه ضاحكاً في ذلك الصباح ، والعزيمة الصادقة بادية في عينيه .

فقال لهم : ليكتب كل واحد منكم كتاباً الى عامل من عاملنا يدعو الى الثناء على يزيد ويسأله ان يوفد الوفود الى دمشق ، واكتب انت يا سرجون الى مروان بن الحكم دون ان تحيي في الكتاب على ذكر يزيد .

فتردد سرجون في الكتابة ، فقال معاوية : اكتب وانا أملي عليك :

لقد كبرت سني يا مروان ، ودق عظمي ، وخشيت الاختلاف على الأمة ، وقد رأيت ان أتخير لهم من يقوم بالأمر بعدي وكرهت ان اقطع امراً دون مشورة من عندك ، فاعرض ذلك عليهم واعلمي بالذي يردون عليك ، والسلام .

ثم قال : تبعت بهذا الكتاب الى مروان ، وبمئة الف درهم الى عبد الله بن عمر بن الخطاب ولا تنس ان تكتب الى الأحنف بن قيس ليحيي في وفد اهل البصرة فهو من اصحاب الرأي وله كلمته المحترمة في العشائر .

وقال لرجل آخر : واكتب انت الى محمد بن عمرو بن حزم في المدينة فانه مثل الأحنف في البصرة .

فلما انتهوا من كتابة ما امرهم به قال : لم يبق إلا ان نصبر هذا الشهر وبعض الشهر الآخر ريثما ترد رسائل القوم وتحيي الوفود .

ومر شهران ، فأتى جواب مروان يقول فيه : ان القوم يحبون ان تتخير لهم . فكتب اليه ليدعوم الى بيعة يزيد .

فقام مروان فيهم خطيباً قال : ان امير المؤمنين قد اختار لكم وقد استخلف ابنه يزيد بن معاوية بعده فما تقولون ؟

فقال احد اصحاب الشأن : « وبعضهم يقول انه عبد الرحمن بن ابي بكر ، وكان عبد الرحمن قد مات » . كذبت والله يا مروان وكذب معاوية ما الحيار اردتما لأمة محمد ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل ! وقام الحسين بن علي فأنكر ذلك .

وفعل مثله عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .
وكان ابن عمر يقول : أراد معاوية ان يشتري ديني بمئة الف درهم ، ان ديني عندي اذن لرخيص .

فخبر مروان معاوية بكل ذلك ، فقال لخاصته : هذا ما كنا ننتظره من اهل الحجاز فليفعلوا مايطيب لهم الآن فهم لا يلبثون حتى يروا امير المؤمنين في المدينة ، وكان محمد بن عمرو بن حزم والأحنف بن قيس قد حضرا .
وأقبلت بعدهما وفود الأقاليم بينها الرؤساء والزعماء الذين كان معاوية يحود عليهم بالمال كل عام ، فأراد الخليفة أن يسبر الغور ، فقال لمحمد بن عمرو :
مارأيك في يزيد ؟

قال : كل راع مسؤول عن رعيته فانظر من تولي أمر امة محمد .

فسكت قليلا ثم أمره بأن يلحق به الى قاعة الجبابة .

فلما فعل قال له : لك رأي ولنا رأي .

— وما هو رأيك يا أمير المؤمنين ؟

— هو أن تأخذ هذا المال الذي نهبه لك الآن ، وتنصرف راجعا الى بلاد قومك دون أن تقول كلمة اخرى .

فلم يزد على قوله : سأنصرف اليوم يا أمير المؤمنين .

— بل الساعة . قال : الساعة .

فأمر سرجون بأن يعطيه عشرين ألفاً وعاد الى مجلسه الذي يغص بالناس .

وكان يعلم ان الأحنف لا يحب عبيد الله بن زياد ، والى البصرة الجديد ، وان عبيد الله لا يحب الأحنف ، ولا يطيق ان يذكره أحد وهو حاضر ، ومعاوية لا يعبأ بمثل هذا فللأحنف ان يحب من يشاء ، ولعبيد الله ان يبغض من يشاء . !

كانت غايته واحدة .. هي ان يؤمن الناس بعدالته ، ويستسلمون الى مشيئته . ويخضعوا له دون قيد ولا شرط ! بل كانت غايته ان يسلم الى يزيد صولجان الخلافة ، ثم ينزل بعد ذلك الى قبره ، وابتسامة الظفر على شفتيه ، وأي شيء يريده الخليفة الداهية ، من الاحنف بن قيس ، اذا هو ابغض ابن زياد ؟ أيريد أن يجعل الناس مخلصين لعبيد الله اخلاصهم للخليفة . ويسير عاطفتهم الى الهدف الذي يتجه اليه هو ، أم يريد أن يفعلوا ما يطيب لهم على شرط أن لا تمتد لهم يد الى فتنة ، ولا يرتفع لهم صوت عند العرش .. ؟ انه لا يبالي الا بهذا ، وقد يفتر ثغره عندما يعلم ، ان وجوه الناس ، يبغض بعضهم البعض الآخر ويمشي كل واحد منهم في صف ، اجل وان البهجة لتملأ قلبه عندما يدب الحسد في صدور القوم وتكثر الوشاية في الاقاليم ، وليس في ذلك شيء من الغرابة ، فالوشاية معناها الاختلاف ، ومعنى هذا الاختلاف أن الناس يتسابقون الى المناصب ، وانهم راضون عنه في خلافته ! وهو يعلم ان منزلة الاحنف في البصرة ، وفي معظم العشائر في العراق ، لا تذكر معها منزلة عبيد الله بن زياد ومنزلة الامراء الذين يجعلهم عمالاً له ، نعم من حق عبيد الله ان يطيعه الاحنف لانه عامل الخليفة ، وليس للمرء مهيا يكن شأنه ، ان يخرج عن الطاعة ، ولكن ليس من حق احد ان يكلف الناس ما لا يطيقون ..

كان الاحنف ، بعيداً عن زياد ابن أبيه ، وهو عامل البصرة ، ترجع أسباب ذلك البعد ، الى قسوة زياد وظلمه ، وجفائه وكبرائه ، وسيد بني تميم لا يمد يده الى الوالي الظالم المستبد ، وجاء عبيد الله ، فظل الاحنف بعيداً عن قصر الامارة كما كان بعيداً وزياد حي ، ونقل المقربون الى الوالي ، أولئك الذين يحرقون بخورهم على الاقدام ، ان السيد التميمي غير راغب في ولايته ، وانه أرفع من أن يخضع له . فتشأ البغض ، ورددت الافواه اخباره ، فابتسم الاحنف ابتسامة السخرية والاستخفاف ، وكان يقول كلما ذكر عبيد الله : هذا هو الوالي المغرور .

ولكنه لم يفكر قط في الخروج عما دخل فيه قومه .

ومعاوية لاتفوته ظاهرة من ظواهر الرؤساء والامراء ، على انه كان يؤثر الاحنف على مئة رجل مثل عبيد الله .

ولماذا لا يفعل ذلك والاحنف عظيم عشيرته ، وهو رجل الحرب والرأي ، في حين أن عبيد الله فتى غرّ لا يطيّب له إلا أن يقتني آثار ابيه ، واذا غضب ابن زياد ، لا يتجاوز غضبه صدره ، وأما الاحنف ، فاذا غضب ثار بنو تميم وعمدوا الى السيف ، وان هنالك شيئاً آخر لا يستطيع معاوية إلا أن يقف عنده ، هو أن الاحنف بن قيس ، يرفع الرؤوس ويخفضها عندما يشاء ، ويسند المبايعه ويزعزعها عندما يشاء ، وابن زياد لا يستطيع ان يفعل شيئاً من هذا .. يقوم معاوية غداً فيدعو الناس الى البيعة ، فيقوم الأحنف خطيباً في قومه قائلاً : لا نبايع بني امية ، وتمشي وراءه طوائف الناس ، ثم تمشي معهم الفتنة ، ثم تمتد .. حتى تنتهي الى الحجاز واليمن ، وقد تبلغ الشام ، ولا يبقى عندئذ إلا أن يزحف جيش الخلافة الى إخماد النار في جميع الاقطار . وهذا ما لا يريده امير المؤمنين ، فخير له اذن ، ان يضع يده على النبض . ثم يهب المال بدون حساب حتى يستقيم له الأمر ، وهذا ما فكر فيه ، عندما دعا وفود الناس ، الى دمشق .

وكان انصار البيعة كثاراً في مجلس الخليفة ، في ذلك اليوم ، ولكنه كان يخشى ان تخرج كلمة من فم الأحنف تفسد عليه ما يهيم به ، فلما رجع من قاعة الجباية ، واستوى في سريره ، هامس الأحنف قائلاً له : إن شئت فادخل على يزيد . فعرف سيد بني تميم ، وهو العاقل الحكيم ، ان الخليفة يريد ان يجعله من المقربين الى يزيد ، قبل ان يبايعه الناس ، فقام فدخل دون ان يقول كلمة . وساد السكوت القوم ، ومعاوية مطرق يعبث بلحيته حتى اقبل يزيد والاحنف خلفه والابتسامة على الشفاه .

فرفع معاوية رأسه وقال للضحّاك بن قيس الفهري : ادن . فدنا منه ، فقال وصوته لا يُسمع : إني متكلم الآن ، فاذا سكت ، فكن انت الذي تدعو الى البيعة وتسالني ان اقمجل فيها ، أفهمت ؟ قال : فهمت يا امير المؤمنين .

فقال للأحنف ، على مسمع من الناس : كيف رأيت ابن أخيك ؟

قال : رأيت شاباً ونشاطاً وجلداً ومزاحاً ..

قال : لقد علمت جميعكم فضل الاسلام وحفظتم حرمة الخلافة وحققها وما أمر الله به من طاعة الخليفة والولاية ، وانكم تعلمون فضل يزيد وعلمه بالسياسة ...
فعارضه الضحاك قائلاً : يا امير المؤمنين ، انه لا بد للناس من والٍ بعدك ..
وقد بلونا الجماعة والالفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهاء وخيراً في العاقبة .
ويزيد ابن امير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت ، وهو من أفضلنا علماً وحلماً وأبعدنا رأياً ، فولته عهدك واجعله لنا علماً بعدك نلجأ اليه ونسكن في ظله ..

وقام عمرو بن سعيد الأشدق فقال مثل قوله ..

ثم قام يزيد بن المقنع العذري فقال : هذا امير المؤمنين ، وأشار الى معاوية ،
فان هلك فهذا ، وأشار الى يزيد ، ومن أبى فهذا ، وأشار الى سيفه ..
فقال معاوية : اجلس فأنت سيد الخطباء .

وتكلم بعدهم وجوه الناس يسألون الخليفة أن يدعوهم الى بيعة يزيد ويلجئون في الطلب كأن معاوية لا يريد ذلك ..

فقال للأحنف : ماتقول يا أبا بحر ؟

فقال : نخافكم ان صدقنا ونخاف الله إن كذبنا !

قال : وماذا تريد أن تقول ؟

— إنك يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد ، في ليله ونهاره وسره وعلايته ، ومدخله ومخرجه ، فان كنت تعلمه الله تعالى وللأمة فلا تشاور فيه وان كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر الى الآخرة ...

وسكت قليلاً ثم قال : وانما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا ...

— وانتم يا أهل الشام ماتقولون ؟

فقال رؤساؤهم : ليس عندنا الا السمع والطاعة .

— وأنتم يا أهل الكوفة ؟ — ماتريد غير يزيد يا أمير المؤمنين .

— ولكن هنالك من يريد غير .. — في الكوفة ؟
 — أجل في الكوفة . . — ان الذين لا يرغبون في هذا يعرفهم الخليفة .
 — نعم نعرفهم جميعهم ونعلم ماذا يصنعون .. افلا تعرفهم أنت يا أبا بحر كما نعرفهم نحن ؟

قال : لم احدث أحداً بهذا ولم يحدثني به أحد .
 قال يكفي أن جميع الوفود بايعت الآن وسننظر بعد حين ، في أمر المترددين الذين لم يرسلوا وفودهم الى الشام .

فقال الضحاك بن قيس : اذن ينظر أمير المؤمنين في أمر الحجاز . .
 فجعل يقول : الحجاز ... الويل للحجاز وأهله من يوم يضيق فيه الصدر . .
 قالها ومشى الى منزله كأنه يأمر الناس بالانصراف ، فتفرقوا ، وجعل الامراء والرؤساء يرددون قول الاحنف ويتحدثون بأمر جرأته وثبات جنانه . .

٣٤

غادرت الوفود دمشق ، راجعة الى المدن والقرى التي خرجت منها ، وهي ترى ان أمر المبايعة قد انتهى ، وبنو امية وانصارهم ، في كل اقليم ، يتحدثون بذلك الامر ، ويقولون للناس : ستبقى الخلافة الى الابد ، في بيت معاوية الاموي .
 والفرح يملأ القلوب ، والفتيان والغلمان ، في الشام والعراق ينشدون اناشيد النصر ، ويرفعون أصواتهم بالدعاء لولي العهد ، الارجال الشيعة ، فقد استولى عليهم الذهول ، وكاد اليأس يدب في الصدور . .

كانوا يحاربون معاوية من وراء الستار ، وينشرون دعوتهم في ظلام الليل ليزعزعوا أركان العرش ، وهم مؤمنون بانهم سيملقون الغاية ، ولكن معاوية فاجأهم بالبيعة ، وجعل ولده خليفة بعده ، لايبالي ببقية الصحابة والانصار اصحاب الحق في الولاية ، ولا يعبأ بأولئك الامراء ، أبناء الخلفاء ومن وراءهم

من اتباع ، وهذه البيعة ، صاعقة تنقض على رأس الشيعة ، وقذيفة ارسلها صاحب العرش ، لتمحو آثار خصومه من الوجود ، ورجال الشيعة في الكوفة ، فثتان كما رأيت ، فئة ضعيفة المبدأ ، ضعيفة الايمان ، والاخرى قوية ثابتة في العقيدة والحب ، تنقض الصواعق ولا تراجع الى الوراء .

على رأس الفئة الاخيرة مسلم بن عوسجة ، يقابله من الناحية الاخرى ، شبت ابن ربعي وولده الربيع ، على ان مسلماً ، لم يكن يعلم ، ولا يعلم رجاله ، ان الخوف يتردد في صدور اولئك الرفاق ، فلما انتهى الى الكوفة أمر البيعة ، اجتمعت الشيعة في منزل سليمان ، وقام هانيء بن عروة ، يقص على الرجال ما جرى ، يوم المبايعة ، في مجلس امير المؤمنين ، وكان قد عرف كل شيء ، من رجل يتشيع للأمويين ، وكان في دمشق .

فقال سليمان : وما الرأي الآن ؟

فاجابه شبت قائلاً : لم يبق للشيعة رأي في هذا لأن كل شيء قد انتهى الآن . قال : لقد استقام الأمر لبني امية بعد البيعة ليزيد .

فابتسم وقال : وهل خرج هذا الأمر من يدهم قبل البيعة ؟ — لا .

— اذن ليس في القضية شيء جديد ، ونحن نعلم منذ بضعة أعوام ، ان معاوية يفكر في جعل يزيد ولياً للعهد . وكنا نحن نفكر في أمر آخر .

— ما هو ؟ — هو أن نولي الحسين بن علي أمور المسلمين .

— لقد رجعت الآن يا سليمان الى ذكر السيف .. — وأي سيف هذا ؟

— سيف الحرب فانت لا تقدر على ما تقول إلا اذا برزت الشيعة الى الميدان ،

ورفعت الحسين ، الى عرش الخلافة ، بقوة الرجال .

فقال مسلم : أصاب شبت ، فالقوة وحدها في هذا الزمان تهدم عرشاً وتبني

آخر .. ثم قال لمروءة : من هو ذلك الاموي الذي حدثك بأمر البيعة ؟

— رجل من كندة . — وكان حاضراً ؟

— أجل ، وسمع أقوال الخطباء وأقوال معاوية .

— وذكر لك اسماء الأمراء الذين بايعوا ؟

- ذكر لي وفود العراق كله وأهل الشام . — والحجاز ؟
- لم يكن من وجوه الحجاز غير محمد بن عمرو بن حزم وهذا لم يبايع بل انصرف بأمر معاوية ، قبل البيعة . — والأحنف بن قيس ؟
- أما الأحنف فلم يشأ ان يكون من اصحاب الرأي بل سلم الامر الى معاوية . قال : اذا كان هذا فيزيد سيكون خليفة الشام والعراق ليس غير .
- ومصر ؟ — لم تبايع ، كما ان اليمن وفارس لم تبايعا .
- ولكن الولايات الثلاث الذين ذكرت ستبايع غداً أو بعد غد .
- ومن قال لك ذلك ؟
- الكندي ، وقد زاد على ما قال ان معاوية سيسير بنفسه الى الحجاز ويدعو أهله الى ما دعا اليه أهل هذا القطر .
- فالتفت مسلم الى سليمان قائلاً : أتظن ان ابن الزبير وابن عمر بن الخطاب ، والحسين يبايعون ؟
- فتردد قليلاً ثم قال : من يعلم فقد تشتعل النار من أجل هذا .
- فقال شبت : بل يبايعون مكرهين ، فليس في الحجاز كله رجل يحسر على ان يخالف معاوية اذا حضر .. — هب انهم خالفوه ..
- اذا فعلوا حصدهم السيف فابن ابي سفيان لا يصبر على هذا ولا يخضع لقوم هم أضعف منه .
- قال لقد فكرت الآن في أمر آخر هو أنهم سينقضون البيعة عندما يلفظ معاوية الروح . قال : هو ذاك وليس لنا أمل الا بهذا ... ماذا تقول يا عمرو ؟
- فقال ابن الحجاج : أرى ماتراه أنت فاذا طلبت الشيعة اليوم أمراً فاجأها معاوية بالجيش .
- وكان عبد الرحمن بن مسلم في القوم ، فقال : أتأذنون لي أن اقول كلمة ؟
- فقال سليمان : ماذا يا عبد الرحمن ؟
- أرى ان تكتبوا الى الحسين تسألونه الرأي . .
- وماذا يقول الحسين ان سأله ؟ أيدعونا الى حل السيف وهو يعلم اننا فئة

لليلة لا تثبت في الساحة ؟ بل ينظر في المباينة فيأمركم بأن تبايعوا او تمتنعوا .
فابتسم الربيع بن شيث ابتسامة أخفى وراءها آثار حقه ثم قال : لو اراد
الحسين أن يحارب البيعة لأمر أنصاره بأن يفعلوا .

— وهل كان يعلم من قبل أن معاوية سيدعو الناس ؟

— اجل كما أن اهل الحجاز جميعهم يعلمون ذلك .

فقال شيث : اتركوا الحسين فاذا عرف معاوية اننا كتبنا اليه تسوء العاقبة .
فقال عمرو : هذا هو الرأي . . .

فخفف هانيء بن عروة صوته قائلاً :

أريد أن أسألك سؤالاً أرجو ان تجاوبوا عنه .

فقال سليمان : وما هو سؤالك ؟

قال : يقوم في الذهن أن معاوية سيأمر عامل الكوفة غداً بأن يأخذ البيعة
من رجال الشيعة .

فقال شيث : أنا أتولى أمر الجواب . . نعم إن معاوية سيفعل ذلك وسيأمرنا
هامله بأن نبايع . — وبماذا نجيب ؟

— نعطي البيعة وينتهي الامر . — ثم تنتقضونها غداً ؟

— من يعلم فقد تنتقضها أو نبقي على العهد . .

— اذن فنحن الآن من أنصار بني امية .

— نحن كذلك في الظاهر أما في الباطن فلا .

قال : والله لا أباع ولو مثلت بين يدي الجلاد الذي ضرب عنق حجر بن
هدي . — وما يكون عذرك ؟

— أرحل عن الكوفة الى بلد لا يعرفني فيه أحد . .

— وبعد ذلك ؟ — ولا ارجع الا عندما يحمل بريد الشام نعي معاوية .

وهكذا قال سويد بن المطاع وحبيب بن مطهر .

فقال : ولكنكم ترجعون بعد موته . . .

-- وإذا رجعنا ؟ -- تجدون خليفة آخر هو يزيد . .

وانقسمت الآراء . . هذا يرى رأي شبت وهذا يرى رأي مسلم حتى رجعت كفة الاول وكثر انصاره : سليمان ، وعمرو بن الحجاج ، والضحاك بن عبد الله ، وشبت بن ربعي ، مع اكثر من ثلاثين رجلاً ، في صف ، ومسلم وسويد ابن المطاع وحبيب بن مطهر وهانيء ، في صف آخر ، الاول يؤثر الظهور بمظهر الرعية الخاضعة للسلطان ، والثاني يؤثر الفرار والاستخفاء على المباينة حتى يقضي الله بما شاء . . .

ثم ارتفعت الاصوات ، فقام هانيء فقال : خير لنا أن نتكلم بهدوء فرجال الشرط يدورون حول الدار وهم يحصون علينا الانفاس . . فقال مسلم : ذلك ما كان يفعله زياد . . ومع ذلك فالسكوت الآن اول ، وسنجتمع يوم ندعى الى بيعة يزيد .

ثم قال : قوموا ننصرف فنحن على رأي واحد وسيأتي يوم نفعل فيه ما يملئ علينا الاخلاص للحسين وآل بيته . فقال الربيع بن شبت في نفسه : وسيأتي يوم يعرف فيه الخليفة أنك من أعدائه . وتفرقوا تلك الليلة ، على أن لا يعودوا الى الاجتماع في منزل سليمان إلا اذا دعاهم عامل الكوفة الى البيعة .



٣٥

تحدث الناس ، بأمر البيعة . في المنازل والاسواق ، كما رأيت ، وكان انصار بني أمية ، يصفون في المساجد ، ولي العهد ويذكرون فضله وعلمه ، وخبره سياسة الملك .

حتى ان النساء والعلماء جعلوا يزيد بن معاوية حديثاً لهم ، في نهارهم وليلهم ، والرواح والمجيء ، وكان مسلم ، وابن الحجاج وهانيء ، يذكرون في اليوم الثاني ،

ما كان من أمر البيعة ، وهم في منزل ابن عروة ، وعبد الرحمن معهم ، فلما انصرفوا الى المسجد ، عند المساء ، قالت خولة لعبد الرحمن وقد بقي في المنزل : ماذا جرى أمس ؟

— في منزل سليمان ؟ — نعم .

— ألم يخبرك عمرو بما جرى ؟ — خبرنا بذلك ويطيب لنا ان نسمعه منك .

قال : كثرت آراء القوم في الليل الماضي . — وما هي هذه الآراء ؟

— يقول بعضهم ان المبايعة أمر لا بد منه ، ويقول آخرون لانبأبع بني امية ولو وضعنا على النطع .

فقالت سلمى : هذا خبر لم نعرفه .. ومن هو صاحب الرأي في المبايعة ؟

— شبت بن ربيعي . — وعمرو ؟ — وكان عمرو من رأيي ..

فالتفتت الى خولة قائلة : يبأيعون ابن معاوية وهم أنصار علي ؟

قال : ذلك دهاء يريدون معه اخفاء أمر الشيعة .

— ووافقهم هانيء فيه ؟

— لا ، بل كان مع أبي في صف آخر ، ثم انصرف القوم على ان يجتمعوا يوم

لطلب البيعة منهم ، ثم قال : ولكن خيل الي أن في الشيعة عدواً لي ..

فقالت امامة : من هو ؟ — الربيع بن شبت . — وكيف عرفت ذلك ؟

— دلني عليه لسان من نار أرسلته عيناه ...

فأطرقت وجعلت تفكر في الأمر .

فقالت خولة :

انها عداوة نعرف معناها وستضمحل كما تضمحل سحابة الصيف . .

— أما انا فقلبي يحدثني بانها باقية . . — لماذا ؟

— لان النظرات التي وجهها الي نظرات حقد . . — وانت تخافه ؟

— لم يخف مسلم بن عوسجة أحداً قط وولده عبد الرحمن مثله .

— اذن فليبيض ما طاب له البغض فنحن لانبألي به .

— ولكنني أخشى ان يفضح أمر الشيعة ويبوح بالأسرار . .

- قالت من الرأي أن تخبر أباك ومن معه من الرجال . . .
- قال : اذا فعلت دب الخلاف في الصفوف . — وماذا تصنع ؟
- أحذر الربيع وأحصي عليه الانفاس . — وهذا يكفي ؟
- أجل ، وسأتصدى له عندما تبدر منه بادرة لؤم .
- فقالت امامة : واذا مدّ اليك يد سوء . . .
- اقطع هذه اليد وليفعل شئ بن ربيعي بعد ذلك مايشاء .
- ومرت ساعة ، والفتى يحدث النساء الثلاث ، والدمع يحول في عيني امامة
- فقد خافت الربيع على عبد الرحمن .
- وكان مسلم قد عاد من المسجد وانتهى الى الرواق .
- فسمع ولده يقول : يقولون ان ابن ربيعي من أبطال المسلمين الذين عركتهم
- الحرب . . . ولكنهم لا يقولون انه جبان ضعيف القلب في منزل سليمان ...
- فدخل مسلم فقال : بماذا تصف ابن ربيعي يا عبد الرحمن ؟
- فاضطرب ثم قال : اذكر ضعفه يا أبي .
- وفي أي موقف ظهر لك هذا الضعف ؟
- في جميع مجالات المشورة والرأي التي تضم رجال الشيعة .
- فقال وهو يضحك : أما أنا فلم أرَ ضعفه ويطيب لي أن تدلني على موضعه .
- قال : أسألك عن هانيء وعمرو قبل أن أفعل .
- هما وراء المسجد يتمشيان مع حبيب بن مطهر ، وابن المطاع ولماذا
- تسألني عنها ؟
- لاني لا أريد ان اذكر ما أعلم الا لك . — وماذا تعلم ؟
- اعلم أن ابن ربيعي يتصدى لرجال الشيعة كلما همّوا بان يحملوا السيف .
- وتظن أن الضعف يوحى اليه بما يفعل ؟ — نعم .
- اخطأت فشئت من أشجع الناس ، واذا عدت الرجال وابطال الحرب،
- في العراق كله كان هو في الطليعة .
- ومع ذلك فاذا ذكر السيف تردد في حمله وحل الآخرين على الانسحاب..

وهذا ما يفعله كل يوم .

قال : ذلك هو الرأي فنحن أضعف من أن نبلغ الغاية بقوة السيف بل نحن اعجز عن الثبات في وجه معاوية .

- ولكني أراك تذكر سيفك كلما ذكر الدفاع عن آل علي .

- افعل ذلك من أجل غاية واحدة . - ماهي ؟

- هي ان أظهر لرجال الشيعة ، ان أنصار علي ابطال مجربون ، يبرزون الى الساحة عندما تقضي الحاجة بهذا البراز ، دون ان يترددوا في الامر .

- اي أن الدهاء وحده هو الذي يدعوك الى ذكر سيفك .

- أجل ، وهذا الدهاء يلي عليّ ان انفخ ، في كل موقف ، روح الشجاعة

والتضحية ، في صدور القوم . - إذن فشبت صاحب حق في تردهه ! .

- بل هو صاحب حق في حكته ..

- وماذا يفعل رجال الشيعة اذا اكرهم معاوية على الاعتراف بيزيد ولياً

للمهد ، وأخرجهم عن الحد . - يفعلون عندئذ ما يفعله كل ضعيف .

- ماذا ؟ - يستخفون في الجبال والأودية ليحفظوا رؤوسهم ..

- وتستخف انت يا ابي ؟

- أما انا فإذا اكفهر الجو ، وعمد الخليفة الاموي الى الشدة ، خرجت الى

المدينة لاجئاً الى الحسين ، ثم أدافع عن نفسي ، وعيناه تنظران اليّ ، حتى

اموت !! وحسي ان ألفظ روحي عند قدميه ...

- ولكن ابن ربي لا يصنع مثلما تصنع . - من قال لك ذلك

فتمت قائلاً : لم يقله احد ولكني واثق بانه .. خائن ! .

قال : اسكت يا عبد الرحمن ولا تقل هذا .

- أقوله لك ثم أسكت الى الأبد ..

- ولكنك عندما تتهم شبت بالخيانة ، تتهم بالوقت نفسه ، أبا أمامة ،

والضحاك ، وسليان ، وغيرهم من الرجال . .

قال : لا يخطر لي ان اتهم من ذكرت . .

— ولكن التهمة تلحق بهم عندما تلحق بشبث فرائهم مثل رأيه ، ولهم نظر واحد لا يتغير ، في جميع المواقف ، كما رأيت .

قال : اذكر بأبي ان لشبث ولدأ يدعى الربيع . — وأي شأن له ؟

— شأنه أن امامة آثرني عليه فهو ينظر الي واليك نظرات البغض ولو استطاع ان يروي بغضه من دماننا لفعل .

قال : هذه بادرة من بواذر الشباب يا بني . .

— بل هو أمر ستمسه بيديك بعد حين ، وانا أخشى أن يكون الربيع ، عينا من عيون معاوية ، ينقل اليه ما يسمع ويرى . .

فقهقه ثم قال : لقد جاوزت الحد في ظنونك يا عبد الرحمن ، ان الربيع لا يعرف معاوية ، واذا خطرت له الحيانة ، كما تقول ، فهو لا يخون أباه .

قال : اعترف لك بأبي بأني خائف . .

— وانا أعترف لك بأنك لاقهم من السياسة شيئا فخير لك ان تحسن ظنك برجال الشيعة دون أن تستثني احداً ، ولاتنس ان الشيعة في هذا الزمن ، احوج الى الاتحاد ، منها في زمن آخر .

ونفض قائلاً لحولة : انظري في أمر الزواج قبل أن تبلغ امامة العشرين فمن الرأي أن نتعجل فيه .

قالت : ليست القضية في يدي فقد أقسمت لعمر و انتهى الامر .

فدنا منها وجعل يقول وسمى تسمع : نحن اليوم في السنة السادسة والخمسين ، وقد بقي أربعة أعوام ، وهذا صعب ، فاسألني عمراً رأيي . .

— ولكن العاشقين راضيان ، وهذا يكفي ، ومع ذلك سأسأل عمراً عندما يحين ، وسيسمع عبد الرحمن كل شيء .

فانثنى وهو يبتسم ، ثم قال لولده : عدني بأنك ستحسن ظنك بالقوم . .

— سأحاول ان أفعل ، ولكنني اعدك بأني لا أذكر لأحد ما ذكرته الآن .

فانصرف ، على ان يعود الى منزل هانيء ، عندما يحن الليل وبعد ساعة ،

اقبل هانيء وعمر بن الحجاج .

فقال خولة لزوجها : لقد سألنا مسلم الآن ان نجعل لزواج امامة ، موعداً أقرب من مواعده الاول ويظهر أن له في ذلك رأياً .

قال : كنا في المسجد مع مسلم ولم يقل لنا شيئاً . .

قالت : خطر له ان يسألنا ذلك بعد مجيئه .

قال : أطلبت أنت اليه يا عبد الرحمن أن يفعل ؟

- لا ، ولكنه احس بالخطر ، فأراد ان يتعجل في الامر .

- وأي خطر هذا ؟

- ذلك الذي يكتنف الشيعة في هذا العهد . - والذي تحدثنا به أمس ؟

- نعم . - أي أنه يخاف أن يكرهنا عامل الكوفة على اعطاء البيعة . .

- ذلك مظهر لي .

- ولكنه خوف في غير موضعه لان معاوية لايعمد الى القوة في اموره

ولا ينفر الناس ولو كانوا خصوماً له . - واذا فعل ؟

- اعطيناه البيعة وسكتنا على غل ، حتى تأتي الساعة التي نخرج فيها عن

الطاعة ونولي الحسين بن علي .

قال : ان أبي لايباع وسيلحق بالحسين اذا طلبت البيعة منه .

- اذن هو يخشى ان ينتقل الى الحجاز ونبقى نحن في الكوفة فلا يتم أمر

الزواج بعد ذلك . فقالت خولة : هذا الذي يخافه . .

قال وهذا هو الضعف . . ايظن مسلم ، وهو من اصحاب الرأي ان وجود

عبد الرحمن في الحجاز ، يمنع ابن الحجاج من ان يزف ابنته اليه ؟

- بل يظن انه اذا ترك الكوفة خسر امامة الى الابد . . .

وكانت خولة تريد عندئذ ان تسبر غور عمرو .

فقال : عاهدت مسلماً على أن تكون امامة لعبد الرحمن ولست ممن ينكثون

العهد . . ثم قال : وهل تريدان أن تتزوج امامة اليوم ؟

فعمرت انه يذكرها بما قالته له ، قبل الخطبة ، فقالت : اريد ماتريده انت .

- اما انا فلا أحب ان يظن شئت بن ربي اني كنت كاذباً فيما ذكرته له . .

قلت اني لا أزوج امامة قبل العشرين من العمر وهو حافظ ماقلت .

— واذا انتقل مسلم الى المدينة ؟

— ينتقل عمرو بن الحجاج اليها عندما تأتي ساعة الزواج . . . فهمت اماما بالكلام فمنعها الحياء ، ولكن اباهما قرأ حياءها على الحدين ، فقال : لا يستطيع معاوية بن ابي سفيان نفسه ، ان يفصل بينك وبين عبد الرحمن ، ولا اقول غير هذا .

قالت : لا اعرف معاوية يا ابي ولكنهم يخوفونني به . . .

قال : هو اضعف من ان يخرج ابن الحجاج الزبيدي عن هدوئه .

فقال هانيء عندئذ : سنمنع معاوية من ان يلجأ الى الشدة مع الشيعة .

فقال عبد الرحمن : بماذا ؟

— سادعو رجال الشيعة غداً الى الاجتماع في منزل سليمان ، واطلب اليهم ان يظهروا جميعهم بمظهر المخلصين لبني امية ، ويجعلوا عامل الكوفة من الاصدقاء ، — ويثق بنو امية بهذا الاخلاص الكاذب ؟

— ليس لهم إلا أن يؤمنوا بما يرون ، وسيعرف رجال الشيعة ، كيف يخفون بغضهم ، وراء مظاهر الحب .

وكان الليل قد أقبل ، فخرج مع عمرو يقضيان بعضه في دار سويد بن المطامع على ان يلحق بها مسلم ، وبقي عبد الرحمن عند النساء ، وقد طاب له ان يحمده امامة ، في ذلك الليل ، بأمر غرامه ويصف لها لوعة القلب . وطاب لها هي ان تقسم له ، انها لا تحون هواه ، ولو فرّق الدهر رجال الشيعة وجار الزمان .



٣٦

— أريد يا ابي ان اخرج في تجارة الى الشام .

وشبت غني ، والمال كثير بين يديه ، فقال للربيع : لست بحاجة الى ذلك

يا بني . - ولكني اريد ان ارى دمشق فالناس يقولون انها جنة بلاد العرب ،
وان معاوية جعلها لؤلؤة الشرق ..

قال : اخشى ان يعلم معاوية انك ابن شبت فيقذف بك الى الهاوية .

قال سأظهر للناس اني من بني تميم المقيمين بالبصرة .. وسأدخل دمشق تاجراً
واخرج منها وانا تاجر ..

فهز رأسه قائلاً : لو كان لك دهاء العرب جميعها لضاع دهاؤك في دمشق ..
ان في دمشق داهية الناس ..

ثم قال : وما هي الغاية من هذه الرحلة ؟ - ان ارى دمشق كما قلت .

- ستراها بعد ان يموت الجالس على العرش ..

- اما أنا فأريد ان أراها وهو في عرشه .

- وقد يخطر لك ان تدخل مجلسه لترى وجهه ..

قال : اذا رأيت الناس ببابه فعلت ...

قال : اذا أذنت لك في السفر اذنت على شرط .. - ماهو يا أبي ؟

- هو ان لا تدنو من الخضراء قصر معاوية ولو قيل لك أن السعادة فيه .

- لماذا ؟ - لأن الموت يكن لك في دهاليزه ..

- وهل يقتل معاوية ، جميع الذين يدخلون قصره ؟

- ان لمعاوية عينين ، تنظر الواحدة منها نظرة الحياة ، الى الاصدقاء ،
وتنظر الاخرى ، نظرة الموت ، الى الاعداء !

فهم" بالجواب فأسكته قائلاً : وحول معاوية رجال يعرفون معنى نظراته
التي ذكرت .. - وما معنى كل هذا ؟

معناه ان اولئك الرجال سيقولون لسيدهم : ان ببابك فتى من رجال الشيعة
ارسله اصحابه ليكون عيناً عليك وهو يدعى الربيع بن شبت !

- وكيف يعلمون اني الربيع ؟

- لا تسألني عن هذا فأنا لا اعلم كيف يعلمون ..

- اذن فحجاب الخضراء فريق من الأبالسة ..

- بل هم ابعد نظراً وأشد دهاء من ابليس .
 فأطرق ملياً ثم قال : سأطوف اذن حول الخضراء وهذا يكفي ..
 - بل انصح لك بأن تظل بعيداً عنه فليس من الحكمة ان يدنو المرء من أتون النار ..

فقال في نفسه : سترى يا ابي ان معاوية خير من هؤلاء الرجال الذين يضمهم مجلس سليمان ، وظل ساكناً كأنه يفكر في الامر ، فقال ابوه : على اي شيء عولت ؟ - على ان احفظ ما تقوله لي حرفاً حرفاً ... - ولا تعدل عن السفر؟ - اسألك بالله ان تأذن لي فيه .. قال : سر على بركة الله ولكن لا تنس .
 - مايطيب لك من اشياء الكوفة فقد اعددت لك مئة دينار تشتري بهاماتشاء .
 - وماذا احمل الى الشام ؟

قال : بقي لي رجاى آخر هو ان لا تذكر لأحد اني سائر الى دمشق ...
 - وهل انت خائف ؟
 - اجل ، فقد قلت لي أن رجال معاوية يعرفون كل شيء وأنا اظن ان اهل الكوفة هم الذين ينقلون اليهم اخبار الناس .
 قال : تظاهر غداً بأنك ذاهب الى خراسان ، وانا سأقول لمن يسألني ان قومنا في ذلك القطر طلبوا ان يروك . - وهل يقيم بخراسان ناس من بني قيم ؟
 - اجل وهم من ابناء العم .. والآن قل لي : ايطول غيابك في الشام ؟
 - لا اعلم الآن فقد امكث شهراً او شهرين .

قال : ليس لي في دمشق اصدقاء اتق باخلاصهم . - وماذا تصنع اذا وجد هؤلاء ؟ - أمرك بأن تنزل ضيفاً عليهم وادعهم الى العناية بك والعطف عليك .
 - بل انزل في المكان الذي ينزل فيه الغرباء فذلك خير لي واذا فعلت غير ذلك عرف معاوية . قال : اصبت فانزل حيث تشاء .

وانصرف يعد لولده عدة الرحيل ، ولم يقم في ذهنه أن ذلك الولد البار ، يعد بدوره عدة القضاء على مسلم بن عوسجة وابنه عبد الرحمن ، وقد يحرق تيار بغضه وحقدته ، رجال الشيعة المقيمين بالكوفة ، ومضى من ذلك الليل ثلثه ،

فخرج الربيع الى ساحة الكوفة التي تغص ، في النهار والليل ، بطوائف الناس ، وهو لا يعلم ما يصنع ، ثم مشى الى المسجد يدور حوله . . ومن الجانب الشرقي منه ، ارسل نظره الناري ، الى منزل هانيء ، يلفظ بشفتيه الملتهبتين حكمة الرهيب على عبد الرحمن البريء ، ولم يلبث حتى عاد ونام ملء جفنيه ، كأن الفكرة الهائلة التي خطرت له . لا تستحق التفكير . وخرج في مساء اليوم الثاني من الكوفة ، راكباً فرسه وراء نوقه دون أن يسأل أحد عنه ، كما كان يظن .

وبعد بضعة عشر يوماً انتهى الى دمشق ، فطاف في أسواقها يسأل الناس عن أشياءها كأنه تاجر ، ثم جعل يعرض عليهم ما يحمل حتى تم له امر البيع كما أراد ، وانصرف بعد ذلك الى قضاء الأمر الذي قدم من أجله .

٣٧

كان معاوية يستقبل الناس ، في الصباح والمساء ويجلس للعظام في المسجد ، على عادته كل يوم . وهو على رغم شيخوخته ، وقد جاوز الخامسة والسبعين ، بفضي ولا يمل ، وينظر في جميع الحاجات ، دون أن يضيق صدره ، كأن نفس معاوية ، نفس فتى في ربيع عمره ، وكأن همته التي لاتضعف ، همة الشباب . . فلما خرج من المسجد ذات مساء ، ورجع الى مجلسه ، وقد انصرف الناس ، اهل سعد رئيس الحجاب يقول : بالباب رجل من الكوفة يستأذن على امير المؤمنين .

وكان في تلك الساعة يفكر في تمرد الحجاز ، واستخفاف اهله بأمر البيعة ، وقد بان الغضب في عينيه ، فقال : ولماذا لم يدخل هذا الكوفي مع الناس ؟ - يقول يا مولانا انه وصل الساعة .

فاطرق ثم قال : الرجل الذي يحییء من الكوفة ، وينتهي الى الخضراء عند المساء وهو يريد أن يرى امير المؤمنين ، يستطيع ان يصبر الى الصباح .

- ولكنه يخشى أن يراه أحد ببائك وهو لا يريد هذا !
 فرفع صوته قائلاً : كوفي يستأذن على أمير المؤمنين ويخشى أن يراه أحد ببابه ؟
 انها كلمة لم نسمعها قط من عربي ...
- ومع ذلك فهو يقولها ولا يخاف ..
- قال : اخرج وانظر في امره فقد يكون خنجره في ثوبه ..
- فملت ذلك يا أمير المؤمنين قبل ان استأذن له . - ولم تجد شيئاً ؟
- وجدت في حزامه هذا الخنجر الصغير الذي لا يصلح للقتل .. وأراه اياه.
- فقال : وما هي غايته اذن ؟
- له سر لا يبوح به إلا وهو مائل بين يديك !
- ليدخل ، وكن انت وراءه ...
- فدعاه سعد فدخل ، وعيناه تلمعان ..
- فقال معاوية في نفسه : إنه فتى جريء لا يبالي بما يصنع ...
- ثم قال له : نسألك عن شيء سمعناه الآن قبل أن نسألك عن اسمك .. أتقول
- لحاجبتنا أنك لا تريد أن يراك أحد بباب المجلس ؟
- نعم يا أمير المؤمنين ؟ - وماذا تخاف .
- أخاف أن تراني العيون ، وينقل خبري الى الكوفة .
- واذا حدث ذلك ؟
- اقتل في ليلة مظلمة لانتد الي فيها يد صديق . - من يقتلك ؟
- رجل من الكوفة ... - بل قل من رجال الشيعة . . .
- فاضطرب قائلاً : نعم من رجال الشيعة . . .
- ولكن هؤلاء الرجال لا يقتلون أحداً بل يكتفون بلعن عثمان وهم وراء
- الجدران ، ويلعنون في سرهم ، أمير المؤمنين . . .
- أما أنا فجبان يخاف أن يموت . . .
- قال : أما أنت فمن أبناء الشيعة أنفسهم ولو لم تكن منهم لما خفت . . . قل
- ألسنت منهم ؟ - بلى يامولانا .

- ومن أنت ؟ — أأقول وأنا آمن ؟
 — لانعلم الآن فحياتك في يدك . . ما اسمك ؟
 — الربيع بن شبت ! — ابن ربيعي ؟ — نعم .
 فجعل يقول : شبت بن ربيعي .. هذا كان من الخوارج .
 وكأنه لايعرف الرجل .
 قال : كان خارجياً يا امير المؤمنين ..
 — وكان قبل ذلك مع علي وقد فارقه في صفين ، بعد التحكيم . — نعم .
 — وهو الآن من رجال الشيعة .. وقد نسي اصحابه الذين قتلهم علي يوم
 النهر . ونسي دماء الخوارج التي سالت في الوادي ، وجعل يردد هذه الالفاظ
 ثم يمضغها مضغاً حتى رأى الفقى آثار الكتابة والألم على جبينه !..
 ثم سمعه يقول : وانك الربيع بن شبت الخارجي ... الشيعي .. ان الربيع
 اسم حسن فيه معنى الحياة .. ولكن ما هي غابتك من الهوى الى دمشق .. ؟
 — أما غايي يا امير المؤمنين فكلام اقله لك ولا ثالث بيننا ..
 — بل نأمرك بأن تقوله وسعد حاضر ..
 — وتضمن لي انه يكتم الناس ما يسمع ؟
 فابقسم قائلاً : ومن يضمن لك ان امير المؤمنين يكتم الناس ما تقصه عليه
 الآن ؟؟ اسمع يا ابن شبت .. ان امير المؤمنين وحجابه ووزرائه يحفظون
 الأسرار عندما يطيب لهم ان يحفظوها .. ويبوحون بها عندما يريدون ذلك ..
 اذكر غابتك ولا تتردد .
 قال : لا افعل فأنا واثق بأن سري يجب ان لا يسمعه احد سواك !..
 — واذا اكرهناك على الكلام ؟
 — بماذا يا امير المؤمنين ؟ — بأن ندفعك اليه بالسوط .
 — تستطيع ان تفعل ذلك الآن فترى ان السوط لا ينفع !
 — اذن فبالسيف .. — والسيف لا ينتزع مني كلمة .
 قال : نضرب عنقك . — اضرب فأنا لا أبالي .

قال : أنهزأ بأمر المؤمنين يا ابن شيث وتحيا . — وكيف هزأت به ؟
— قلت له منذ لحظة انك تخاف ان تموت من يد كوفي .. وأنت تقول الآن
انك لا تبالي بالموت .

فأجابه وهو هادئ : يقول الناس ، اذا قتلني رجل من الكوفة ، انه خان
الشيعة فقتلوه ... ويقولون ، اذا قتلتي انت ، ان امير المؤمنين لا يقتل غير
عظماء العرب ..

— أي انك تؤثر الموت في دمشق ، على الموت في الكوفة .
— بل أؤثر الموت في الحضراء ، لتتحدث العرب بأمري جيلاً كاملاً .
قال : سيفك يا سعد .
وسعد يعلم ان معاوية لا يقتل الناس في مجلسه ، ولكنه جرد سيفه ودنا من
الربيع .. فقال معاوية : اضرب ..

فالتفت الفتي الى الاثنين ثم مد عنقه قائلاً : اضرب ، وليمت سري معي ،
ولكن اعلم ان الخلافة ستنتقل بعدك الى بني هاشم ولن تكون ليزيد ..
فاوماً الى سعد بأن ينصرف ثم قال : انك فتى جريء وهكذا نريد ان
يكون جمع الفتيان .. اجلس وخبرنا ما تعلم فقد عرفنا الآن أي فتى انت ...
فجلس وقال : أبوح لك بأسرار الشيعة في الكوفة ..
فقال الداهية : لا تنس ان أباك من رجالها ..

— اعلم ذلك وستعلم انت يا امير المؤمنين من هو شيث بن ربيعي . قال : هات .
قال : ألم يبايع اهل العراق والشام ولي عهدك ؟ — بلى .
— ولكن رجال الشيعة لم يبايعوا ولم تسألهم انت أن يفعلوا .
قال : الخليفة لا يحتاج الى هؤلاء الرجال ، في البيعة ليزيد .
— ولكنهم رعية هذا الخليفة وهو ولي امرهم . — ولماذا لم يبايع ابوك ؟
— منعه من ذلك يا امير المؤمنين ..
— لكن الرجل مثل شيث لا يعبأ بهذا المنع .
— نصحت له يا مولانا بأن يسمع لهم . — لماذا ؟

- لنستطيع نحن الاثنين أن نقرأ الاسرار ... - وتركنا التشيع ؟
- نتشيع في الظاهر ، وأما في الباطن فكما ترى .. - وما رأيهم في المبايعة ؟
- رأي المتمرد العاصي الخارج على ملكه !
- وإذا خطر لأمر المؤمنين أن يدعوم اليها ؟
- إذا خطر له ذلك خرج بعضهم من الكوفة وبايع الآخرون ..
- وتتفرق الشيعة ؟ - يتفرق شملها زماناً لا يعرف آخره ...
- وكيف ذلك ؟
- يحتاجون عن العيون ريثما ينمى النعامة أمير المؤمنين .. !
- وبعد أن يموت أمير المؤمنين ؟ - يحملون السيف في وجه يزيد .
- ويحطمون عرشه ؟ - نعم ، ثم يرفعون الى هذا العرش الحسين بن علي !
- قال : وأبوك ؟ .. - ليس لأبي رأي في هذا .
- ومن هو صاحب الرأي إذن ؟ - مسلم بن عوسجة وولده عبد الرحمن !
- فخفض صوته قائلاً : لا نعرف مسلماً هذا فمن هو ؟ ..
- هو من سادة بني اسد وأحب الناس الى الحسين . - ويتبعه القوم ؟
- يتبعه حبيب بن مطهر ، وسويد بن المطاع ، وقد يتردد في ذلك هانئ بن عروة المرادي . - وغير هؤلاء ؟
- بضعة رجال ليس لهم شأن .
- إذن فمعظم رجال الشيعة يتبع شعث بن ربيعة .
- وراء شعث رجال اقوياء يا أمير المؤمنين هم عمرو بن الحجاج والضحاك بن عبد الله وسليمان بن صرد وطائفة من قومهم .
- قال : لو اراد أبوك ان يظهر اخلاصه لأمر المؤمنين ، لجعل ابن الحجاج ومن معه في صف ، وترك مسلماً ومن معه في صف آخر .
- لا يقدر على ذلك يا أمير المؤمنين ؟
- بل يقدر على كل شيء اذا طاب له ان يخدم الخلافة ..
- قال : بين ابن الحجاج وابن عوسجة عهدٌ يامولانا . - وما هو هذا العهد ؟

- ان عبد الرحمن بن مسلم ، سيتزوج امامة بنت عمرو ، واطل الحقد من عينيه ، واكفهر وجهه ، فأيقن الخليفة السياسي بان القضية قضية غرام .
فقال : نذكر ان ابن الججاج الذي ذكرت ، كان في الغوطة .
- أجل وقد انتقل الى الكوفة من زمن قصير . - وامامة حسناء ؟
- هي أجل نساء العراق . - ويدفعها أبوها الى بني أسد وانت في الكوفة ؟؟
- قال خطبها أبي لي ، وخطبها مسلم لعبد الرحمن فأثرتة علي .
- فضحك وقال : انك جبان في الكوفة وشجاع في دمشق . .
- لست جباناً يامولاي ولكني أخاف العار .
- قال : يلحق بك العار اذا سكت . ولو كان هنالك فتى من بني أسد لما رضي بما رضيت . - وماذا أصنع ؟
- تأخذ امامة بالقوة كما يفعل سواك ! !
- قال : أخشى ان اسلب عبد الرحمن خطيبته لأتزوجها ، فتأبى ، ثم تفر وهذا هو العار الذي ذكرت . - ولا تخشى ان يقتلك هواك ؟
- ان في الصدر عاطفة هي اقوى من عاطفة الهوى . . .
- عرفتها فهي عاطفة الحقد على الفتى الاسدي . .
- نعم وانا أعترف بأن العيش لا يطيب لي الا اذا محوت هذا الفتى ، ومحوت أباه من الوجود .
- وتستطيع أن تفعل ذلك ؟ - أستطيع بقوة أمير المؤمنين . . .
- فارتجفت شفتا معاوية من الغضب ، وكاد يخرج عن هدوئه . .
- ولكنه تجلد قائلاً : وهل قال لك احد من اهل الكوفة ان امير المؤمنين يهتم لامور الغرام ؟
- لا يا مولانا ولا شأن للغرام في هذا .. - وماذا اذن ؟
- يهم امير المؤمنين لامور الخلافة ، ويؤدب بسوطه اعداء الدولة ومسلم وولده من هؤلاء الاعداء كما تعلم .
- فقال ، وقد ارتقع صوته ، ورقصت لحيته : أصبت فسنؤدب القوم ونبدأ

بشبت بن ربعي !

-- وما ذنب شبث يا مولانا ؟

— ذنبه انه يتشيع كما يتشيع مسلم بن عوسجة . — ولكنه يبائع اذا أردت .

— ألم يعلم ابوك اننا كتبنا الى عاملنا في الكوفة نأمره بأن يدعو الناس الى

البيعة . فلماذا لم يفعل ؟ . — لأنهم منعه كما قلت ..

— اذن فأمر ابيك في يد الشيعة وهذا يكفي .

ثم لان فقال : اسمع ايها الفتى ، لو أراد امير المؤمنين أن يؤدب رجال الشيعة

لضربهم ضربة لم يرتفع لهم بعدها رأس .. ولكننا نأسف على رجال الاسلام

محصدهم سيف الغضب ، ونحن نؤثر ان ننظر اليهم نظرة الخليفة القوي الى المتمردين

الضعيف الذي ضيع رشده ، ويقوم في الذهن ان هذا المتمردين سيعود الى هداه .

— لا أظن ان مسلماً يعود الى الهدى . — بل يعود عندما يعود ابوك !!

— وماذا يريد امير المؤمنين ان يفعل ابي ؟

— نريد أن يخرج على الشيعة اليوم ، كما خرج على علي بالامس .

— سيفعل ذلك بعد حين ..

— اجل ، بعد ان ينعي الناعي امير المؤمنين .. قل سيخرج على الخلافة يوم

يتولاها يزيد .. — انا أضمن اخلاصه لخلافة ولدك ..

— ولكنك لا تضمن اخلاصه لخلافتنا فكأن معاوية شيء ، وولي عهده شيء

آخر .. وانه لإخلاص صادق يشفع في ابن ربعي ..

قال : أليس لأبي فضل في ميادين القتال ، التي شهر فيها السيف في سبيل

الفتح ؟ — بلى ، ولكن هذا الفضل لم يكن لأبيك وحده ، بل لجميع المسلمين

الذين فعلوا كما فعل ، وخسروا أبناءهم وقومهم في الساحات .

قال : يعترف الناس كلهم بأن أبي من القواد .

— ونحن نعترف بهذا ، وفي الاسلام قواد كثار مثله .

— نعم ، وقد رأى ابي انك رفعت معظم هؤلاء القواد الى العلاء ولم تنظر

اليه نظرة حب ..

فجعل يهر رأسه ويقول : الحمد لله على نعمه انه تعالى يرفع قوماً ويخفض آخرين . أتريد يا ابن شعث ان يرفع امير المؤمنين عدوه ، ويتناسى امر أصحابه المخلصين الذين مشوا معه في طريق الحياة وطريق الموت ؟؟ تلعن الشيعة عثمان ، وتتآمر على الخلافة ، وتعد العدة لتجلس الحسين بن علي على العرش وتسألنا بعد كل ذلك ان نحسن الى رجالها ونحيطهم بالنعم ؟ انه امر لم يخطر قبلنا لأحد من الحلفاء ، ولم يحسر احد من الناس على ان يسألنا مثله ..

فتمادى الفتى في لجأته ، فقال : كان زياد من اتباع علي ففقرت له ووليتة .
— نعم وليناها . ولكن بعد أن ندم على ما فعل ، وبعد أن خبرنا وفاءه ..
فاذا أراد ابوك ان نوليها ، فليندم على ذنبه ، وليفعل مثل زياد .

قال : وإذا أراد امير المؤمنين ان يفرق شمل الشيعة دون ان يعمد الى السيف فليأمر بإبعاد مسلم بن عوسجة ، وسويد بن المطاع ، وحبيب بن مطهر عن الكوفة .
قال : لو رأى عبد الله بن خالد عامل الكوفة ، ان الشيعة قوت اذا أبعدنا من ذكرت ، لسألنا ان نأمر بإبعادهم .

— ان عبد الله ضعيف يا امير المؤمنين . — وكيف ظهر لك ضعفه ؟
— اذا رأى رجال الشيعة ابتسم لهم كما يبتسم للمقربين اليك واذا اجتمعوا في منزل سليمان جلس هو في قصره لا يبالي بما يفعلون .

— ليبتسم ما طاب له الابتسام فليس ذلك من الذنوب ولتجتمع الشيعة كل ليل في أضعف من ان تبلغ الغاية ، وسكت قليلاً ثم قال : أما انت فقد بدا لنا شيء من اخلاصك فابق في دمشق ريثاً نأذن لك في الرحيل ، ثم نادى : يا سعد ا فأقبل سيد الحجاب فقال له : يبقى هذا الفتى ضعيفاً على أمير المؤمنين بضعة أيام .. فأعرف انت مقامه ولينزل في الخضراء .

فعرف سعد انه أسيره لا ضيفه ، فقال : وتأذن له في الخروج الى المدينة ؟
— ليذهب الى حيث يشاء على أن يعود كل مساء .. وقل لسرجون ، والضحاك بن قيس وولدنا يزيد ان يحضروا وأوماً الى الاثنين بأن ينصرفا .

فنهض الفتى قائلاً : أبطول مقامي يا أمير المؤمنين ؟
— بضعة أيام ليس غير فقد نحتاج إليك .

فأيقن عندئذ بأن معاوية سينظر مع خاصته ، في كل ما قاله له ، ومشى وراء سعد وهو يقول في نفسه : لقد دنت ساعة مسلم وعبد الرحمن ..



٣٨

ألم ترَ يأسرجون هذا الفتى الكوفي الذي خرج مع سعد الآن ؟
— بلى يا أمير المؤمنين فمن هو ؟

— مجنون من مجانين الكوفة . . ولكن أتعرف من هو أبوه ؟
— لا . — هو شيث بن ربيعي !

قال : لو لم يكن مجنوناً لما دخل على أمير المؤمنين . . وما هي غايته ؟
أحب فتاة وأحب سواه ، فأتى دمشق ليهزأ بمعاوية ويستغل نفوذ الخليفة ،
من أجل غرامه ! !

فقال الضحّاك : ألا يذكر لنا أمير المؤمنين ما قاله له ؟
— سنذكر كل شيء ، بعد أن تعلم أن الفتاة التي أحبها تدعى امامة بنت عمرو
ابن الحجاج الزبيدي .

فوضع سرجون يده على جبينه يعصر ذاكرته . . ثم قال : كان اهل الفوطة
يدعون هذه الفتاة ، حسناء الشام . — وتعرفها انت ؟

— لا يامولانا ولكنني أعرف أباه وأما تدعى خولة من بني سعد .

قال : لانجد في دمشق رجلاً مثل سرجون يعرف انساب النساء .

— ولا خير في سرجون يا أمير المؤمنين ان لم يعلم كل شيء . . . اني وأنا في
الحضراء ، أعرف المخلصين لعرشك ، وأعرف أعداءه .

— وما رأيك في عمرو بن الحجاج ؟

— عدو لك ولكن عداوته تضحل ، بكلمة واحدة يقو لها له عامل الكوفة ، باسم أمير المؤمنين ، وبأمره .

قال : نخشى ان تزعم بعد ساعة انك تعلم ما في قلوب الرجال .

— وهل رأى أمير المؤمنين من قبل أني لا أعلم ؟ !

— بل رأى أن علمك كلام بكلام . أتستطيع أن تعلم الآن ما قاله هذا الكوفي ؟

— لو اذنت لي ان أحدثه لعرفت ما في نفسه . . ان عينيه عينا رجل لا رأي له ولا ينظر الى أبعد من أنفه . . ولكنه شجاع جاهل . . وجريء أبله .

قال : نعرف لك ياسرجون بان عندك شيئاً من الدهاء .

قال : ليس ذلك دهاء يامولاي بل هو حكمة . — وماذا قال الكوفي ؟

— يظهر ان الفتاة أحببت فتى من فتيان الشيعة وآثرته عليه . — هو ذاك .

— وان هذا المجنون لا يطيق أن تحب الفتاة سواء ، فأتى دمشق ليعلم بالعاشق ويكيد له !

فضحك قائلاً : نشهد لك الآن أنك من الحكماء .

— وهل كان الفتى الآخر من الشيعة كما قلت ؟

— أجل وهو عبد الرحمن بن مسلم بن عوسجة .

— مسلم بن عوسجة ؟ . . هذا من أبطال بني أسد .

— بل من أبطال المسلمين الذين أبلوا في الحروب الاولى البلاء الحسن .

— وهو عدوك يامولانا .

— لاتمتعنا العداوة من أن نعرف بالحق ، ولو عرفنا أن مسلماً يبيع تشبهاً

بالمال لاعطيناه الف الف . قال : أتأذن لي ان أبدي رأيي فيه ؟

— قل . — انه لا يترك آل علي ولو أعطيته بيت المال كله !

قال : أسمعت يا يزيد ؟ — نعم يا أمير المؤمنين ، اني سامع وعالم . .

قال : احذر أن تنسى اسماء اعدائك ..

قال : كان يجب أن انسى هذه الاسماء يا مولاي . — ومعنى ذلك ؟

— معناه أنه لو أراد امير المؤمنين لقتل هؤلاء الاعداء فننسى امرهم الى الابد .
قال : لو خطر للخليفة أن يقتل جميع اعدائه للأرض جثثاً . احذرهم
واجعل عليهم العيون .. ولا تقتل إلا إذا خرجوا عن الحد .

ثم قال لسرجون : ووراء مسلم سويد بن المطاع وحبيب بن مطهر .
— إن الاثنين اشد تشيعاً من مسلم .

— نعرف هذا كما تعرفه انت ، وقد جاء الربيع بن شعث يسألنا أن نبعدم عن
الكوفة ونفرض الطرف عن الآخرين . — وعولت على ذلك يا امير المؤمنين ؟
— أمرنا بأن نحضروا للنسألكم الرأي ، ماذا ترى يا يزيد ؟

— ليس لي رأي غير السيف !

فتجهم وجهه قائلاً : اذن نفتتح عهد البيعة لك بالقتل . لا يابني ، ما نريد أن
نفعل هذا وليس من السياسة أن تسيل الدماء .. وأنت يا ابن قيس .

— ارسلهم الى القيروان التي بناها عقبة بن نافع .

— اذا ارسلناهم اليها افسدوا علينا الامر .. هات يا سرجون .

قال : الرأي أن يبقوا الآن في الكوفة وتبث عليهم العيون . — وبعد ذلك ؟
— ينظر امير المؤمنين بعد ذلك في امرهم اذا خاف أن يفسدوا العراق .. انك
قادر على قتلهم عندما تشاء .

قال : هذا مارأيناه نحن ، ولكن سنعمد من ناحية اخرى الى امر لم تفكروا
فيه هو أمر الولاية . — ولاية الكوفة ؟

— نعم فعبد الله بن خالد لم يكن في ولايته ذلك الرجل الذي تخافه الشيعة .

— ولكن الكوفة هادئة لا يرتفع فيها صوت .

قال : ذلك لا يكفي فان لم يرتفع هذا الصوت اليوم ، ارتفع غداً ثم يمتد
ويكون الضعف وحده هو السبب في امتداده .

ثم قال للضحاك : وليناك الكوفة فسر اليها بعد ثلاثة ايام .

فحنى الرجل رأسه وقال : وبماذا يأمرني امير المؤمنين ؟

— لقد سمعت الآن ما تتحدث به ، فكن في الكوفة شديداً لدينا وضعيفاً

- قويًا ، وحليما ضيق الصدر .. افهمت كل هذا ؟ - نعم .
- وقرَّب اليك رجال الشيعة ما استطعت على أن تحصي انفسهم . - نعم .
- وحدثت الناس بأمر البيعة نهارك وليلتك ، حتى يبايع جميع المترددين .
- سأفعل يا امير المؤمنين .
- وصف ولي العهد بما هو اهل له .. - سأذكره يا مولانا في كل خطبة .
- واعلم أن وراءك العزل فكن رجلا . واذا بددت بادرة من مسلم او من سواه ، فالسجن ... ثم تكتب الينا على الاثر .
- فقال سرجون : وماذا تصنع بهذا الكوفي ؟
- نخلي سبيله بعد عشرة ايام ، لينتهي الى الكوفة بعد أن يأتيها الضحاك ويسلم اليه أمر الولاية . - وتعدده بشيء ؟
- نعهه بأننا سننظر في امر ابعاد مسلم وأما فيما يعني اياه فلا نعهه بشيء ولا نقول له كلمة . - وماذا طلب لأبيه .
- سألنا ان توليه ونرفعه كما رفعنا سواه .
- وأطرق ساعة ساد فيها الصمت ، ثم قال : بقي الحجاز الآن فليس في الكوفة ما نخافه .
- سمعتك تقول يا امير المؤمنين أنك تريد السفر الى الحجاز بعد ان يبايع أكثر الناس ..
- ونحن نقول ذلك الآن وسنسافر بعد شهر .
- قال : ألا تجد من الرأي ان ترسل رجلا من الخاصة ، يصف للقوم ولي العهد ويدعو الناس الى البيعة ؟ - لا يستطيع الرسول ان يقوم بما يقوم به امير المؤمنين .
- وترضى بأن يسير معك الوزراء . - بل يسير معنا ابطال الحرب ورجال السيف . - اذن فالناس سيظنون أنك سائر الى القتال .
- ليس لنا أن ننظر الآن في الظنون .. نحن نريد ان نرى رجال الحجاز وأمراءه ونسألهم رأيهم في يزيد ، وليقل الناس ما يشاؤون .
- ولكن الحجاز بعيد يا أمير المؤمنين والسفر اليه صعب .

— بل هو مبن على كل عربي ، وصعب على سرجون الرومي الذي يطيب له العيش في القصور ..

فابتسم قائلاً : لو لم يكن هنالك بيت المال ، وأمور الدولة ، لمشيت أمام ناقتك يا أمير المؤمنين من دمشق الى المدينة ..

— لا تقل هذا فقد يخطر لنا أن نأمرك بالسفر ماشياً كما قلت .

قال : اسأل الله ان يوحى اليك بهذا فأنا لا أعرف الحجاز .

— ولكننا نحشى أن تموت اذا خرجت من دمشق .

ونظر الى الضحاك فقال: اذهب وقل لأهلك أن يتبهاوا للرحيل ، وسيكتب سرجون كتاب العزل الى عبد الله بن خالد يوم سفرك .

ثم قال لسرجون : اما انت فاحذر أن تقول كلمة للربيع بن شبة فنحن نحب ان يبقى الفتى واثقاً بنفسه ، وخرج من قاعة الجلوس ويزيد وراءه ، وكان يقول له : إذا أردت ان تختار رجالاً مخلصين لعرشك فاختر مثل هذا الرومي ، ونام معاوية ليلته وهو يفكر في أمراء الحجاز .. أما يزيد فكان يقول لجلسائه في تلك الليلة : لو كنت أنا امير المؤمنين لجعلت أمراء الحجاز كلهم طعاماً للنار .



٣٩

عندما هم الضحاك بن قيس بالذهاب الى الكوفة ، قال له معاوية : إذا أردت ان تعرف أسرار الشيعة فاستعن بهذا المجنون الذي يقيم اليوم بالخضراء ، وسيلحق بك بعد بضعة ايام ، ثم أوصاه بأن يحفظ هيبة الخلافة ، وأمره بالسفر ، ومرت بعد ذلك خمسة ايام والربيع أسير وضيع ، ولكنه لا يرى معاوية بل لا يرى غير سرجون ، وعبيد الخضراء والغلمان ، فلما كان اليوم السادس ، دعاه معاوية فقال: لقد عزلنا عبد الله عن الكوفة وولينا الضحاك بن قيس فاذا كانت لك في الكوفة حاجة فهو يقضيها لك ..

قال : أوصيته بذلك يا أمير المؤمنين ؟

- أجل كما اتنا وصيناه بأن يقربك اليه ويسمع لك .. ولكن اذا أردت أن يكون لك شأن .. فاحفظ ماخاً مرك به .. - مر بما تشاء .

قال : هل خبرت أهل الكوفة قبل مجيئك انك راحل الى دمشق .

- لا يا مولانا بل خبرت ابي وحده .

- وقلت له انك ستقابل أمير المؤمنين ؟ - لا .

- اذن فاعلم أن أمير المؤمنين لا يريد أن يعرف احد أنك رأيته واذا عرف أبوك أو أخوك أو احد من اهل الكوفة فلا تلم الا نفسك ..

- وما هي الغاية من الكتبان ؟

- اسمع وأطع دون أن تسأل فغاية أمير المؤمنين لا يعرفها الناس ، ويكفي ان تترك دمشق وانت واثق بأننا أجبناك . . .

قال : ليأذن لي أمير المؤمنين ان أقول كلمة .

- عرفنا ماتريد ان تقول ، تريد ان تسألنا عن مسلم بن عوسجة وولده عبد الرحمن ، أليس كذلك ؟! - نعدك بأننا سننظر في أمر الاثنين والويل لهما .. فاشرق جبينه قائلاً : وتفضل ذلك في هذا العام ؟

- قلنا لك ان تسمع وتطيع دون ان تسأل فانصرف الآن وكن مع الشيعة كما كنت من قبل ، ولكي ينجو من لجأته ، ويثبت له رضاه عنه ، في الوقت نفسه ، نادى سرجون قائلاً له : ان الربيع بن شعث سيعود الى الكوفة فاعطه في هذه الساعة الف درهم وارجع اليها فان لنا حاجة اليك ، وقد رأى الربيع عندئذ ، ان مهمته قد انتهت ، فودع معاوية وهو واثق بان امر مسلم وعبد الرحمن قد انتهى .

ولم يلبث سرجون حتى عاد ، بعد أن أعطاه المال .

فقال معاوية : من في دمشق من رجال الحرب ؟

- طوائف لاتعد يا أمير المؤمنين . - ومن القواد ؟

فسمى له بعضهم ، فقال :

نحتاج الى قائدين من هؤلاء يسيران معنا الى الحجاز .

— ومعها عدة القتال ؟

— أجل ووراءهما ألف رجل على الخيل ، من فرسان المسلمين الاشداء .

— ان سفرك يا امير المؤمنين ، على هذا الوجه ، سيتحدث به الناس .

— لانبالي بما يتحدثون به ، ان اهل الحجاز استخفوا بنا ولم يبايعوا ولي

العهد ، وهذا معناه انهم لا يطيقون ان يكون خليفة بعدنا ولا يريدون الا ان

يحدثوا حدثاً تضطرب له الامة . فاهلاً بهم اننا ذاهبون اليهم قبل ان تمتد لهم

اصبع ، وسنأمرهم بان يبايعوا دون أن يظهرُوا شيئاً من التردد ، فاذا فعلوا

رجعنا ونحن شاكرون والا فالسيف ، وما نحن براجعين عن ذلك . .

قال : ارسل ولي عهدك قبيابوه وهو حاضر .

قال : نخشى ان يستخفوا به فتسوء العاقبة . . لا . لا يذهب غير امير

المؤمنين نفسه ليؤدب هؤلاء المترددين . ثم قال : 'مر فلاناً وفلاناً من القواد ،

بان يعدّا العدة ويختاراً ألف فارس من الابطال الهربين . — ثم ماذا ؟

— وقل ليزيد أن يلزم مجلسنا في الايام الباقية من هذا الشهر ليرى بعينه

رجال الحاجات ، ويسمع باذنه ما يقضي به امير المؤمنين .

وبينما هو يقول ذلك اقبل يزيد ، فقال له :

كنا نهم بان ندعوك الساعة فاجلس .

فقال : ماذا يريد امير المؤمنين ؟

— يريد أن يجلس ولده ، شهرين اثنين ، على عرش الخلافة .

— اذن عولت على السفر .

— نعم ونحن واثقون ، بأن الناس سيقولون ، في خلال الشهرين اللذين ذكرنا ،

أن ولي العهد اهل للخلافة . قال : اعهد الي فيما تشاء يا مولاي .

— نعهد اليك في حفظ مال المسلمين فلا تحسن الى احد من الناس ونحن في

الحجاز وامنع العطاء ريثما نعود . — واذا سألنا الناس أن نمطبهم ، على عادة

امير المؤمنين .

- تسألهم عندئذ أن يصبروا فهذا ما نريده .
 وكان معاوية يريد أن يختبر ولده ، فقال يزيد : وبعد ذلك ؟
 — ولا تعزل مسيئاً ولا تولّ محسناً . — لا أولي ولا اعزل ؟
 — وإذا اشتعلت نار الفتنة في ارض فلا تشهر حرباً ولا تحمد هذه النار بالسيف .
 قال : خير لك يا امير المؤمنين أن تقول : اني لا شيء ...
 — بل انت كل شيء يا بني ويكفي أن تجلس للمظالم كل يوم وتقضي بين الناس بالحكمة والعدل وهذا خير ما تصنع .
 — وإذا جاءت وفود الاقاليم تطلب الينا قضاء حاجة ؟
 — تفعل ما يفعله امير المؤمنين ، وسترى في هذه الايام ، قبل أن نسير الى الحجاز ، كيف يرضي امير المؤمنين وفوده .
 — بقي أمر هو أن الجند سيطلب ارزاقه فهل اعطي ؟
 — هذا امر يقوم به سرجون كما تعود .. إن الجند شيء وطلاب العطاء شيء آخر فاحذر أن تغضب جندياً واحداً .
 وقال لسرجون : اذهب وقل للقائدين ما أمرناك بقوله والحق بنا الى المسجد بعد ساعة .
 وكانت طوائف الناس ، عند المسجد ، فدخل معاوية ينظر في امرها ويزيد معه يسمع اقواله ، ويصغي الى ما يقضي ، ومرة ايام ويزيد لا يفارقه ، حتى انت ساعة الرحيل وكان كل شيء قد تهيأ ، كما اراد .



٤٠

مشى الحراس امام امير المؤمنين ووراءه بالحرايب ، وتقدمه الجيش الى الحجاز ، وهو الف فارس . والمختار رئيس الحرس بين يديه ، وكان الناس ، في البوادي والقرى التي يمر بها ، يخرجون لاستقباله ، وهو يبتسم لرؤسائهم ويبذل لهم المال ،

وقد تناقلت الناس خبر مسيره ، وسبقته الاخبار الى المدينة ، وعاملها مروان بن الحكم ، يعرف ذلك ، وهو ساكت ، فلما كان معاوية ، على بعد مرحلتين منها ، دعا مروان الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وهم وجوه الناس ؛ وقال لهم : إن امير المؤمنين ينتهي الى المدينة بعد يومين .

فقال الحسين : بلغنا اليوم خبر مجيئه .

— وما ترون ؟ — دعانا الامير فأتيناه فليذكر رأيه .

— ارى أن تخرجوا انتم الامراء للقائه .

— وما هي غايته من المجيء الى الحجاز ؟ — جاء يقضي نسكه على ما اظن .

فقتاوروا ثم قال الحسين : نخرج عندما يدنو الى المدينة .

وانصرفوا وبعضهم يقول للبعض الآخر : والله لم يأت إلا من أجل يزيد ..

ونحن لا نبايع .

وبعد يومين أطل الجيش ، فخرج الحسين ، ووراءه ابن الزبير ، وابن عمر ، وخلفهم الناس ، وكان الحسين اول من رآه ، فلما لقيه فاجأه معاوية بقوله : (لا مرحباً ولا أهلاً .. بدنة يترقرق دمها ...) « البدنة من الإبل والبقر تهدى الى مكة فتتحرر وسميت بذلك لأنهم كانوا يسمونها قبل الذبح » .

فقال الحسين : مهلاً فاني والله لست بأهل لما تقول !

— بلى ، إنك اهل لشر منه .

ودنا عندئذ ابن الزبير ، فقال له : لا مرحباً ولا أهلاً ، ضبٌ يدخل رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ويدق ظهره ، نخؤه غني ، ثم أمر فضربوا وجهه راحلته .

ولقيه عبد الله بن عمر فقال له مثل ذلك ، فساد الصمت موكب معاوية ، ومشى الامراء معه وهم ساكتون وهو لا يلتفت اليهم حتى دخل المدينة ، فأقبلوا يستأذنون عليه ولكنه لم يأذن لهم ، ولم يروا منه ما يحبون .

فدعاهم الحسين فقال : نخرج الى مكة ثم نرى ما يفعل .

فخرجوا اليها وبلغ خروجهم معاوية فقال لخاصته : لأقتلهم جميعهم إن

لم يبايعوا .

وقام فخطب ، فذكر ولي عهده ومدحه ثم جعل يقول : من أحق منه بالخلافة ، في فضله وعقله وموضعه ، وما أظن قوماً بمنتهين حتى يصيبهم بالسيف ثم دخل على عائشة فقالت له : بلغني أنك تهتد الحسين وأصحابه بالقتل ! قال : يا أم المؤمنين هم أعز من ذلك ..! - ولكنك قلت هذا لقومك .. قال : أعطى الناس البيعة ليزيد أفترين ان أنقض بيعة قد تمت ؟

- لا تتقضا ولكن ارفق بالناس فانهم يصيرون الى ماتحب ان شاء الله ، ثم قالت : يا معاوية ألم تفعل بأخي محمد ما فعلت ؟ « محمد بن ابي بكر الذي قتل في مصر » . قال : لم يكن لي بذلك علم .

- وما يؤمنك اليوم أن ارسل اليك رجلاً يقتلك !؟

قال : إني بيت أمن يا أم المؤمنين .. قال هذا وانصرف لانه لم يكن يريد ان يسمع اكثر من ذلك ، ومكث بالمدينة بضعة عشر يوماً حتى بايع الناس ، ثم تركها يريد مكة ، فتشاور الامراء مرة ثانية في الأمر ثم أجمعوا على أن يستقبلوه ، وهم واقفون بأنه قد ندم على ما كان منه . وخرجوا الى « بطن مر » فينتظرون فيه .

وكان أول من لقيه الحسين ، فقال له معاوية : أهلاً ومرحباً بابن رسول الله وسيد شباب المسلمين !! وأمر له بفرس فركبها ومشى بالقرب منه .

ثم قال لابن عمر : مرحباً وأهلاً بابن الخليفة الذي رفع شأن الاسلام ... أعطوه مثلاً أعطيتم الحسين ... اركب يا عبد الله !

وعندما لقيه ابن الزبير ، قال : انك أهل لان تسائر الخليفة فهذه فرسك ، واقبل يخاطبهم ويهش لهم لايسير معه غيرهم حتى دخل مكة ، فكانوا أول داخل وآخر خارج من مجلسه ، ولايمضي يوم الا ولهم فيه صلة ، وهو لا يذكر لهم شيئاً. ولا يتحدثهم بأمر البيعة ، ولكنهم عرفوا أنه لم يصنع بهم ما صنع الا من أجل غايته .

وكان الحسين يقول : سيطلب الينا ان نبايع فأعدوا له جواباً : فقال احد الانصار : وأذا لم يشأ الا ان تبايعوا فما تصنعون ؟

- نسكت ولا نبايع . وفوضوا الى عبد الله بن الزبير ان يتكلم باسمهم ، حتى قضى معاوية نسكه وحل ائقاله وهم بالمسير .

فدعاهم اليه فقال : قد علمت سيرتي فيكم واحتمالي ما كان منكم ، ويزيد اخوكم وابن عمكم وقد اردت ان تباعوه وستكونون اثم الذين يعزلون ويولون ويحبون المال ويقسمونه لايعارضكم في شيء من ذلك ... !

فسكتوا كأنهم لم يسمعوا شيئاً ! فقال : الاتحجبون ؟

فلم يسمع جواباً ، فأعاد كلمته مرتين وهم لا يقولون كلمة .

فاختلجت عيناه .. واصفرت شفثاه .. ثم قال لابن الزبير :

قل ، انك لعمرى خطيب القوم .

فرفع عبد الله صوته قائلاً : نخبرك بين ثلاث خصال فاختر احداها .

قال : اذكرها .

قال تصنع كما صنع رسول الله ، او كما صنع ابو بكر .. او كما صنع عمر بن الخطاب .

- ماصنع رسول الله ؟

- لفظ روحه ولم يستخلف أحداً ، فارتضى الناس أبا بكر .

قال : ليس فيكم مثل ابي بكر واخاف الاختلاف .

- صدقت ، فاصنع كما صنع ابو بكر . - ماذا ؟

- عهد الى رجل من قاصية قریش ليس من بني أبيه فاستخلفه وانت تعلم من

هو الرجل .. انه عمر بن الخطاب . قال : ليس فيكم مثل عمر .

- اذن فاصنع مثلاً صنع .. جعل الأمر شورى في ستة رجال ليس فيهم

أحد من ولده ..

فقبض بيده على لحيته وقال : وهل عندك يا ابن الزبير غير هذا ؟

- لا . - وانتم ؟ - نقول قوله ..

قال : كنت اخطب فيكم فيقوم احدكم فيكذبني على رؤوس الناس فاحتمل

ذلك منه وأصفح عنه ، وإني قائل الآن قولاً فأقسم بالله لئن ردّ عليّ احدكم كلمة

في مقامي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه .

ثم دعا المختار صاحب حرره فقال له : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء

رجلين مع كل واحد منها سيف فان ذهب رجل منهم يرد علي كلمة تصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما . ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر وكان الناس قد اجتمعوا .

فحمد الله ثم قال : إن هؤلاء الرهط ، وأشار الى الحسين وابن عمر وابن الزبير ، سادة المسلمين وخيارهم ، لا يحدث شيء إلا بأمرهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم وإنهم قد رضوا بيزيد وبايعوه ، فبايعوا مثلهم على اسم الله !

فبايع الناس ، وهم يرون السيوف بأيدي الحراس . ثم ركب وانصرف الى المدينة دون ان يكلم احداً ، وقد رأى القوم الجفاء في عينيه .

فقال اهل مكة للحسين ومن معه : زعمتم انكم لا تبايعون فلم رضيتم وبايعتم؟ قالوا : والله ما فعلنا . — وما منعكم ان تردوا على معاوية ؟

— خفنا القتل ، والبيعة ليزيد بيعة سيف لا بيعة رضى .

— ومع ذلك فقد انتهى الآن كل شيء .

فسار الحسين الى منزله ولم يرد ان يقول كلمة بعد ان رأى من معاوية مارآه ، ولم يمكث معاوية طويلاً بالمدينة بل سار الى دمشق وقد جفا بني هاشم ، واشتهر امر جفائه ، فأثاه ابن عباس ، بعد بضعة اشهر ، وهو في مجلسه ، فقال له : ما بالك جفوتنا ؟

قال : إن صاحبكم الحسين لم يبايع فلم تنكروا ذلك عليه .

فقال : يا معاوية ، إني لخليق ان انحاز الى ساحل من السواحل فأقيم به ثم انطلق بما تعلم حتى اجعل الناس كلهم خوارج عليك ..

فأجابه قائلاً : يا أبا العباس ، نكف عن الجفاء ، ونعطيك كما كنا نعطيكم من قبل . وبينما ابن عباس عنده ، دخل عليه ، سعيد بن عثمان بن عفان ، وكان يزيد حاضراً ، فصافح معاوية سعيداً ، وأدناه ثم سأله عن حاجته ، فقال : أأذكر حاجتي الآن ؟

— نعم . قال : جئت أسألك ان تستعلمني كما استعلمت سواي .

فأجابه وهو يتكلف الابتسام : على أي اقليم ؟ — على خراسان .

قال في خراسان عبيد الله بن زياد .

- ولكنك جعلت له ولايتين فليكتف بالبصرة .
قال : لا نغزله بدون ذنب .

- تعزل عندما تشاء ولا تنظر الى الذنوب ..

- أصبت فنحن نغزل من نشاء إلا عبيد الله ...

قال : ألا استحق ان أكون من عمالك ؟

- بلى وانك من احب الناس الينا كما تعلم وسنجعلك عاملاً في هذا العام او العام الذي بعده .

فجعل ينظر الى يزيد وهو ساكت . فقال : أراض انت ؟

- لا والله ، لقد اصطنعك ابي حتى بلغت باصطناعه ما بلغت فما شكرت
بلاءه ولا جازيته وقدمت هذا « و اشار الى يزيد » واعطيته البيعة واني والله
خير منه أباً وأماً ونفساً ... !

فقام في ذهن ابن عباس ، أن معاوية سيعمد الى السوط ، ولكنه رآه هادئاً
ثم سمعه يقول : اما بلاء أبيك فقد يحق علينا الجزاء به وقد كان من شكرنا لذلك
انا قد طلبنا بدمه . . واما فضل ابيك على ابيه فهو والله خير مني ، وأما فضل
أمك على أمه فلعمري امرأة من قریش خير من امرأة من بني كلب . . واما
فضلك عليه فوالله ما احب أن الغوطة ملئت رجلاً مثلك . . .

ونزل الحلم على يزيد فقال : يا امير المؤمنين . ابن عمك وانت احق من نظر
في أمره وقد عتب عليك فاستعمله على ابي بلد شئت .

فقال معاوية : أتطمع ياسعيد بغير خراسان ؟

- لا يا امير المؤمنين ما أريد سواها .

قال : نوليك حريها ونولي خراجها رجلاً غيرك . - من هو ؟

- اسحق بن طلحة ، « وهو ابن خالة معاوية » .

قال : افعل فقد رضيت .

فولى الرجلين ، ولكن الموت فاجأ اسحق وهو بالري ، فجمع معاوية
لسعيد ، حريها وخراجها ، وعزل ابن زياد .

وقد كتب اليه : ان لسعيد بن عثمان منزلة وفضلاً وانا قد ولينا خراسان

فاكتف بالبصرة فان امير المؤمنين راض عنك .
وكانت السنة السابعة والخمسون قد دخلت ، عندما استقام لسعيد أمر
خراسان .

٤١

قدم الضحاك بن قيس الكوفة ، والناس يقولون :
قدمها والياً وعزل عبد الله بن خالد .

ولم يكن لعبد الله ذنب ، الا رغبة معاوية في تغيير الوجوه . . . واختبار
الرجال الذين يظهرون اخلاصهم له ، وجلس الضحاك في قصر الامارة واقبلت
وفود المهثين ، وكان الربيع بن شعث قد عاد من دمشق وخبر اياه أنه رأى أمير
المؤمنين جالساً في المسجد ، ولكنه لم يمثل بين يديه ، ونصح له بان يزور
الضحاك ، ان يكون اذا استطاع ، من أقرب الناس اليه . . وشعث بن ربيعي ،
المتردد في أمره ، اللابس في كل يوم ثوباً ، سمع لولده ، ورأى ان التقرب الى
الوالي يرفع منزلته في القوم .

ومرت اربعة أيام على قدوم الضحاك ، فقال سليمان بن صرد لرجال الشيعة
وهم عند المسجد : ما رأيكم في الدخول على عامل معاوية ؟

فقال هانيء بن عروة :

لاشيء يمنع الشيعة من الدخول على الضحاك بن قيس كل يوم .
وقال مسلم : نحن من اهل الكوفة ، فمن الرأي ان نصافح الرجل كما يصافحه
جميع الناس ، دون أن نتحدث بأمر الا اذا أراد هو .

— وأنت ياشعث ؟ — اني من هذا الرأي وسنوره غداً .

— ومتى تفعلون ذلك ؟ — فقال ابن الحجاج عند الصباح .

— أما أنا فأرى أن نسير اليه ثلاث فئات ، الاولى عند الصباح ، والثانية

عند الظهر ، والأخرى قبل الغروب . — لماذا ؟

— كي لا يظن ان الشيعة تأتيه مجتمعة كأنها على موعد .

— بل نسير اليه مجتمعين لثملاً هيبة الشيعة نفسه .

وانصرفوا على هذا الأمل ، وعند الصباح استأذنوا على الضحاك ودخلوا ، فنهض يضافحهم واحداً واحداً والربيع معهم ولم يحضر عبد الرحمن ، ثم أمر لهم بالجلوس وجعل يقول : أمرني أمير المؤمنين بأن أجعل الكوفة كلها رأياً واحداً وكلمة واحدة دون ان أوثر رجلاً على آخر ودون ان يكون لي في رجل هوى ، فلم يجيبوه ، ثم قال : ويريد امير المؤمنين ان انظر في المظالم والحاجات ، واحفظ هيبة الخلافة وأرفع اليه كل أمر لا أستطيع قضاءه .

ونظر الى سليمان قائلاً : لا أعرف جميع هؤلاء الرجال فاذكر اسماءهم .

فجعل يسميهم حتى انتهى ، فقال الضحاك : وما هي حاجاتهم ؟

— ليس لأحدنا حاجة ايها الأمير . — ولا تسألوننا شيئاً ؟

— إن الكلمات التي قلتها الآن لم تبق لنا سؤالاً .

قال : كيف كان عبد الله بن خالد في الكوفة ؟

— كان ليناً حسن السيرة أحبه الناس ولم يخافوه .

فقال الربيع : بل كان ضعيفاً ايها الأمير ، يغض الطرف عما يراه ، ويسكت

على ما يكره ؟!

فانتهره أبوه قائلاً : لم يسكت في الكوفة عن أمر لا يصح السكوت عنه .

— هذا ابنك يا ابن ربي ؟ — نعم .

فأراد الضحاك ان يخذع الربيع بمظاهر الحب ليستسلم اليه ، ويفضي بأسرار الشيعة كما أمره معاوية ، فقال : إنه جريء صريح .. كيف كان عبد الله ضعيفاً يا بني ؟

قال : لو طلبت الشرط رجلاً بأمر امير المؤمنين وأتوا عبد الله يسألونه رأيه

لاكتفى بقوله لهم : لا رأي لي !!

قال : ما أظن ان عاملا من عمال امير المؤمنين يحسر على ذلك .. انا الضحاك بن قيس ، لو أمرني الخليفة بان أهدم منازل الكوفة كلها على رؤوس أصحابها لفعلت !!

قال : أما عبد الله فلو أمره الخليفة بان يقبض على أحد الخوارج المقيمين بهذا البلد لاحتجب خائفاً في بيته . - وهل حدث شيء من هذا ؟

- لو حدث لبان ضعف عبد الله . قال : أتعلم يا شبت أن في الكوفة خوارج ؟ ولماذا يسألني الامير عن ذلك ؟

- لأنك تعرف هؤلاء وقد خرجت على علي . .

- كان ذلك فيما مضى ولا صلة لي بمن ذكرت .

- يقولون أن بالبصرة طائفة منهم وقد ذكرت أسماؤهم لامير المؤمنين ، وأنا في مجلسه ، فكتب في أمرهم الى ابن زياد . - ومن هم ؟

- طواف بن غلاق ، وهو يرأس سبعين أو ثمانين خارجياً يجتمعون في منزل رجل اسمه جدار . - لا أعرف الرجل وأظن انه لم يشهد صفين . .

- وتعرف عروة بن أدية التميمي ؟ - وهذا منهم ؟ - أجل .

- أعرف أخاه أبا بلال فقد انكر التحكيم في ذلك الزمن وشهد النهروان

مع رفاقه وأبوه حدير من تميم .

- أصبت وهنالك رجال غيرهما ستغير عليهم الخيل .

وخطر للأمير عندئذ أن يداعب القوم ، فقال :

أنتم وجوه الناس ، ونحن نعلم كما يعلم أمير المؤمنين انكم تلتشيعون ويضمم

في الليالي السود ، منزل سليمان . .

فطن القوم عندئذ أن الصاعقة ستنقض ، وقد ساد السكوت قليلاً ، ثم قال

مسلم : وكان الولاة قبلك يعملون ذلك ولم يروا أن التلشيع من الذنوب .

- ولكن علياً والحسن قد ماتا ، والحسين وولد علي لا يطمعون ، فمن الرأي

أن تكونوا مع الجماعة . .

قال : ماقاتلنا خليفة ، ولم نشهر السيف على أمير ، وانما نحن نعتقد ان علياً

هو الامام بعد رسول الله وأن الامامة لا تخرج عنه وعن بنيه . . .
 - وهذا يكفي ، وقد لا يطيقه أمير المؤمنين .
 - حسب معاوية أن نكون خاضعين لسلطانته ولو ذكرنا علينا أئمتنا أيها
 الامير من الاجتماع في منزل احدا ؟ - لا .
 - وئمننا معاوية ؟ - لو أراد ذلك لفعلناه .
 - اذن فنحن أحرار نجتمع وتفرق عندما نشاء .
 - أجل ، ولكن لا تخطبوا في المساجد ، ولا توغروا صدور الناس على أمير
 المؤمنين ، ولا تجمعوا اجتماعكم في الأسواق . - واذا سعى بنا أهل الشر ؟
 - لا يجد أهل الشر سبيلا إلينا . . ونحن نصنع مايقوله أمير المؤمنين لا نزيد
 عليه حرفاً ولا ينقص حرف ، الا أمراً واحداً نخالفه فيه هو انه طلب إلينا ان
 ندعوكم الى البيعة ونحن نرى أن لا نفعل .
 وقد كذب الضحاك فمعاوية لم يأمره بذلك .
 فقال مسلم : اذا بايعنا بايعنا مكرهين ونحن معتمدون اعتقادنا الذي ذكرناه .
 - ولكم ان تعتقدوا ماترون ، على ان لانرى عصياناً وخروجاً على الخليفة ،
 وكل أمر يعرض لكم شاوروننا فيه . .
 فقال سليمان : انك ايها الأمير خير من رأينا من العمال .
 قال : لقد جمعنا الإسلام فنحن اخوة ولا نقول الآن غير هذا . .
 ودخل الحاجب عندئذ يقول : بالباب قوم من بني مذجع .
 فأذن لهم في الدخول ، وانصرف رجال الشيعة وهم معجبون بما رأوه من لين
 الضحاك وأدب نفسه ، وقد فاتهم أن معاوية هو الذي علمه أن يلين . . .



٤٢

مكث بنو مذجع ساعة ثم خرجوا ، وقبل ان يدخلوا الى الحرم فله منزله .

أقبل الربيع بن شيث يستأذن عليه ، لكلام يريد ان يقوله له .
فقال الضحاك في نفسه : سقط الفتى في الشرك .
ودخل الربيع ، ففاجأه ابن قيس بقوله : لم ترجع إلينا الساعة إلا لأمر
فما وراءك ؟

— جئت أولاً أشكر الأمير على حسن ظنه بي .
— ومتى أحسن الأمير ظنه ؟
— عندما قال لرجال الشيعة : ان الربيع صريح وجريء ...
— تلك كلمة اقولها لكل من ينطق بالحق سواء أكان صديقاً أو عدواً لي
ولأمير المؤمنين . — ولكني من اصداقاء الأمير ، ومن عبيد الخليفة المخلصين .
أما انا فلم أرَ شيئاً من هذا الإخلاص الذي ذكرت ..
قال : ألم يحدثك امير المؤمنين بأمرى .
— بلى ، وقد قال لي انك تماشى الشيعة في الظاهر وأنت في الباطن اموي
تخدم الخلافة .. — وامير المؤمنين اذا قال صدق ..
قال : انت الذي يراه والي الكوفة وهو في الكوفة ، غير الذي يراه امير
المؤمنين وهو في دمشق .. قال : وهذا معناه انك تشك فيما قيل لك ..
— ليس من الغريب ان تشك فيما نرى ونسمع ، إنا في زمن يشك المرء فيه ،
في بنيه ، بل يشك في نفسه .

قال : سيزول هذا الشك بعد بضعة ايام ان شاء الله .
— ان شاء الله . ولكن لماذا رجعت الآن ؟ — لأشكر الأمير كما قلت .
— وبعد ذلك ؟ — وأخبره بعد ذلك ما لا يعلم .
— من اخبار الكوفة ؟ — بل من اخبار الشيعة .
— لقد رأينا رجال الشيعة الآن ، وحذرناهم ، وذكرناهم ما قاله امير
المؤمنين وهذا يكفي .

— وسمعت أقوال مسلم ؟ — سمعنا قوله وقول سواه .
— وكيف صبرت ايها الأمير على ما سمعت ؟ أيشهد رجل من بني اسد مجلس

والي الكوفة ، ويقول فيه : إذا بايعت ، بايعت وأنا مكره ، وتغض الطرف عن ذلك .

- وكنت ترى يا ابن شبت ان تأمر الشرط بالقبض عليه ؟
- أجل ، كان عليك ان تفعل ذلك او تنهأ .
- فجعل يخاطب نفسه قائلاً : أصاب امير المؤمنين فالنقى من المجانين .. ثم قال له : اخفض صوتك وحدثني بكل شيء .. قل ، أتبغض مسلماً ؟
- نعم حتى اني لا أطيق ان اراه وارى ولده عبد الرحمن ؟
- وهل كان عبد الرحمن مع القوم ؟
- لا ، فهو أرفع من أن يصافح والي الكوفة ويحني له رأسه .
- ولكن أباه لم يتردد في المجيء .
- إن مسلماً لم يشأ ان يغضب رفاقه .. أرادوا ان يزوروك ففعل وكأنهم يجرونه الى ساحة الإعدام . - وعبد الرحمن ؟
- واما عبد الرحمن فكان يقول : خير لي أن تتخطفني السيف ، من ان أرى أموياً يحب معاوية . - وقال ذلك على مسمع من الناس ؟
- قاله لأبيه وانا سامع . - وبماذا اجابه مسلم ؟
- أوماً اليه بان يسكت ثم هامسه قائلاً : احفظ لسانك فإذا عرف الضحاك انك قلت هذا ارسل في طلبك وقد يحملك رجاله الى الشام .
- قال : صفه لي .
- إنه فتى اسمر الوجه إذا مشى ملأت الخيلاء بردتيه . - وعمره ؟
- قد يكون اليوم في عامه الثامن عشر .
- إذن فكلامه كلام صبي لا وزن له .
- بل كلام رجل سيتزوج امامة الزيدية ، بعد عامين .
- من هي امامة ؟
- هي حسناء الشام والعراق .. وأبوها عمرو بن الحجاج .
- وهل يبغض ابن الحجاج معاوية كما يبغضه مسلم ؟

- أعترف لك بأني لا أستطيع ان اقرأ البغض او الحب في صدر عمرو ..
 إنه يتشيع ولكن تشيعه ضعيف لا شدة فيه . - وكيف تعرف ذلك ؟
 - أعرفه من حديث القوم فهم يذكرون البيعة كل يوم وابن الحجاج ، وابي ،
 لا يترددان فيها إذا طلبها الأمير .
 - سنطلب البيعة بعد ان نكتب الى امير المؤمنين لأنه لم يأمرنا بان نعرض لها
 وهو لا يحتاج الى مبايعة المتشيعين ، وخطر للضحاك عندئذ ان يختبر الفتى من
 وجه آخر يدور به حوله ، فقال : نسألك الآن عن امامة .
 - سل ما تشاء ايها الأمير !
 - قلت إنها حسناء الشام والعراق أليس كذلك ؟ - بلى .
 - وهي كما تقول ؟ - ليس في نساء العرب أجل من امامة واحسن وجهاً .
 - وأما زبيدية ؟ - بل هي من بني سعد .
 - وقلت أن عمرأ يتردد في تشيعه .
 - لم أقل هذا أيها الامير ولكني قلت أنه لا يتردد في أمر البيعة .
 - اذن فليس هنالك ما يمنع والي الكوفة من أن يخطبها لواحد من بنيهِ
 وسأفعل ذلك غداً . - ولكنها مخطوبة .
 قال : سيفوض اليها أبوها أن تختار واحداً من الفتيين .
 قال : فعل ذلك من قبل فاختارت عبد الرحمن . - ومن كان الفتى الآخر ؟
 - أنا . - ولم ترض بك ، وأنت ذلك الفتى الجريء ، وأبوك شعث ؟
 - لا ، وهي تقول اليوم أنها لا تترك عبد الرحمن ولو طلبها أمير المؤمنين
 نفسه ، ليزيد ولي عهده . - ومع ذلك فسنطلبها غداً ولتقل ماتشاء .
 قال : أرجو من الامير الا يفعل . - لماذا ؟
 - لأنني أظن أنها سترضى بي بعد حين .
 - وكيف تظن ذلك وأنت القائل أنها لا تترك الفتى الاسدي ؟
 - اعتقد أن مسلماً سيمعن في عداوته ، وسيدفعه بغضه وتشيعه ، الى الخروج
 عن الحد الذي يحتمله الخليفة . - وماذا تعني بقولك ؟

قال : إن أمام مسلم أمرين لاثالث لهما ، اما أن يقتله الخليفة كما قتل حجراً واما أن يأمر بارساله الى احدى بوادي الشام .

- اذا قتله كما تظن ازدادت الفتاة غراماً بولده .

- ولكن لا تنس أن هذا الولد يقتل بعد أبيه ..

- واذا لم يفعل الخليفة ماتقول ؟ - يخرج الوالد والولد من الكوفة الى الابد .

- ويبقى ابن الحجاج ؟ - نعم يبقى ولا يحسر على أن يلحق بمسلم .

- ثم تزف امامة اليك وينتهي الأمر .

- هذا مايقوم في الذهن أيها الامير ، ففضّ الطرف عن امامة الآن واخطب لولدك فتاة أخرى من بنات الامراء .

- ولكن بقي شيء آخر لم تفكر فيه هو أن الفتاة نفسها تخرج من الكوفة عند خروج عبد الرحمن ، وتلحق به الى حيث يشاء دون أن تبالي بأحد .

- اذا فعلت ذلك لحقت بها الخيل فأنا سأحباط للامر من جميع نواحيه .

- ولا ترجع عن هذا ؟ - لا يامولاي فعديني بأنك تارك امامة ..

- نعدك بذلك على أن نعود الى الحديث في وقت آخر ، وعلى أن تحصي أنفاس مسلم ومن معه לנוغر عليه صدر أمير المؤمنين .

- وسأحصي أنفاس هانيء بن عروة ، في الوقت نفسه فهو أصل البلاء . . . !
قال : اذا كان هذا فامامة لك .

وقام فدخل منزله ، وانصرف النام الواشي وهو يتنسم لأمله الضاحك ويعلل النفس ببلوغ غايته والقضاء على كل من يعرض له في غرامه ، وقد قام في ذهنه ، لمرض في النفس وخَوَر في الخلق ، ان الدنيا فرسة النمام .. الذي يدبّ على أربع ، للوصول الى الغرض الذي يفكر فيه !! أفيستقيم له الأمر ، وتزف اليه حسناء بني زبيد ، إذا هو ترفع عن السعاية ، واحتمل ما لا يطيق احتماله من لواجع الحب . . وهل ينتهي به اعتصامه بالهدوء والصبر ، ووقوفه عند حدود الأمل ، الى نيل مايتمناه ؟! لا ، إن الترفع ، والسكوت عما يراه صفقة غير

راجحة ، ومن الرأي أن يتمّ ويسمى ، ويدفع الفقى الذي احب امامة واحبته الى
 لجة بعيدة الغور ، ليخلو له الجو ! ...

ونام ليلته ، وهو يحلم بالصبية الفاتنة التي ملكت عليه نهار ، ويرى الهناه
 باسطاً فوقه جناحيه .. ولكن اليقظة ضيعت هناءه ، وأكرهته بعد الكثير من
 مساعيه ، على التراجع الشائن متعثراً بفشله .

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الفساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ٢ / ١
- زينب ملكة تدمر ٢ / ١
- حسناء الحجاز ٢ / ١
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ٢ / ١
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الشمس



ل.ل.